علاء خالد
أكتب إليكِ من بلد بعيد
دار الشروق
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

عـــــلاء خالـــد

أكتب إليكِ من بلدٍ بعيد

دار الشروق

أكتب إليكِ من بلدٍ بعيد
علاء خالد
صورة الغلاف: سلوى رشاد
تصميم الغلاف: هاني صالح
الطبعـة الأولى ٢٠١٦
تصنيف الكتاب: أدب رحلات
٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com
رقـم الإيداع ٢٤٨٣/٢٠١٦
ISBN 978-977-09-3378-7

اتنين شاي بالنعناع
رحلة للمغرب

الدار البيضاء - الجمعة ١٥ مايو

عند وصولنا الدار البيضاء وفي الطريق لمدينة الجديدة التي تقع على المحيط الأطلسي لحضور منتدى شعري يجمع شعراء المتوسط؛ لم ينقطع هطول المطر. خرجت من الإسكندرية في طقس شبيه، ولكنه كان استثناء في شهر مايو وشهد فرحة من الناس في الشوارع كأنه إحدى المعجزات، أما هنا فلم يلتفت له أحد. المكان الجديد دائمًا ما تمنحه قدرة وبلاغة ربما تفوق طاقته. كنا بصحبة حلمي السائق، في الثلاثينيات، ويشجع فريق الرجاء البيضاوي، ويتحدث بحماس عن مشروع ميناء الجبل الأصفر الذي يقع على نهاية هذا الطريق الطويل، والذي يعج بالمقطورات العملاقة التي تنقل الفوسفات الخام، وتئن على هذا الأسفلت المبلل.كان يحاول أن يروض سيولة ونعومة طبقة المياه المنتشرة على الأسفلت. كنت أسمع صوتها وأنا داخل العربة أستقرئ هذا الإحساس الجديد بالخطر. لم يخلع حلمي قدمه من فوق دواسة البنزين، لم تقل سرعته عن ١٢٠كيلو مترا في الساعة، وسط هذا المطر المدرار وفي أحلك الظروف، بينما التريلَّات تحوط عربتنا من كل جانب. كنت أضع يدي الداخلية على قلبي، مستسلمًا لتلك المشيئة التي تحوطنا، فهذا المطر كان بمثابة ماء الرحم حول جنين عربتنا.

كنا نلقي الشعر وسط الحدائق العامة، بكل اللغات. كان حضور أهل البلدة بكل طبقاتها شيئًا لافتًا ولساعات متأخرة، حيث كان ينتهي اليوم قرابة الثانية عشرة مساءً. كانت الإقامة في أحد المنتجعات التي تطل على الأطلسي في مدينة الحوزية، والتي تبعد عن مدينة الجديدة حوالي ١٥ كيلو مترًا. صارت رحلتا الذهاب والعودة، بين مكان الإقامة والمدينة، وعبر الطرق التي تخترق الغابات، أو عبر إحدى المدن الصغيرة؛ مادة ثرية لمتابعة أنواع نادرة من الطبيعة تحتضن الحياة اليومية لتلك المدن. في الصباح كنت أستيقظ مبكرًا، ومن شباك الحمام أرى وأسمع هدير الأطلسي، وبعض كبار السن يسيرون بحذائه في هذه الساعة المبكرة من الصباح التي تمنح أي لقاء جزءًا من فرادتها.

الجديدة – الجمعة ١٧ مايو - قناع النعناع

أغلب الثغور في المغرب التي تطل على المحيط الأطلسي والبحر المتوسط تم احتلالها بواسطة البرتغاليين بالتناوب مع الفرنسيين، الإسبان، وأحيانا الإنجليز؛ في عصور سيطرتهم على البحار في القرن السادس عشر. قلاع محصنة لها أسوار عالية، وأبراج للمراقبة، وأبواب وحوائط ثخينة، وأقطار سميكة من حديد النوافذ. كل شيء مضاعف ومبالغ في مقداره لاستقبال هجوم سيأتي من الداخل أو من ناحية البحر. في السابق كانت هذه المدن أو القلاع عبارة عن معسكرات مخصصة لجنود الحامية التي تحرس هذه البقعة المحتلة. ربما هذه الأسوار لم تحمِ فقط من كان يسكن بداخلها في السابق، وإنما امتدت الحماية للحاضر، لساكنيها الجدد من المغاربة. لا أعرف بالتحديد زمن التسليم والتسلم، زمن خروج البرتغاليين ودخول المغاربة، ربما امتد وقتًا طويلًا من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر أو ربما التاسع عشر، ولكن ظلت هذه البيوت هي الشاهد على هذه اللحظة الغائبة أيًا كان زمن حدوثها. تحولت البيوت، والمدينة ككل إلى قارورة تحفظ رماد الزمن المنقضي.

البسطاء عادةً هم من يسكنون هذه المدن القديمة، التي تُسمى الآن «القصبة»، لأنهم قديمًا من كانوا يقفون على أبوابها ينتظرون تلك اللحظة. مصطلح المدينة القديمة /المدينة الجديدة، مصطلح أصيل في المغرب، باختلاف الزمن والعصر والمسافة التي تفصل بين الاثنين. في مراكش، الجديدة، تطوان، فاس، طنجة، وغيرها من المدن. هناك شيء أصيل داخل المدينة القديمة، جزء من صورة

وحياة الماضي، كارت بوستاله المتحرك، رائحته، بيوته، أطعمته. الجزء المعبر والعابر لثقافة الحياة. يتحرك، كخيال الظل، من وراء ستار. لا تعرف هل هو ستار الحاضر أم ستار حمله الزمن من الماضي ليحفظه، ولكنه ستار لا مرئي لا يحجب الرؤية أو يعطل المتعة. هو الستار الذي يحفظ الماضي والمتعة من الابتذال، وفي الوقت نفسه يسمح بعبور بريقه. هذا التداخل العضوي بين الماضي والحاضر في المغرب يحتاج بالفعل لدقة في رصده حتى لا يطغى أحدهما على الآخر فيموت الجسم أو يتمنع عن كشف سر المصالحة بين الزمنين.
داخل هذه المدن القديمة تنتشر محال البقالة الصغيرة، وأغلبها عبارة عن غرفة مقتطعة من البيت تقوم السيدات بإدارتها ليدبرن المعايش مع أزواجهن، تشتم رائحة الطعام البيتي داخل المحل عبر هذا النفق المفتوح بين غرفة المطبخ والمحل، ومن خلاله تنتقل ربة البيت لتسد حاجة المكانين. كذلك تنتشر ورش الصناعات اليدوية القديمة التقليدية كالنسيج، ورش التفصيل للملابس المغربية التقليدية، ورش صناعة المنتجات الجلدية، دكاكين الحلاقة القديمة، الأفران اليدوية، المقاهي، المساجد، الزنقات الضيقة، المُنحنيات، النوافذ القريبة التي تطل على الشارع، روائح الطبيخ. كتلة واحدة لتمثال صنعه الزمن من كل هذه الخامات والأدوات. مكان العمل بجوار مكان النوم، بجوار مكان الاستمتاع، بجوار مكان العبادة، بجوار مكان الموت. دائرة مترابطة لمسالك الحياة وخفقانها من الميلاد حتى الموت. الأزقة تغريك بالتتبع، بالبحث عن السر الذي يختبئ وراء المنحنى القادم، أو خلف النافذة القريبة. في مدينة أزمور، التي كانت تقع بالقرب من السكن وتتواجد بها مدينة/ قلعة برتغالية قديمة؛ سِرْنا، أنا وسلوى زوجتي، في إحدى هذه الزنقات وراء سر الرائحة التي تعبق المكان ولا تعرف مصدرها. لم يخِبْ ظني، واكتشفنا بائع النعناع الذي كان يجهز عربته اليدوية أمام باب بيته ويرش الماء على بضاعته؛ ليبدأ رحلة البيع.
بالقرب منا كانت تقف امرأة، تقريبا في الستين أو ما حولها؛ خرجت من بيتها بملابس النوم تحت روب قطني لبني خفيف، على صوت حديثنا مع بائع النعناع، ثم انضمت لها طفلة في بداية عقدها الثاني، خرجت من بيت مقابل. انتظرتا؛ السيدة والطفلة، انتهاء حديثنا مع البائع لتعرضا علينا خدماتهما. سرنا معهما وفي يدي حزمة النعناع التي منحها لنا الرجل، باتجاه دهاليز تعرفها السيدتان جيدا حتى وصلنا لشاطئ نهر «أم الربيع» الذي يمثل الضلع الشرقي للمربع الذي يشكل المدينة. كان نهر «أم الربيع» بمثابة المخدة الإسفنجية التي تضعها مدينة أزمور خلف ظهرها لترتاح. كان المشهد قطعة من الريف الأوربي في يوم عطلة في لوحة «لمونيه»، من يصطاد، ومن يقوم بالتدريب داخل قوارب السباق مدببة الطرفين، ومن يتحدث مع زميله بانهماك كأن النهر غير موجود. بالطبع، السيدة والطفلة، حدستا أننا نبحث عن طريق للوصول للنهر وسط متاهة الزنقات، فعملتا كمرشدتين لنا. في طريقنا للنهر مررنا ببيوت مهدمة، وبعطفات وأركان تتصاعد منها رائحة البول الآدمي المتخمر. منحتهما، بالتساوي، قطعا نقدية معدنية لا أعرف بالضبط قيمتها في أعينهن. ساوت القطع النقدية بين عمريهما. تبادلنا عبارات الشكر والمودة، وانصرفتا على مهل وبملل ظاهر، خصوصا السيدة؛ باتجاه البيوت الضيقة التي خرجتا منها. نهار طويل ما زال في أوله، ولا تعرفان كيف ستتحايلان عليه، باختلاف العمر ومقدار الأمل الكامن في قلب كل منهما. طلبت منا المرأة، عندما عرفت بأننا مصريان، أن نصطحبها معنا لمصر، وعندما سألتها هل تملك جواز سفر، هزت رأسها بالإيجاب. كان الاستسلام الظاهر في صوتها وفي حركتها وعمرها المتقدم يجعل كلامها عن السفر عبارة عن مزحة أو كحلم سجين. في لحظة اليأس يُقذف الحلم/ الكلام من الفم، كتأدية واجب، بلا ثقل أو بريق.

يعجبني شكل الجلباب المغربي أو «الجلابة»، بالقلنسوة التي تغطي الرأس. أجده أحد المعالم الجمالية الحديثة المعبرة عن الثقافة الإسلامية. يوحي بشكل الزاهد أو المتصوف الذي يسير داخل قوقعته. يشبه لباس الرهبان في العصور الوسطى. الاثنان يتوحدان في هذا الجانب الشفاف من الدين. في مدينة أزمور التي تمتلئ حوائطها بالرسوم الجرافيتية، هناك أحد الرسوم لرجل يلبس الجلابة التقليدية، وطبعًا ملامحه غير ظاهرة تحت غطاء الرأس هذا. يبدو الرسم، لأنه رسم باللون الأسود، كظل لشيء، أو لأصل اختفى. القدم المفتوحة للسائر تدل على استمرار سيره على هذا الحائط الذي سيحفظ له خلوده. ليس فقط بسبب التقاطه في لحظة حركة أو ديمومة، بل أيضا كونه تجسيدًا لظل، والظل لا يُقضى عليه، كونه مجردًا.
الجلباب يمنح الجسد وسامة، يُخفي فوارق الطبقات، ويتسامى عليها. الزي الموحد العادل الذي لا يتقاطع في خطوطه الخارجية مع الفوارق الطبقية الحادة لصراعات المدينة. حتى الشحاذ الذي يلبس هذه «الجلابة» تضع يده الممدودة بالسؤال في مستوى محترم من التقدير كأنها يد وليٍّ أعْوَزهُ الفقر فجأة.
سرت بحزمة النعناع واقتسمتها مع سلوى، وفي النهاية وضعتها في جيب حقيبتي الجلدية. يحاصرك النعناع ورائحته في كل مكان: المقاهي، الزنقات، الأسواق، البيوت، الرياض، لا يوجد مكان لم تعبر به هذه الرائحة. كأن المكان كله مُعمد بالنعناع. يحتل النعناع في كوب الشاي أو «الأتاي المغربي»، كما يسمونه، قسمًا كبيرًا في الحيز والمذاق. بسهولة جدا تدخل حزمة النعناع داخل الكوب وتنتظر بداخله لبرهة من الزمن، حتى يحدث التفاعل السحري. ترشف الشاي وأوراق النعناع في أنفك، تستخسر أن تتركها عند انتهائك من الكوب، فتبدأ في مضغها بعد أن تسلل الشاي إلى أنسجتها.
هناك علاقة بين رائحة النعناع، وعتمة الأسواق في المدن القديمة، وباحات المساجد المكشوفة، وعمود النور الآتي من السماء في الرياض، وأسطحها التي تكشف شفافية المدينة. علاقة الصقور التي تعيش في القمم، والقمم التي يأتي منها النور، والصلاة الصامتة الموشاة بالزخارف في باحات المساجد، وقلب المؤمن الذي تحول إلى مسجد، يخبئ فيه نوره الداخلي خجلًا من نور الله. أكتب هذا عن مغرب الموحِّدِين والمرابطين،عن مغرب مولاي إدريس، ككيان عابر للزمن يجمع شتاته من السماء والجبال والوديان وباحات الصلاة المكشوفة، وأيضًا من رائحة النعناع.
لم تفارقنا رائحة النعناع حتى ونحن نزور مدابغ الجلود في مدينة مراكش. عند الباب لم أفهم مغزى حزمة النعناع التي منحها لنا هذا الرجل الذي اصطحبنا للداخل؛ إلا عندما توغلنا بين الأحواض التي تُدبَغ فيها الجلود. داخل الأحواض المملوءة بالأصباغ، كان هناك رجال، نصفهم الأعلى عار، غارقون في هذه المياه السوداء يعالجون الجلود، ويبدون كمسوخ آدمية، لا يظهر منها سوى بياض عيونهم. عندما رأى أحدهم عدسة الكاميرا، خرجت هذه المسوخ من القبور، كيوم القيامة، متضامنة وزاعقة ولاعنة ورافضة التصوير الذي لم يتم، وصبت جام غضبها على الرجل المرشد الذي يقتات بفرجة السياح على بؤسهم. خلال جولتنا السياحية التي أنهيتها سريعا، كأنني في زيارة تفقدية لأحد الأحياء التي دمرت إثر قصف جوي؛ لأنها لم يكن لها معنى، فقد ورَّطني هذا المرشد، وهم كثر، في رؤية ما لم أحب أن أراه. خلال هذه الجولة التفقدية لآثار الخراب والدمار ورائحة الموت؛ كانت رائحة النعناع هي القناع الذي يخفي وراءه هذا الجحيم من المعاناة والرائحة الكريهة للجلود. رائحة تتوارى تحت قناع رائحة أخرى. كأن قناع النعناع يلتف على وجه المدينة بإحكام حتى يخفي هجوم الروائح الأخرى الضارية.

وسامة الخبز

الخبز من الأشياء المحببة التي رافقت الرحلة وجعلتني قريبا، بدون مجهود يذكر سوى شحذ حاسة التذوق، من إحدى المفردات الحياتية الخاصة والعامة في آن. أمضغ هذا الرغيف المكتنز والذي يشبه في مذاقه، وفي شكله الدائري، الخبز الشمسي في صعيد مصر. وجبة كاملة تضم على مائدتها رائحة حقول القمح والشعير التي كانت تطل علينا أثناء ركوبنا القطار متنقلين من مدينة لأخرى، أو تلك الحقول الخاوية سوى من مكعبات الكثب المضغوط والمنثور داخل الأرض في انتظار نقله. الخبز يحتفظ داخل مذاقه بذاكرة لهذه المساحات الشاسعة من الأراضي التي جاء منها، والتي تتحول في النهاية إلى بلد أو وطن، هو حلقة الوصل والرمز الذي يربط هذه الأراضي خارج فكرة الملكية الخاصة. الرمز الذي يتعدى الملكية لكونه مقدسًا. يسير بذاكرته القديمة وعلى أطراف أصابعه يحف بهذه الحدود والقرى الصغيرة، والمطاعم الضيقة، والزنقات المزدحمة، دون أن يفقد وسامته وبهاءه وأهميته في الحياة اليومية. ربما يكون هو بطل هذه الحياة الخفي.

ما زال بالمغرب مشهد الخبَّاز التقليدي وهو واقف أمام بيت النار يلقم الفرن بأقراص من العجينة ثم يغلق الباب وينتظر. وعلى سطح هذا الفرن الأرضي، هناك مدخنة اسودَّ لون معدنها. تلك الدوائر من العجين ستتحول بعد قليل لكيان خاص، يتعدى النار التي أنضجته، والقمح الذي عُجِنَ به! إنه الخلق الذي يتعدى مكوناته ويتفوق عليها. في مدينة أزمور، وفي كل المدن القديمة، هناك العديد من الأفران البدائية القديمة، التي كانت موجودة في مصر حتى الثمانينيات. الخبز له مذاق وحنان النار التي تحوطه داخل الفرن. دخلنا أحد الأفران في أزمور، وبكل تلقائية طلبت من الخباز أن أشتري رغيفًا كبيرًا من تلك الأرغفة الدائرية كبيرة الحجم المرصوصة على أرفف خشبية. وأنا أسأل ساورني الشك، استكثرت أن هذا الخبز الأنيق يمكن أن يباع للعابرين من أمثالي. اعتذر الرجل وقال إن هذا الخبز مخصص فقط لأهالي الحي. لم أفهم، ولكنها كانت إجابة مقنعة. حضرتْ إحدى الفتيات تحمل مستطيلًا خشبيًّا فوق رأسها وأخذتْ خبز عائلتها بعد أن غطته بقطعة من القماش الشفاف كالشاش الذي كنا نغطي به طبق الفاكهة الموضوع تحت الشباك قبل سيطرة عصر المبردات. إحساس المناطق الشعبية القديمة في مصر، عندما تحمل الفتاة صاج الكعك فوق رأسها، لحظة اتزان يومية بين الجسد وما حوله. الأهالي هم الذين يعجنون الخبز ويرسلونه للفرن، وهناك تتم عملية التسوية مقابل مبلغ ما. حتى لا يردنا خائبين، استوقفنا الخباز ومنحنا نصف رغيف كان مخصصًا لإحدى عائلات الحي. شاركْنا عائلة ما شطرًا من نصيبها اليومي من الخبز! اقتسمنا الخبز وسِرنا به، ويبدو أنه كان جواز المرور مع أهل الحي وتبادل الابتسامات.

أثناء سيرنا في هذا الصباح، كانت هناك بعض السيدات يغسلن ملابسهن وأواني البيت في الحنفية العمومية التي تتوسط ساحة صغيرة. وجميعهن يرتدين ملابس النوم، دون وجود فاصل بين البيت والشارع. حدثت مشاجرة بين إحدى الفتيات التي تبدو عليها سمات التأخر العقلي، وبين أحد الشباب. لم يتقدم أحد لحمايتها عندما شتمها ثم صفعها وبدون أن تئن، ثم بدأت تبادله الصفعات والشتيمة، ويتخللها بكاء مكتوم كمن يتعتع صخرة كبيرة، ثم حال الناس بينهما. يبدو أن هذا الموقف يتكرر كثيرا كونه لم يسترع أو يعطل حديث السيدات ومشاغلهن حول الحنفية العمومية. كنا فقط متفرجين جديدين داخل هذا الفيلم اليومي.

في محال البقالة المنتشرة في المدن القديمة على الفاصل الرخامي بين الداخل والخارج ينتظر هناك كل صباح صفوف من الخبز، يقف البائع خلفها، كستارة مسرح تنزاح رويدًا رويدًا،

وسرعان ما ستتجمع حولها مجموعة من الناس ليتحول صباح المحل إلى مطعم للأكل والحوارات السريعة. الخبز دائمًا في المقدمة كعنوان للصباح. لوقت قريب كانت محال البقالة والألبان في مصر، خاصة في الإسكندرية، لها هذا السمت والحميمية وتقدم ساندوتشات ووجبات رخيصة ومختلفة لروادها الصباحيين. وجبة الإفطار من الوجبات الهامة، يُسخَّر لها الشارع وطاولات المحال والمقاهي. تتنافس جميعها لتقدم شيئا له مذاق في هذا التوقيت العزيز من اليوم.
الصباح هناك له جاذبية، ليس فقط لأنه عنوان نيء للبداية، ولكن من أجله تخرج وصفات ومذاقات أطعمة البيوت القديمة. الطعام أحد الروابط بين البيت والشارع، بين الزمن الحديث والزمن القديم، إذا كنا نتجول في الحاضر، فمذاق الماضي يحوطنا من كل جانب، خاصةً في المدينة القديمة في فاس. سيدات عاديات ورجال عاديون يقفون في تلك المحال، يصنعون الفطائر ويقلونها أو يسوونها على تلك الآلة المعدنية الساخنة، أمام عينك، كل شيء يصنع في اللحظة، تبيع لك السيدة الفطيرة وتقدم معها تلك الابتسامة البيتية، بينما يداها تلمعان بتأثير السمن أو زيت الزيتون، والذي بدوره يقابلك في مواجهات عديدة هناك: في أشجار الطريق، في الإفطار، في محال بيع الزيوت والأعشاب مع زيت الأرجان.
القِدم في المغرب لا يتلخص فقط في الأبنية والزنقات والأضرحة التي تصادفك في كل مكان، ولا في عمر الضوء الذي ينحني مع دورانات الزنقات ليفرش أمامك سجادة من الأحلام الشعبية. ليس هذا فقط، بل أيضًا في أشكال الطعام ومذاقاته، وتنوعه، واستمرار وجوده وسط كل الأطعمة الحديثة. التحول والتحديث في المغرب استثنى أشياء، ربما لأن هناك طبقات بسيطة تعيش عليها، ولو تخلت عنها كانت كالسمكة التي خرجت من الماء. هؤلاء هم الذين يدافعون بفقرهم عن أجندة أطعمتهم التاريخية، وعن حياة مضت. في فاس القديمة من كثرة محال الأكل في الشارع، وازدحامها بالرواد، وتجاورهم على الدكك، تشعر بأن هناك وجبة جماعية تشمل كل هؤلاء، حتى لو لم يروا بعضهم البعض، لكنهم في زنقات متوازية يتشاركون في نفس أنواع الأكل، والمذاق القديم، ونفس درجة الظل، والضوء، ونفس رائحة الزنقات، ونفس الإحساس بأنهم يتشاركون ميراث هذه المدن القديمة، بكل ألمه، وبكل أصالته، ولو خرجوا منها، أصبحوا كالسمك عندما يغادر مياه المحيطات الواسعة للمياه الضحلة، للحياة الحديثة.
كل الأفكار والصور السابقة على زيارة المغرب تلاشت أمام أصالة أشكال الحياة القوية، وتفاصيلها التي تفوق وتتعدى طاقة الاندهاش المختزنة بداخلنا، والتي تمرح بالقلب وتشده كقوس على أقصى اتساع. أي صورة سابقة أو فكرة سابقة تتكسر بسهولة أمام تجاور الأزمنة، وأمام تفاصيل الصورة المركبة من فسيفساء يختلط فيها القديم مع الحديث. القديم ليس أثرًا، ولكنه زمن يعيش في الحاضر ويكبر في المستقبل. القديم حالة إنسانية أكثر منه أيقونة، حالة زمن خاص، من ضمن أزمنة الحياة. هو الماضي الذي يريد أن ينفصل عن عربة القطار ليلحق بالحاضر. القديم ليس غرائبيًّا لأنه عائش وسط حياة الناس، بتبجيل كتبجيل الموتى أصبح معتادًا، كالضريح. حياة الناس من حوله هي التي نزعت عنه غرائبيته وانفصاله، وكسرت أي توقع أو صورة نمطية.
في كل وجبات العشاء الرسمية في مدينة الجديدة، عندما كانوا يأتون بطبق معدني عليه غطاء نحاسي له شكل القبة، يسيل لعابي قبل أن أكتشف ماذا يوجد تحته. أحس بأن عند رفع الغطاء سيظهر المارد ويتشكل أمامك «شُبيك لُبيك عبدك ومِلْك إيديك»، ولكن شيئا آخر يظهر تحت هذا الغطاء السحري، تلك الأرغفة من الخبز كأقمار صغيرة مكتملة، والتي تتخاطفها الأيدي سريعا.

داخل أدوات وصنوف الطعام لمسة خيالية من حكايات «ألف ليلة وليلة»: الطاجن، اللحوم، الكسكس، خلط الفواكه الناشفة والزيتون مع اللحوم.
السحر في المغرب لا يأتي فقط من الحكايات، إنه القديم الذي يقدم نفسه، ويكشف عن نوره الداخلي بدون ابتذال أو فرض رأي. الكنز الذي عتقه الزمن، يكشف عن حرارة الحياة التي صاغ أنفاسها هذا القديم، من أكثرها مادية كالخبز، لأكثرها تجريدًا كالضوء. الاثنان يختلطان، المادي والمجرد، في هشاشة الخبز ووزن الضوء في الزنقات. هذا الضوء السارح في الزنقات القديمة بدون أن يفقد حياءه أو شفافيته. تركوه يكبر بجوارهم جيلًا بعد جيل، لم يضعوا في طريقه بنايات أو أشكال حياة تمنع وصوله للجميع، تركوا من حوله كل أصدقائه القدامى والذي لا يمكن أن يعيش بدونهم: الرياض، والأسواق، والروائح والأطعمة.
السحر هو المكان الحالي بدون حكاية، هو المتبقي بعد أن انتهى زمن الحكي الأسطوري والمعجزات، وظلت مناخاته تنتظر راويًا/حكَّاء جديدا. ربما هو هذا الرجل العادي الذي أصبحت حياته اليومية واستمرارها هي المعجزة الجديدة، التي تمنح لهذا السحر القديم تجددها ومستقبلها، فمن صنع السحر وأبطال الحكايات قديما كانوا هم هؤلاء البسطاء. منهم وإليهم تعود الحكاية.
السحر في المغرب، كما أراه، غير استشراقي لأنه لا يفض سرًّا، ولا يكشف عورة، كضوء النهار يتسرب بهدوء بدون أن يصدمك بنوره.

في الطريق من الجديدة لمراكش

استقللنا الأتوبيس من الموقف القريب من حديقة محمد الخامس بالجديدة. انتظرنا حتى ميعاد الأتوبيس داخل إحدى الكافتيريات القريبة المتخصصة في تقديم وجبة الفطور والعصائر، وتناولنا هناك الفطيرة المغربية الشهيرة (البسطيلة) المحشوة بالدجاج واللوز والسكر. ابتعنا كيلو خوخ قبل الذهاب للكافتيريا حتى يتسنى لنا غسلها هناك وتناولها أثناء الطريق. في الطريق عبرنا أراضي شاسعة غير مزروعة، ربما كنا خارج موسم اخضرارها. رجل عجوز وزوجته وأولاده الصغار يركبون كاروسة ويمرقون عبر هذه الأراضي الشاسعة، ولا ترى على مرمى البصر المكان الذي أتوا منه أو الذي سيذهبون إليه، كأنهم خرجوا من داخل صورة طبيعية ليؤدوا هذه المهمة؛ بعث الحياة في هذه المساحة الخالية ورسم مبتدأ ومنتهى لها. بالتأكيد هناك نقطة خروج ونقطة عودة غير مرئيتين بالنسبة لي. أتتبع هذا الخط غير المرئي الذي يربط النقطتين. داخل هذا الخط مسار حياة يمتد ويتأرجح وينتهي. هذا المسار الخفي هو الذي نسافر من أجله، وبحثًا عنه، ورغبةً في أن نكون نقطة مضيئة عليه، والذي هو مسارنا أيضًا. إنه عصر السير ونحن نائمون. الجسد يرقد هنا، بينما الروح تشق طريقها وتتنقل بخفة وتتشابك وتتقاطع مع مسارات الآخرين في بلاد أخرى.
عبرنا مجموعة من القرى أو البلدات الصغيرة: سيدي بنور، مركز بو همام، أولاد وليم، قطارة، تامنصورة، ولاد تافيسغت. كثرت توقفات الأتوبيس مثل القطار القشاش الذي يقف في محطات ويرى تفاصيل لا تراها القطارات السريعة، ويُقل أناسًا لا يظهرون على الخطوط السريعة إلا في لمح البصر في لوحة ساحت ألوانها المائية. في السفر تكشف شبكات المواصلات العامة عن تلك الخرائط الطبقية والإنسانية للمدن والمجتمعات التي تخترقها. يظهر على سطحها المكشوف، أمام طريق السفر السريع، رموز الدولة المتمثلة في قسم الشرطة والمستشفى، مقر الحرس الملكي، والمركز الاجتماعي. والأهم هو تلك المجموعة من المحال والمطاعم البسيطة التي يتصاعد منها دخان الشواء ويحتل واجهتها صف الطواجن المغربية ذات اللون البني، بالإضافة لكافتيريات الترانزيت التي تشبه مثيلتها في مصر بطول الطريق الزراعي. والتي تشعر بأنها خلقت من عدم،

بدون حياة اجتماعية وراءها سوى الحياة التي تقذف بها طرق السفر الطويلة. في تلك المحال فقط تباع أنواع خاصة من الحلوى والبسكويت التي لا تراها في المدن، ولا يأكلها سوى أطفال الأرياف أو العابرين من أمثالي.
تشعر بأن هذه المدن والبلدات الصغيرة نقاط ضعف على مسار الطبيعة الصلبة، نشأت عَنوة بقانون مخالف لقانون الطبيعة، أو أن الطبيعة تفوقت منذ الأزل بما لا يدع مجالًا للمنافسة، ولم يقدر الإنسان أن يصنع فردوسه الخاص. أعتقد أن المغرب، كأوربا، أسطورتها هي أسطورة الطبيعة. الجنة ولدت أولا ثم جاء الإنسان متأخرا جدا. البحر والنهر والغابات والجبال والوديان، كل هذا يمسكه المغرب في قبضته، هذا ما شرحه لي أحد سكان مدينة أزمور وهو يبسط كفه ويعدد على أصابعه، كأنه يسبّح، المكونات الطبيعية التي شكلت هذا المكان. ثم يضم أصابعه ويشد كفه كأنه على وشك تسديد لكمة ضد ظلمٍ ما، ضد مؤامرةٍ ما، ضد جنة لا يستمتع بها ولا تحقق له السعادة، كأن لسان حاله يقول: برغم كل هذا فهناك خلل ما!

الثلاثاء ٢١ مايو – مراكش

وصلنا مراكش عصر الاثنين ٢٠ مايو، وبحثنا عن الرياض الذي سنقيم فيه لأربعة أيام قادمة، والذي اختارته سلوى من شبكة الإنترنت. كنا نسير خلف آخرين كتبوا تفاصيل رحلتهم والأماكن التي أحبوها، بل ووضعوا تقييمًا دقيقًا للأماكن والفنادق والمطاعم، من حيث عيوبها وحسناتها. لم يعد هناك مكان جديد للاكتشاف، لتكون أول شخص يضع قدميه عليه كما فعل «كريستوفر كولومبس». ربما لأن السياحة الجديدة ومشاعيتها عطلت فكرة اكتشاف السر، وتحولت إلى خبرة تتراكم فوق أخرى. اختفى المخبر وظهر مقتفو الأثر. هناك دائما من سبقك للسر، أصبحنا مكشوفين أمام بعضنا البعض، كبشر وكأماكن، والاكتشاف الحقيقي هو رعشة الداخل عندما يتحول الخيال إلى واقع، والمقروء إلى كتابة. نبتعد عن الأصل بعدد القراءات، أو نرى الأصل في ضوء هذه القراءات. عصر الأسرار هو عصر الاكتشافات والسبق، عصر الاستعمار بامتياز، عصر سياحة الاستعمار، أما الآن فجميعنا نقرأ في تفاصيل هذا الكتاب الكبير الذي وضعه الاستعمار عن السفر، ونتململ أثناء القراءة، أو نغلق الكتاب تمامًا، ونقرأ تلك الذبذبات والموجات التي التقطتها دواخلنا غير المُستعمرة.
لم يكن صعبًا الوصول للرياض الذي اخترناه من أحد كتب السفر على الشبكة العنكبوتية. زنقات لا تتسع سوى لفردين في المرور، ولا ترى منها السماء. صوت مزمار وطبول يأتي من بعيد ويقترب كلما اقتربنا من الرياض. يتكون الرياض من ثلاثة أدوار وسطح لتناول الإفطار. حجزنا غرفة في الطابق الأول. كان النزلاء الأجانب يجلسون في باحة الرياض المفتوحة على السماء، والتي تتناثر بها عدة كنبات وهم غارقون في قراءة شاشات تلفوناتهم، حيث المكان الذي تقوى فيه شبكة الإنترنت ويمكن التقاطها بسهولة. سيصير هذا المكان المكرر في كل الفنادق والرياضات الذي يجتمع فيه النزلاء في شكل دائرة، كل واحد منهمك في متابعة بث شاشته، وفي الوقت نفسه يمنح ابتسامة لجاره المؤقت. عند دخولك الفندق، وبعد أن تحجز الغرفة وتأخذ المفتاح بيد تأخذ كلمة المرور مكتوبة على ورقة، للدخول على الشبكة، في اليد الأخرى. في قائمة هاتفي هناك العشرات من كلمات المرور لفنادق ومقاهٍ ومطاعم مررنا بها، أو أخرى التقطها التلفون سهوًا، ومن هناك فتحنا جسرًا، عبر هذه الكلمة السحرية، للدخول لعالمنا الذي جئنا منه، كي نظل على اتصال وبث مباشر معه.

صوت المزمار والطبول القوية كان آتيًا من ساحة الفنا التي تفصلنا عنها أمتار قليلة. هي المركز الذي تسعى إليه الحيات وهي منوَّمة مغناطيسيًّا بالموسيقى. لم ينقطع هذا الصوت ليل نهار، دعوة مفتوحة لهذه المدينة التي لا تنام. كانت هذه الساحة إحدى غاياتي في زيارة المغرب بعد قراءتي لـ«إلياس كانيتي»، الكاتب الألماني ذي الأصول البلغارية الذي زار المغرب وساحة الفنا في الخمسينيات وكتب كتابًا من أجمل الكتب التي تتحدث عن تلك العلاقات الرهيفة والاستثنائية، العين التي تتهجى المكان وثقافته بهدوء وتلعثم، وببلاغة في هذا التلعثم، الذي يكشف في النهاية مستوى آخر من الوجود والثقافة وحب الناس: أصوات مراكش.
تمشينا حول الساحة، انسلخنا منها سريعًا لأحد الشوارع أو الزنقات التي تحوطها. شارع طويل يتداخل فيه الحيّز المغربي، بالمعنى الفلكلوري، مع الحيز الأجنبي. كأنها سبيكة من الأحواز سُبِكَت من زمن بعيد. كثافة غير طبيعية من الأجانب المحتشدين في هذه الشوارع التي تجمع كل أنواع المحال القديمة. لا يوجد شيء بعينه يتطلعون إليه أو يجذب عيونهم سوى أن هذه الحالة والزمن القديم برمته هو الهدف، الذي ينظرون إليه، كلٌّ بقدر اتساع عدسة وجوده. وأحيانا يتحول الهدف أن يتطلعوا لبعضهم البعض في هذا الكرنفال الكوني. الشارع أكثر إغراقًا في الماضي من شارع المعز في القاهرة. كل شوية تتلفت لتتفادى «فسبا» أو عجلة آتية من الأمام أو الخلف يقودها شاب أو فتاة أو سيدة مغربية. كنا دائمًا نسير في الجانب الخطأ. قيادة السيدات للفسبا سلوك عادي في كل مدن المغرب.
ربما ما أراه الآن من تداخل صورة غير نهائية، دخل فيها العنصر المغربي لصالون المستعمِر بقميص النوم. هناك علاقة توطدت، لا تشعر برعشة الصدام بين الاثنين، كما قلت هناك سبيكة استراحت عناصرها وتداخلت باختلاف مكوناتها المتناقضة. الشارع المغربي يسبق كتب الاستشراق.
يجلس الرجل بعمره الطويل الذي يطويه تحت الجلابة مربعًا على الأرض يقرأ القرآن داخل حانوته الصغير، وأمامه صنوف من العطور التي يبيعها، غير عابئ بها، كأنه لا ينتظر رزقًا من تلك الزجاجات الملونة والأحجار الكريمة والصبغات. صدفة أن يقع حانوته على هذا النهر الذي يجري فيه اليورو والدولار والين. تكفي جلسته، وزهده، الموثقة في صور كل كتب الاستشراق، ليمتد فرع صغير من هذا النهر النقدي ليُغِرْق حانوته الصغير بالدعاء. الصمت محسوب، ولا أشك أبدًا في زهد الرجل وإخلاصه، ولكنه تواجد في مكان ملتبس، يصعب فيه استخلاص المشاعر الخالصة. وتراكمت فيه الصور المأخوذة عن صور سابقة سواء لأهل المكان، أو لمن يلتقطون صورًا لهم تؤبد وتسجن وتوثق كل مظهر خارجي أو داخلي. الصورة في النهاية ذات بُعد واحد، مفرغة من الحقيقة، وإن حملت جزءًا منها.
المغرب بالنسبة لي كانت مساحة إحساس وليست صورة. كل مدن الخلاص التي حلمت بزيارتها، لم تكن لها صورة مسبقة، ولكنْ إحساس ينتشر في خلايا الذاكرة، حتى يصل للمذاق. إنها كالطبيب النفسي الذي ستحكي له كل شيء وهو صامت. ما فعلته الحقبة الاستعمارية أنها خلقت صورة عن صورة عن صورة. أجيال من الصور. تخف الحقيقة عبر هذا التناسخ لها، كأنها غير موجودة ويصعب الإلمام بها. ربما صورة المغربي عن نفسه، هذا الجالس مكشوفا أمام عيون الغرباء وهو في أدق لحظات حضوره في تاريخه الروحي عبر الإنصات لصوت وكلمات القرآن، هي أحد منتوجات هذا التناسخ. بمعنَى ما يشوبها أخطاء التناسخ للحقيقة. لا توجد حقيقة ساكنة. ربما في عالم آخر قادم أو عالم قد لا يأتي ولكنه منح عالمنا طاقته الناقصة؛ سيكون مسار الحقيقة المتناسخة

أقل مأساوية لأن الآخر الذي ينظر إليك، وهو السبب الأصيل في تكوين صورة عنك وبالتالي صورتك عن نفسك؛ ليس مُستعمِرًا أو متفرجًا أو سائحًا، وإنما جزء منك باختلاف طول المسافة والبعد. لا يربطك به سوى أنكما مشتركان في عالم واحد وتريدان ازدهار هذا العالم ليس إلا. في عالم آخر سيأخذ المال والقوة والتفوق أشكالا أخرى، رمزية، مثلما كنا نلعب كأطفال بنوى المشمش أو غطيان زجاجات الكوكاكولا والبيبسي كأنها نقود. «كده وكده»، كل أسباب القوة «كده وكده». العالم العادل، عندما تكون الآخرية تحدث في وضع غير ملتبس، أو أقل التباسًا، وله مسار آخر غير احتكار القوة والمال والتقدم، وملحقاتها من صور الاستغلال.

في فيلم «شاي في الصحراء» للمخرج الإيطالي «برتو لوتشي»، المأخوذ عن رواية «السماء المقنعة» للروائي الأمريكي «بول بولز» الذي قضى جل حياته في طنجة، والتي تدور أحداثها في مغرب الأربعينيات، في عز ازدهار النظرة الاستشراقية، يبحث البطل «جون مالكوفيتش» عن الخلاص، مدفوعًا بكل الصور التي صنعها الغرب عن المغرب، وأهم صور الخلاص هي الجنس. تضخمت صورة الجنس حتى كادت تبتلع كل قادم، وبالتالي تضخيم صورة المرأة أو وضعها تحت مجهر مكبر، وهي السبب في صنع صورة الخلاص عبر الجنس، الجنس العربي المخملي. هذا الخلاص المغلوط، بجانب الحشيش، هو الصورة المغلوطة للخلاص التي وقع البطل في أسرها هربًا من حضارته. ولكن غرقه في الجنس بكل أشكاله، والحشيش، لم يغمر سطح قلبه، كسفينة غارقة. لقد وجد أن سطحيهما، الجنس والحشيش، قريبان وليسا رحلة تغير مفهومه، لقد اصطدم بحائط قريب داخلهما. لم يعد يشعر باللذة أو الغياب الواعي كما كان يتمنى. حدثت صدمة لهذا الخيال المتحفز للخلاص، فكانت مرحلة هذيانه ليست فقط تعبيرا عن صدمته في الجنة التي بحث عنها ولم يجدها كما تمنى، ولكنْ أيضا خيبة أمل واحتراق لصورة مركزية في مخيلته، كانتا تغذيان أحلامه وحياته بالأمل، حتى تحولت هذه الصورة إلى رماد.

دائمًا ما يتبادر لي السؤال: لماذا يبحث الغربي عن الخلاص؟ أي حائط يصطدم به في حضارته، طالما هناك آخر اكتشفه في رحلة بحثه ومعرفته وتنويره، فلماذا الطريق إليه أصبح صعبًا ومسدودًا الآن؟ هل الآخر الذي اكتشفه هو الدولة؟ وبالتالي الصور العاطفية المشحونة المنسوجة حوله والناتجة عنه لا تصل لعمق القلب أو تروي عطشه؟ هل الآخر هو دائرة العمل الجماعي؟ لماذا يبحث الغربي عن الذوبان؟ ففكرة الخلاص التي زرعت في ثقافته لم تتبد كحوار مع آخر بعيد، ولكن كذوبان، والذي هو ضد الحوار أو تجاوز له. ربما يأمن الغرب لوجود الشرق كجنة بالرغم من رفضه لها، لأنها تثير عنده شهيته المفتوحة للخلاص، تثير عنده رغبة الموت. الشرق أحد أمراض الغرب النفسية.

لحقيقة أي شيء أجيال، الجيل الأول والجيل الثاني، وهو الذي يقع فيه السائح. يرى السائح الحقيقة عبر عدستين، أو عدسات متراكبة، عدسة الصورة الأولى، وعدسة الصورة الثانية المنعكسة على سلوك النساء وحركاتهن. هناك تناسخات مستمرة. زجاج الصورة الأولى وزجاج الصورة الثانية. السائح، مثلي، يرى جسد المرأة عبر عدة فلاتر زجاجية.

المرأة في المغرب إحدى ضحايا هذه الصورة المغلوطة، الجيل الثاني بعد الجيل الأول الغربي الذي رسم الصورة، هناك انعكاس في حركة الأجساد للبنات، يؤدين صورة المرأة المشتهاة، وطبعًا بدون أن تنتظر ذلك أو أن يلبي أحد اشتهاءها. داخل هذا الحيز من الجسد والملابس المُحَمَّل بالصور. داخل هذا المسرح تبذل المرأة جهدًا وحركات واستجابات لكي تملأ فراغ الصورة والدور. المرأة في المغرب تسير وعليها غلالة رقيقة مثل كاست لون لصورةٍ تم تحميضها بشكل

خاطئ فطغى لون على باقي الألوان، فلتر من فلاتر لصورة الغرب عن المرأة. الصدر واضح وقوي، ومكشوف غالبًا، بدون الزرار العلوي المنزوع في خيال المراهقات، ويتقدم المشهد ليس فقط كبروز للثديين، ولكن كجزء من قوة وإغواء، لطرف لم يعد موجودًا. إغواء من طرف واحد، ذاتي غير موجه، كالأناقة. حتى الأسماء العربية: خديجة، عائشة، جميلة، مليحة، مليكة، فاطمة؛ جميعها تزيد هذه الصورة اشتعالا كأنهن ممثلات لعصر قديم لم يتبق منه إلا الأسماء. هذا الصفاء في الاسم يقابله صفاء في صورة الرغبة التي تحوطهن. ولكن دون شك صنع كل هذا تحررًا ما، تلحظه بدرجات متفاوتة في كل مستويات المجتمع من البسطاء للأغنياء، من الريف للمدينة. كان القطار هو المكان الذي تتجمع فيه كل هذه التفاوتات.

الصور المغلوطة لا تعني فقط التقوقع والانحباس فيها وسوء الفهم، وربما تعني أيضًا تثبيت مركز ما يتم عليه بناء الوعي حتى يتضاءل حجم هذا المركز ويُنسى تمامًا مع تقدم الأيام وتعيش آثاره فقط. خصوصًا لو كان هذا المركز يعزز نقطة إيجابية في النفس كونك مرغوبًا، أو قويًّا، أو متفوقًا. مثلما يقابلك أحدهم وأنت صغير ويمنحك صكًا بأنك تمتاز بكذا، وكذا، وكذا، حتى لو كان في هذا الوعي وهم وغلط وكذب، ولكن تفاعله يكون إيجابيًّا على مدار السنوات لأنه يبدأ من حصالة النفس وبها بعض القطع المعدنية. غير أنها تبدأ من نقطة سالبة، وحصالة النفس خاوية تماما. دخلت النساء في المغرب الحياة الحديثة وفي حصالتهن رصيد وافر من الثناء والإعجاب والإثارة.

الأربعاء ٢٢ مايو – الطريق إلى ورزازات

اقترح علينا أحمد، المسئول عن الرياض الذي أقمنا فيه، بأن نذهب في زيارة إلى ورزازات ولمدة يوم واحد. كل أسماء المدن والمزارات في المغرب موحية ومغرية، كأنك ترى من فرجة باب مفتوح على بهو حقبًا تاريخية متعددة. كان السعر لكلينا؛ أنا وسلوى، هو ٥٠٠ درهم. وافقنا على الفور وأخذنا ميعادًا في فجر اليوم التالي في ساحة دار الفنا أمام البوستة العمومية في السادسة صباحا. كانت الساحة خالية وأرضيتها لامعة، وألوان الفجر وهواؤه لم يبرحا الساحة بعد. اقترب سائق الميكروباص وسألني «أنت المصري؟». كنا أول الراكبين. دقائق وانضم إلينا العديد من السياح الأجانب، من أوربا وأمريكا، بالإضافة لعروسين يابانيَّين، جلسا في المقعدين الأماميَّين وراء السائق ونحن من ورائهما. عرفت فيما بعد أنهما في رحلة شهر العسل وسيتوجهان بعدها لإسبانيا ومنها لإيطاليا ومنها إلى لندن ثم أمريكا. رحلة طويلة للغاية يقطعانها، احتفالا بعرسهما، بين ثلاث قارات من القارات الخمس، لتُعمِّد هذه القارات رباطهما المقدس، وعبرها ستتناثر ذكرياتهما كأسطورة درب اللبانة عندما نامت «هيرا» زوجة «زيوس» كبير الآلهة وهي تُرضع طفلها هرقل، وعندما استيقظت مذعورة رمت بطفلها بعيدا عنها، فتدفق حليبها ليكوِّن درب اللبانة. من نقاطهما المتناثرة عبر المدن والقارات ستتكون مجرة ذكرياتهما.

«السائحون خربوا كل شيء، جعلوه فلكلوريًّا، حتى الجنس أصبح فلكلوريًّا».

«لقد ثبَّتت السياحة والسائحون، شكلا وحقبة محددتين للجمال». «لقد عجزت حقبتا القرن الثامن والتاسع عشر أن تنقلا الجمال المختزن بها، والذي هو حصيلة لجهد قرون قبلها حتى وصل لهذا المستوى من الرهافة في الأدوات اليومية والثياب والبيوت وزينتها؛ إلى القرن العشرين. ثمة شيء حدث وجعل هذه الحقبة غير قابلة للتطور وتحولت هذه الأدوات إلى أيقونات مُقدَّسة، ربما هي تلك النظرة الفلكلورية، أو النظرة المركزية».

«ولكن لأنها حقبة انتقال كان يجب أن تكون حرة، في دول العالم الثالث، وغير مؤطرة بنظرة ثابتة، أو مُراقبة. أو غير معمدة بالاستعمار. ربما كانت رحلة الجمال تأخذ مسارا آخر ويتضاعف عمقه ويتنوع».
«إنها النقلة الأوسع في الحضارة الحديثة للغرب، بين نمطين للحياة (وهي التي صنعت عالمين، أحدهما يشاهد الآخر) والتي استغلتها السياحة، أو كانت السياحة إحدى وسائل تدجين مناطق ضعيفة في العالم لم تعرف كيف تدافع عن جمالها، أو أفكارها، أو تضع مسارًا آخر لتطورها خارج هذه الدائرة الجهنمية للجمال الغربى».
كانت هذه الأفكار المتناثرة هي ملخص حواري مع سلوى في الطريق الجبلي الصاعد ونحن في طريقنا لورزازات. لا تأتي هذه النوعية المجردة من الأفكار إلا في السفر، عندما ترى الأرض الحقيقية للصراع. عندما يكون لأي فكرة في ذهنك تمثيل في الواقع، أو أن الواقع المادي يتحول مباشرة إلى أفكار صافية، ترى بذور الأفكار الكبيرة منثورة في كل مكان تدخله أو تزوره، يستثير في ذهنك تاريخ هذا الصراع.
كلما ارتقينا في الجبل أصبحنا قريبين من تلك الكلمة التي لها ثقل وكثافة في المغرب (البربر/ الأمازيغ)، فالجبال هي الموطن الأصلي لهم، ولهم سطوة عليها حتى ولو لم يضعوا سلطتهم عليها كاملة. يكفي كوخ صغير ليكتسب المكان كله تاريخه وهويته من هذا الكوخ وهذه السيدة التي تعمل على النول أو تضع الوشم على يديها.
فكرت في أن أكتب رواية بعنوان «مدينة لا يزورها السياح» أتحدث فيها عن مدينة يمنع فيها زيارة السائحين أو الغرباء فلا يرى أهلها أنفسهم بعيون أخرى، كأنهم يقفون خلف مرآة كبيرة. لا يرون جمالهم أو قبحهم إلا في عيون بعضهم البعض، وإيقاع حياتهم على قدر جلد احتياجاتهم بلا زيادة أو نقصان. ولا يرون أي غرابة في أشيائهم التي يستعملونها أو أفكارهم التي يفكرون بها، لذا تذوب أفكارهم وسط حياتهم المكررة كذوبان الملح وسط الماء. يظل أثره ولكن تذوب حباته.
كل الدوائر التي نشأت في مناهضة المُستعمِر الذي يعتبر الشكل الخشن والفج للسائح؛ كانت أقلية غالبة تواجه أكثرية بلا جمهور، ولكن مُستعمَرة. ربما من هنا نشأت فكرة الأقلية والأقليات، تلك الحساسية العميقة في الجنس البشري، الأخدود النفسي الذي لم يندمل. شعب بكامله يتحول إلى أقليَّة، وبتوالي الزمن تتحول الأقليَّة (البربر/ الأمازيغ) إلى ندرة، كونها أصيلة. هي الجوهرة التي يسعى السياح لزيارتها ورؤيتها في مكانها، «ضبطه متلبسًا» في مكانه الأصلي.
كان الجمال يفوق الوصف وسط سلسلة جبال أطلس ووديانها. الصعود داخل ميكروباص سياحي، يسير على الحافة وينثني مع انثناءات الجبال وتعاريجه والتواءاته. تُسلمنا الجبال لبعضها البعض كأننا وديعة يجب أن تحافظ عليها حتى نقترب من القمة التي لا جبال تعلوها، منفردة بالسماء. وهو الطريق الذي سلكته من قبل قبائل البربر/ الأمازيغ التي تعيش بأعلى الجبال كالصقور. أما الأرض المنبسطة فهي من نصيب الفلاحين على مدار تاريخهم. كانت أشجار الصبار تزحف في صفوف على الجبل الموازي لجبلنا، كجيشٍ مُتخفٍّ، حتى يغزو الجبل بكامله، وفي القمة تقبع أشجار الأرز والزيتون منتصرة بعد أن أنهت حملتها منذ زمن واحتلت القمة. وسط الجبال يصبح للقمة معنى خاص، أو تكتسب معناها الأصلي قبل أن تصبح القمة جائزة الفوز في منافسة ما، هنا القمة حقيقية بدون منافسة، ما يحددها هو قربها من السماء وبعدها عن الأرض. تلحظ على سطح الجبال علامات دائرية متتالية ومتشابكة، لعروق الحديد والمعادن الأخرى. كانت كالعلامات التي كنا نخطها بعفوية بالطباشير على سبورة الصباح، أو المساء، الخاوية.

بطول الطريق تقابل أكشاكًا صغيرة، أو بازارات، تعرض بضاعتها من الأحجار الكريمة، كالأماتست والمرو، المستخرجة من الجبال. يحف اللون البنفسجي لحجر الأماتست بالطريق تحت انعكاس أشعة الشمس. كانت كمية الأحجار الكريمة المعروضة والحفريات كبيرة، كأن باطن الجبال أصبح خارجها. تشعر بأن هذه الأحجار هي التي ستستمر في مكانها ويفنى كل ما حولها. تتداخل الألوان مع ألوان خضرة الوديان بتنوعاتها وكثافتها. جبال لامعة ووديان خضراء. هناك مستويات للوديان، منها القريب، والمتوسط، والعميق، الذي يخفق قلبك بشدة عندما تسير العربة على حافته كأنها حافة النهاية. بجانب هذا الجمال لا يمكنك أن تمنع خيالك وهو يتخطى العربة والزمن ويرى العربة وهي تتدحرج وسط هذه الوديان الملساء، ويتصاعد صوت الصراخ، حتى تستقر في قاعها في صمت تام.

وأنت تسير وسط الجبال والوديان أو الصحراء، تستسخف تماما وتستصغر كلمة « دولة» وهي تتحرك على لسانك، كلمة لا معنى لها وسط هذا الإحساس الجارف بأنك تنتمي لكون فسيح، وهو أقل تقدير لك وللكون الفسيح. أغلب أمراضنا النفسية جاءت من فكرة الانتماء، الانتماء لحدود، لعصبة، لجماعة، لعائلة، والدفاع عنها، أو الخروج منها أو المكوث داخلها. هذه الحركة البندولية بين الداخل والخارج ربما تكون السبب في خدش قشرة الذات، إنهاكها، ووضعها تحت افتراضات مثالية بأن هناك خلاصًا في الكمون أو التحرر، وربما كلاهما ضد طبيعة هذه الذات. ولكن أيضا حتى نلغي الحدود ونسقط الدولة من حساباتنا يجب أن يكون وراء هذه الحدود بكل حمولتها المجازية طبيعة مثل هذه، ما يعوض تخلينا عن كل ما يعرّفنا، ويمنحنا هوية. ربما هي خطوة للوراء تجاه نزع ملكيتنا لعلاقاتنا التي اكتسبناها ومنحتنا الثقة، ولهويتنا، ونعود هذا الكائن المفرد الحائر، كفراشة غير مسئولة تتحرك وسط الجبال. ربما هو افتراض خالٍ من المسئولية.فالانتماء أيضا أحد أسباب بقائنا واستمرارنا على هذه الأرض وفي معيتنا الأمل!

كل فترة كانت تصادفنا مجموعة من البيوت مبنية على مدرج أو مصطبة وسط الجبال، يعيش فيها ناس، يسكنون هذا الجبل الأصم الصلد، كأصابع ديناميت إنسانية موزعة بطوله لتذيب صلادته ووحشته وجبروته، وتحوله لمكان دافئ، مملوء بأصوات البشر. يتم اختيار أماكن للسكنى بعيدة عن مخرات السيول الناتجة عن ذوبان الثلج في قمم الأطلسي. المغرب تمسك الطبيعة كدمية من كل خيوطها: الجبال والوديان والصحارى، والأنهار، الغابات، والبحار، والثلوج.

عندما كان يعلو صوت حديثنا كانت الفتاة اليابانية تتلفت خلفها، ليس فقط لتقترب مما نقوله أو لهذه اللغة الغريبة عليها، ربما لم تتوقع أن يكون في العربة سائحون عرب، ولكن لترينا أنها متفاعلة أو معجبة، كأنها بالتفاتاتها المتكررة تربت على حديثنا وتشجعه على الاستمرار. وطوال النهار الذي قضيناه معًا كان هناك مركز جذب عن بُعد بيني وبين هذه الفتاة، في كل مكان كانت هناك ابتسامة متبادلة، أو تعليق سريع، أو استفسار، أو صدفة أجدها بجواري، فأفسح لها الطريق الضيق الذي نسير فيه، وأجعلها تتقدمني، أو التفاتة مفاجئة لمكان ما فأجدها تنظر لي.

ما أدهشني أن كل من في العربة كانوا نيامًا،لا يستيقظون إلا عند نقاط الزيارة المحددة سلفًا، ثم يعودون ليستكملوا نومهم، كأن رحلة الطريق هذه ليست مهمة، والمهم فقط هو تلك النقاط التي قرءوا عنها في كتاب السياحة الذي يحتفظون به في حقيبة الظهر.

توقفنا عند قرية «آيت بن حدو» لزيارة قلعتها التي كانت إحدى نقاط سكنى البربر الأمازيغ. تبعد القرية عن إقليم ورزازات حوالي ٣٠ كيلو مترا. كانت نهاية رحلة صعود الجبل حيث أعلى نقطة والتي يبلغ ارتفاعها ٢٣٠٠ متر، بعدها سنتحرك على أرض مستوية حتى نصل لورزازات. إقليم

ورزازات ليس به مفاجآت سوى مدينة استوديوهات السينما، والتي شيدت بواباتها على شكل فرعوني، وزينت جدرانها بمحاكاة، بنسب مشوهة، لواجهة معبد «أبو سمبل».
نبه علينا مصطفى سائق العربة أن هناك مرشدًا من أهل القرية سينتظرنا في «آيت بن حدو» ليصحبنا في جولة داخل قلعة المدينة. بالفعل وجدنا حسان وتحدث معنا حول التسعيرة، قال: ٢٠ درهما للفرد. استجاب أربعة منا، أنا وسلوى والزوجان اليابانيان، أما باقي أفراد العربة فقد ساحوا بمفردهم في اتجاه القلعة بدون أن يعيروا المرشد التفاتا. فما كان من حسان، وبذكاء شديد، أن جرى وتقدم الركب كله وبدأ في الشرح، كأنه لم ير شيئا، وبالفعل انتظم القطيع وراء حسان، ولم يشرد منه أحد.
تحركنا صوب القصبة أو القلعة التي كان يسكنها البربر الأمازيغ، ويرجع تاريخها للقرن الحادي عشر في عصر المرابطين. بناء من الطين والقش، مدعوم بجذوع شجر التمر هندي، يشبه تماما بناء بيوت قلعة شالي في واحة سيوة باستثناء استخدام جذوع النخل بدلا من جذوع شجر التمر هندي. سُمك الجدار من أسفل يصل لحوالي ٦٠ سم، ثم يقل في المنتصف إلى ٤٠ سم، وفي الأعلى يصل لـ ٢٠ سم. هذه السماكة في الجدار تحتفظ بجو مثالي داخل البيت. تحتل القصبة مكانا عاليا، نصعد له بدرجات من اليمين واليسار. في هذا المكان هناك صُورت أهم أفلام هوليوود وآخرها «جلاديتور»، و«بابل». ذكرى مرور «براد بيت» و«كيرت راسل» و«كيت بلانشيت» وكل النجوم معلقة على جدران محالها التي تبيع المشغولات اليدوية. أهل القرية كانوا يعملون ككومبارس يقفون بالملابس الرومانية وبالأسحلة والبطل يصارع الوحوش. كنت أسأل أصحاب البازارات باستمرار هل أحد رأى «جون مالكوفيتش» وفيلمه الساحر « شاي في الصحراء» لـ«برتولوتشي».
ونحن نعبر أرضا مشققة، في طريقنا للقصبة، أشار حسان جهة الشرق، وكانت أرضًا مفتوحة كمضمار سباق، وقال: هنا كان لقاء البربر الأمازيغ والطوارق والبدو، واليهود الذين كانوا يأتون مع الطوارق من أجل التجارة. تلك البقعة المشققة كانت مزيجا صحراويا للقوافل الآتية من الجنوب تحمل الملح والغلال والذهب. لليهودية وبالطبع لليهود حضور داخل المغرب يرجع للقرن الثالث قبل الميلاد، وأول مناطق عاشوا فيها كانت في الجنوب حيث كانت قبائل البربر تعيش هناك، وتم التداخل بينهما وعملا معًا في التجارة والزراعة والرعي.

حي الملّاح

داخل قلعة «آيت بن حدو» يوجد حي مخصص لسكنى اليهود، كما في كل مدن المغرب، يُسمى «الملّاح»(1). سواء كانت تجارتهم الملح، أو كما تقول الحكايات إن أول مكان عاشوا به كان مخصصا لتجارة الملح فسمي اليهود على اسم هذا المكان (الملاح). بدون الملح يفسد الطعام في الرحلة، الملح هو رفيق رحلة السفر الطويل لليهودي على الأرض وفي التاريخ، وربما كذلك صديق رحلة الشتات الذي حافظ على حياتهم. السفر متوارٍ وراء الملح، فالملح أصله جاء من البحر، ذائب فيه، كاليهودي ذائب، تبعا لأسطورة التيه، في سفر متواصل.
صورة اليهودي في المغرب هامة للغاية، وكان هناك كثيرون منهم بطواقيهم السوداء يتجولون في ساحة جامع الفنا ومن حولهم دروع بشرية من رجال الأمن المتخفين. ربما لاحظت هذا لغرابة المشهد بالنسبة لي وبكارته. أتذكر مثيلا له في الإسكندرية في موسم الاحتفال بمولد أبو حصيرة في مدينة دمنهور.كانت الإسكندرية هي الترانزيت للوفود القادمة من إسرائيل وباقي العالم. رأيت على رصيف كورنيش الإسكندرية مجموعة من رجال الدين اليهود بملابسهم السوداء وبطواقيهم

السوداء وهم يسيرون في طابور كأنهم يؤدون مهمة على عَجَل. كان مشهدا لافتًا في بداية التسعينيات.
داخل القصبة الخالية تقريبا من السكان، والتي تحولت لمزار سياحي أكثر منه مكانا للسكن. مررنا بأحد البيوت الطينية وبداخله كانت هناك سيدة متوسطة العمر محنطة أمام نول وتقوم بالنسج إكراما لهذه الزيارة، لا يتطور المنسوج ولا ينتهي، مجرد حركات مكررة لتعيد رسم صورة أمام السياح. ستظل هذه السيدة جالسة حتى الموت أمام هذا النول، وداخل هذه العتمة التي تجلس في حضرتها. وبعد انتهاء الجولة مررنا في زقاق ضيق للغاية لا يمرر سوى فرد واحد، ويبدو أن حسان مرشدنا تدرب كثيرا على لحظة الحساب هذه ومكانها. فاختار مكانا استراتيجيًّا لجمع النقود. وقفنا في طابور ووقف يحصي أُجرة الرحلة.

وداعًا لرفقاء الرحلة

وصلنا قصبة تاوريرت في ورزازات، تجولنا بداخلها قبل تناول الغداء. بين كل وصلة وأخرى كان مصطفى السائق الذي جاء بصحبة رفيق له يستمع لعبد الحليم حافظ وأم كلثوم. بعد الغداء سلَّمنا مصطفى لسائق آخر قادم من الصحراء مع فوج ليصحبنا إلى مراكش في طريق عودتنا بينما هو أكمل رحلته مع الفوج الذي جئنا معه إلى الصحراء للمبيت هناك. كان بصحبتنا سائح ألماني شاب. كل من في العربة كان نائما بعد ٨ ساعات عبروا فيها الصحراء وصولا لورزازات. وأكملوا باقي رحلتهم في النوم، حوالي أربع ساعات إضافية.
ودعتنا الفتاة اليابانية. كنا جالسين في حديقة المطعم مرت الفتاة وزوجها وباقي المجموعة، ابتسمت كأنها تقول «هيا تحدَّث»، أخبرتها بأننا سنعود لمراكش ولن نكمل معهم الرحلة، شعرت بخيبة أملها. على الغداء كانت تجلس متألقة في صدر ترابيزة مقابلة لنا كملكة متوجة تحكي عن ذكرياتها والمدن التي زارتها والتي ستزورها. والجميع يصغي لها. كانت تتمتع بعنفوان وثقة في كل شيء تقوله وتفعله وتحكيه، ربما بسبب العمر والمستقبل الذي تراه أمامها ما زالت أبوابه مفتوحة على كل قارات العالم.
الحياة الأوربية قاربت الشباب مع بعضهم البعض، فتحت لهم مجالا موسعا في كل مكان وتحت أي ظرف ليتشاركوا وليعيشوا خبرة مشتركة بعقول متعددة. سهلت التداخل بدون معرفة، كأن الحضارة تصنع مصادفات مقصودة لتسير هذه الجيوش من الأحلام والتطلعات داخل هذه المصادفات المقصودة. سيقضون عدة أيام في الصحراء ويجربون المبيت معًا بدون معرفة سابقة، وسيتبادلون ذكريات لليل والشمس المبكرة والأرض الخالية من البشر كأرض الله وأرض الميعاد. ربما الحياة الأوربية أزالت الحرج من التفاعل واللقاء، ولكن لم تزل الوحدة، فهذه الذكريات هي الهدف، ليعود كل فرد ويملأ بيته الخاوي، أو يسند حياته المائلة به. هناك تقبل ولكن ليس هناك عبور للجسر مع الآخر، لأن الوقت لا يسمح بأكثر من هذا، والمصادفة في النهاية مصادفة وليست إقامة طويلة. ربما هناك تقنيات للدفاع والهجوم والكلام ولكن ليس الفهم. برغم كل هذا كنت تمنيت أن أكون واحدا من ضمن هذا الفوج الذي سيقضي الليل تحت قبة السماء في الصحراء المغربية، حتى ولو كنت أقف في المكان الخطأ من الحياة!
في طريق العودة توقفنا تقريبا عند نفس النقاط التي توقفنا عندها في طريق الصعود. مررنا بفلاحات يحصدن القمح على سطح الجبل. في إحدى النقاط كانت هناك مجموعة من راعيات الأغنام، يلبسن ملابس ذات ألوان زاهية، كن عائدات بأغنامهن ساعة الغروب. لم تكن أعمارهن تزيد على العشرين عاما. جلسن للراحة على عتبة أحد محال بيع الزيوت. صورة خالدة.

أخيرا وصلنا المدينة الحمراء

مررنا بساحة الفنا، كانت على أشدها، صوت الطبول لا ينقطع، تعودت قليلا على الإيقاع. وصلنا الفندق من أحد الدروب التي تفتح على الساحة، كان أحمد واقفا كعادته خلف ديسك الاستقبال، سألنا عن رأينا في الرحلة، قلت له: «ممتازة». ابتسم. كانت هناك أصوات ضحك نسائي قوي تأتي من غرفة في الطابق الثاني، لم يعرها أحمد انتباها. مررنا بباحة الرياض المكشوفة، كانت هناك مجموعة من الأجانب متوحدون بشاشات تلفوناتهم الخلوية. سننضم إليهم بعد قليل.

لاعبو الورق

في قصبة مراكش، وداخل محال صغيرة فارغة من أي بضاعة، كنت أرى تجمعات للرجال يجلسون في شكل دائرة. في البداية جذبتني الصورة واعتقدت بأنهم يتشاركون في قراءة القرآن، أو يعقدون إحدى حلقات الذّكر الصامتة! عندما اقتربت أكثر وضح تماما أنهم يلعبون الكوتشينة، ويتبادلون أغطية زجاجات المياه الغازية، هي الرمز للنقود التي يدفعها الخاسر ويجمعها الفائز. ربما يتم التبادل بعد انتهاء الدور وتعود أغطية الزجاجات إلى نقود تدخل جيب الفائز. ما زال هناك وقت طويل يبدده هؤلاء في لعب الورق. وما زالت الأرض هي المكان القريب الذي يجلسون عليه ويلعبون. تذكرت منذ زمن بعيد العمال الصعايدة في الإسكندرية يلعبون السِّيجَة، وكان أغلبهم من عمال البناء. في وقت الراحة يرسمون على الأرض مستطيلا يقسمونه إلى مربعات، وبمجموعة من الأحجار تبدأ اللعبة. كان من يلعبون غير عابئين بالزمن الذي يدور حولهم في الشارع، حيث عشرات السائحين يتنشقون على من يدلهم ويبادلهم الحوار والصور التقليدية عن الحياة الداخلية لهم. عندما سألتهم أن نلتقط صورة لهذا الجمع، رفضوا بلطف، آثروا أن تظل هذه الدائرة خارج التنميط.

طعم اللوز

اللوز يصادفك في كل مكان، في الطرق الطويلة والوديان، وعلى أسطح الجبال، بلون أوراقه القرنفلي التي تزهر في شهور الربيع. وأيضا داخل الزنقات حيث رائحته النفاذة آتية من صنوف الحلوى التي يجلس على عرشها. تسير ولحن مميز يرافق سيرك، لا تشعر به، لفرط تماهيه مع كل ما حوله من بيوت ومحال ودروب قديمة. مذاق حلوى اللوز من المذاقات التي تشك فيها، وتكرر تذوقها، وتعيد تدويره في فمك حتى يأخذ دورته حتى يصل لذاكرتك، ولعدة مرات. كأنه على حافة أن يكون فاسدا، أو كما نقول في مصر: «مخزز». مذاقات تقف على حافة، ولهذا السبب تثير فيك الشك. تصلك رائحة اللوز وسط دروب مراكش القديمة قبل أن ترى مصدرها، وهنا المفاجأة في المغرب، أن لكل شيء رسولا، تتلمس رائحته في الجو. اللوز هو المذاق القديم الذي يناسب المدينة ويعبر عنها.

البوابات الحديثة

في مراكش تتناسخ البوابات القديمة في بعض البنايات الحديثة. سور أحمر طويل تتوسطه بوابة لها برجان، وهو نفس النظام المتبع في سور مراكش القديم. في إحدى هذه البنايات كانت أشجار الجهنمية تغطي السور تماما، أما الثقل الأساسي فكان للبوابة التي حمِّلت بكل أنواع الزخارف، والتي تحدد وظيفة البوابة كممر جمالي يجب التوقف عنده، والشعور بالانتقال لعالم خاص.

في الطريق إلى أوريكا

الضوضاء والزحام والأجناس العديدة. مندوبو الفنادق المتناثرون في الطرقات لالتقاط الزبائن القادمين للمدينة ذات الأسوار الحمراء. المرشدون الذين يعرضون عليك خدماتهم. العربات التي

تفرغ سائحين وتمتلئ بآخرين. مكاتب العملة التي تعمل ليل نهار. مكاتب السياحة والسفاري. بائعو المناديل الورقية، الشحاذون، مطاعم الوجبات السريعة. وأخيرا الفرجة التي تحدد نمط العلاقة مع الخارج. سطح المدينة أصبح كقِدر تغلي باستمرار ولكن لا طعام بداخله. دولاب عمل للمدينة لا يهدأ، ولا يمكن أن يهدأ. تتحول مراكش إلى مدينة أصابها المس. لم تعد تبذل مجهودا لتتحمل كل هذه الأعباء لسبب بسيط أنها لم تعد تشعر بالألم. في تلك اللحظات التي كنا نقطع فيها ساحة الفنا، في طريقنا للأسواق التي تحوطها، كنا نعبر سريعا لنتجاوز هذه الساحة المكتظة بالبشر. لا أرغب في الالتفات لثعابين الكوبرا ولا للقرود، ولا لدقات الطبول، ولا للنِّمر الهزلية التي تمثل ومن حولها مربع من الجمهور، ولا للمطاعم المتراصة تحت أضواء النيون. أتخيلها ساحة فارغة يحج إليها الهواة في كل شيء: سائحون هواة، وبائعون هواة، ومتفرجون هواة. لو رفعت كاميرتك وأخذت صورة يأتيك صاحبها ليساومك على الثمن الذي لا يقل عن يورو أو اثنين، ولا تعرف ماذا تفعل عندئذ، ليسترد صورته، أو تدفع ما يوازي عشرين درهما. أعطيت أحدهم، وكان من أهل الرفاعية الذين يدربون ثعبان الكوبرا، الذي فقد هيبته واحترامه بجلسته الصامتة لساعات يهز رأسه؛ خمسة دراهم، فلفظها من يده، كأنه يتقيؤها. كانت الدراهم الخمسة إهانة له ولمهنته!

عندما تعجز أن ترى المدينة من داخلها، ولا ترى ماذا يجري وراء هذا السطح الذي يغلي باستمرار، عندها يكون من المناسب أن تغادرها، إلى محيطها، إلى المستبعدين عنها، إلى ضواحيها حيث الدائرة التي تشف عن فائض المدينة،عن أصولها المنسية. كأنها خيوط منسلة من بكرة خيط أساسية، أطراف، مجسات ممتدة، لو اقتربت منها ترى هذا الشريان البائس الذي يمد أوردة المدينة بالحياة.

المركز يطرد الأشياء الأقل وزنا، مثلما تتجمع الأكياس البلاستيكية المملوءة بالهواء خارج المدينة، معلقة على أعشابها الجافة في تلك الصحراء الممتدة والتي تتخللها بعض البنايات. في الطريق إلى أوريكا كانت هذه البالونات البلاستيكية تتأرجح في الهواء، حتى تهبط للأرض، لتبحث عن وتد، أو فرع لتتعلق به.

الخميس ٢٣ مايو – باتجاه الرباط

غادرنا مراكش الساعة الخامسة باتجاه الرباط.

الطريق عادي، أحيانا صحراء، أحيانا أشجار لوز، أحيانا مزارع قمح، ومكعبات من القش المضغوط تتوسط الحقل، كحقائب المسافرين المنسية، في انتظار أن تنقل لمكان آخر.

يطوي القطار المسافة كما يطوي كتابا مصنوعا من الأرض، والزراعة، كتاب الفلاح الذي جاءت القطارات لتشطر أرضه، أو تسير بجوارها وتحاذي حياته، وتجعله رهينا لها، للمسافة التي لا يراها ولكنه يظل يرعاها بنظره أثناء مرور القطار على أرضه.

السفر بالأتوبيس أكثر متعة، كونه يخترق مدنا، أما القطار فيسير على الحافة، يمنحك نظرة إجمالية لحياة المدن التي يعبرها.

وصلنا الرباط الساعة التاسعة مساء. سرنا في شارع محمد الخامس، وهو الشارع الرئيسي لمنتصف البلد، حيث وصفوا لنا مكان تجمع الفنادق. كان بالشارع رائحة حياة جامعية، طلبة يَجُرون حقائب باتجاه محطة القطار، ربما في طريقهم لبلداتهم القريبة لقضاء الإجازة.

مررنا بمبنى البرلمان، كانت هناك مجموعة من الأمازيغ بملابسهم الريفية معتصمة في الحديقة التي تقع أمامه وترفع شعارات بمطالبها. كانوا يحملون صورة الملك كإثبات لحُسن النية، فالخلاف ليس مع الملك ولكن مع البرلمان أو الحكومة. صورة الملك في كل مكان، هي التميمة التي تحفظك

في البيت والمحل والشارع، الصورة تملأ أي فراغ في حائط أو مكتب، أو شارع وأحيانا يُخلَى لها كرسي في قاعة استقبال الفندق، إن لم تجد لها مكانا على الحائط. كثافة حضورها في كل تفاصيل الحياة يذكرني بصورة عبد الناصر، التي كانت تعلق بجوار صور الممثلين وآية الكرسي في محال وبيوت وشوارع الستينيات. تعجبت أمام أحدهم من هذا الإلحاح الذي تفرضه الصورة، وكان شابا يعمل في مقهى بالجديدة، وآخر كان يعمل في محل للجلابات في فاس، وامتد الحوار للتغيير الذي يجب أن يحدث. قلت لهما بأن أي مجتمع عربي لا يمكن أن يهرب من مصيره، ولكنْ ربما هناك فارق بين توقيت وآخر في ملاقاة هذا المصير. كانا يحمدان ربهما أن الثورة المصرية لم تصل إلى المغرب!

النقاش السياسي مستبعد من أماكن التجمعات في المغرب، ولو أوغلنا في الحديث وعرفوا بأنني مصري، يحمدون الله أنه لم يحدث لهم مثلما حدث لنا في مصر، ويتمنون لنا الخير ولسان حالهم يقول: ألم أقل لك إن الثورة لا نفع فيها، لأنك لم تسمع كلامي.

نزلنا في فندق رويال في شارع موازٍ لشارع محمد الخامس.

تجولنا في المدينة ليلا. تخطينا أسوارها القديمة. خلفها كانت هناك مجموعة من الباعة يشوون لحم الكباب. كل بائع له ترابيزة وعليها شواية فحم صغيرة وجمع من الشباب يقف أمام الدخان المتصاعد. وبعد انتهاء اليوم يطوي ترابيزته كالحقيبة ويعود إلى بيته.

تناولنا عشاءنا في مقهى وكافتيريا في شارع محمد الخامس بالقرب من الفندق واجهتها كلها من الزجاج، اخترنا مائدة ملتصقة بهذا المشهد. لم يكن هناك غيرنا في هذه الساعة المتأخرة. كانوا يستعجلوننا بعيونهم أن ننتهي سريعا من الطعام.

صباح يوم الجمعة ٢٤ مايو- الرباط

رائحة القهوة في كل مكان.

في الصباح تناولنا الكرواسون الطازج والقهوة والباتيه بمقهى وحلواني قريب من الفندق.

الجو ممطر، جميل ودافئ، وإحساسي بالمدينة به حس شعري، شجن، ورابطة مشدودة بينك وبينها، كأنك تقشر قشرة بيضتها من حولك.

أحسست بمذاق مختلف ليوم العطلة، رائحة ثقة تتنفسها المدينة. إيقاع شرقي هادئ وسط عمارة أوربية.

بحثت عن كتب المفكر المغربي الذي أحبه عبد الفتاح كيليطو. صادفت مكتبة «كَلِيلة ودِمْنة» بالقرب منا، وكانت مفتوحة في التاسعة صباحا. كان أحد أهدافي في السفر أن أستكمل مجموعة كتبه. هناك كتاب كنت أبحث عنه بقوة باسم «حصان نيتشه» لم أجده في أي من المكتبات.

«نيتشه» أحد الأمثلة الإنسانية النادرة الذي يقف عائقا أمام أي محاولة أخرى تبحث عن الرفعة بدون أن تطرق باب الجنون. هذه الحياة تذل أي حياة أخرى وتصغِّرها، وتجعلها مكموشة في أحد أركان غرفة الإنسانية الواسعة. الحصان هو آخر ما دافع عنه الفيلسوف ونام على رقبته ليتلقى بدلا منه الضربات التي وجهها له صاحب العربة. كان يدافع عن أخيه الصامت في الإنسانية.

كلمة «صافي» التي تستخدم كثيرا هنا كلمة جميلة، مثل جوهرة منثورة في الحوار، تأتي في لحظات نهايته، حاسمة، ومبشرة بلقاء قادم يبدأ من حيث انتهينا، «صافي».

ماسحو الأحذية يحملون صندوقا خشبيا جميلا كقطعة فنية، ليس كالصناديق الثقيلة لماسحي الأحذية في مصر. سألت أحدهم، بعد أن مر عليَّ عدة مرات، أثناء وقوفي على الرصيف أمام أحد

محال التصوير في انتظار سلوى، التي كانت تفرغ مخزون الصور في كاميرتها، لتخلي الذاكرة؛ على أقراص مدمجة. سألته عن الصندوق ومن يصنعه هنا، فعرض عليَّ أن أشتريه بمائة درهم.
صباح الجمعة لا يشبه بتاتا صباح الجمعة في مصر. لا توجد نقطة ذروة، بالرغم من امتلاء المساجد، وسيحان الناس بعد الصلاة، وإغلاق المحال. ولكنها ذروة مختفية وسط إيقاع يوم الإجازة. في مصر أشعر بأن الصباح في الحياة العامة مضغوط ومخصص فقط للقاء ساعة الصلاة، ولا يفك أسره إلا بعد انتهائها. ولكن رغم هذه الحرية التي مُنحت له، إلا أنه يفقد بريقه كيوم إجازة، ويشرف على نهايته بالرغم من أن النهار ما زال طويلا. ربما ما زلت أذكر مشاعر سنوات الدراسة. اللقطة الأساسية الطازجة ليوم الجمعة كانت في الصباح الباكر وطقوسه العائلية، بينما طقوسه الدينية لم تستيقظ بعد.

غرف الليلة الواحدة

في تلك الغرف الترانزيت، يظل ارتباطنا بها واستهلاكنا لها بقدر الليلة الواحدة. نخرج أقل القليل من الحقائب الكبيرة. فسرعان ما سنعود ونغلق هذه الحقيبة في طريق السفر، يقودنا صوت عَجَل الحقيبة وهو يحك بأسفلت الشوارع، وبفراغات البلاط المربع لأرصفة المحطات الرئيسية. صوت عَجَل الحقيبة له صوت ماكينة النسيج. هناك نسيج يُنسج من هذه الرحلات والمشاوير والمسافات.
غرفة على أهبة الاستعداد أن تُخلى. تتناثر أشياؤنا في هذا الحيز الضيق، نصطدم ببعضنا البعض. ليس هناك حيز داخلي متاح، ولكن الحيز الخارجي الذي نتحرك ونسافر فيه يوسع في عيوننا الغرفة. يصبح السرير هو المكان النهائي للراحة. من ضيق الغرفة تود أن يرتفع بنا كبساط الريح، أو ككرسي الإنقاذ في طائرة على وشك السقوط. الجوارب، المشط، أدوات الحلاقة، البارفان، في الحمام على الرف الزجاجي. ما يُخشى على كرمشته، يعلق على رشاقة الدولاب لليوم التالي. رائحة نفتالين الدواليب، ومنظف الموكيت. البنطلون فوق الحقيبة. المرآة، ريموت التلفزيون، حنفية المياه، هي أكثر الأشياء التي نضع عليها أيدينا، ونفرغ فيها توترنا. الكمودينو الصغير الذي أدس به الباسبورات. وأنت مغادر في الصباح تركع على ركبتيك لتبحث عن شيء ضائع. هوس الضياع والفقد لأشيائك في السفر يزداد، يزداد الإحساس بالفقد مع الحرية. تفتش مرة أخرى، تفتح الأدراج المغلقة التي لم تستعملها في تلك الليلة القصيرة، ولكن كل خرم في الغرفة أو دولاب أو درج، يصبح مصيدة متوقعة لتلك الأشياء الضائعة، والتي لم تفقدها أبدا.
أصبح مقياس الزمن «ليلة /ليلتان» من المقاييس التي تضبط بها إيقاعك مع إيقاع المدينة. هذا الزمن القصير أصبح يوفر مساحة من الفهم والتأمل للمدينة والاتساق معها. تماما عندما تقترب من يوم مشهود بالنسبة لك، كلما اقترب الميعاد تصبح الثواني لها معنى وكافية لإنجاز الإحساس بالأشياء بعمق، والتي كانت تحتاج في الزمن المستريح مدة أطول بل أضعاف هذا الزمن كمذاكرة ليلة الامتحان. نتعلم من الزمن، ومن اتساعه ومن ضيقه، من راحته ومن قلقه، من سيولته ومن كثافته، من مجانيته ومن تمنُّعه. تخلَّينا عن هذا الزمن المستريح وأصبحنا داخل زمن كثيف.
عندما قضينا ٤ أيام في مراكش أو فاس، أو الجديدة، أصبح هذا الزمن بالنسبة لنا طويلا جدا، ومكررا. كأنك ضبطت عدسة وجودك على تدريج معين، يلتقط مشهدا به كمية محددة من الضوء. إذا زادت كمية الضوء تغير المشهد وتحول لصورة واضحة المعالم لا مكان فيها لزاوية معتمة أو مظلمة.

الورود المعدنية

كل مساء عند عودتي للفندق أخرج مجموعة من العملات النقدية الصغيرة، أضعها على الكمودينو الصغير بجوار السرير بجوار الباسبورات. تتكرر هذه الكمودينوهات الصغيرة باختلاف أشكالها وألوانها، بجانب الأباجورة. في الصباح أنتقي من تلك الدراهم فئة الخمسة والعشرة دراهم، وأترك الكسور الصغيرة. في كل سفر أعود من البلد بحفنة صغيرة من كسور العملات النقدية. تلك العملات التي تظل سائبة في خيالك بدون حساب، لا تجهد نفسك في عدها وجبرها لعدد صحيح صالح لأن يُشترى به شيء، هي موجودة لكي تظل كما هي كسورا صغيرة تتناثر في ظلام الجيوب، والجيوب الداخلية لحقائب السفر، أو قاع حقائب اليد. من كل رحلة أرجع بهذه الهدية الصغيرة التي أهديها لنفسي. أتذكر أن أبي كان يضع مجموعة من العملات الورقية لعملات الدول التي زارها وهو صغير، في سن أصغر كثيرا من سني الآن. تلك التقاطعات في الزمن التي تستدعيها الذاكرة لكي تلتقي بأبيك وأنت أكبر منه! المهم أن تلك العملات الورقية كان يحفظها بين ثنايا صفحات أجنداته كالورود المصبرة التي يحتفظ بها الأحبة لتذكارات هامة. نفس الشيء، ونفس التأثير، العملات هي رائحة الدول، ورودها التي تأخذها معك لتصبّرها في بلدك وبين ثنايا ذاكرتك وفي الأدراج التي ستبتلعها ثم تلفظها عندما تشرع في البحث عن شيء مفقود، أو عن شيء غائر في قاع الدرج أو الحقيبة ونسيته منذ زمن.

فاس- حبة الرمان

وصلنا للمدينة القديمة في فاس. أنزلنا «الطاكسي»، كما يكتبونه، أمام أحد الأبواب العديدة التي تحوط المدينة، وهو باب كيسه. ساحة واسعة وشجرة عتيقة وأطفال يلعبون الكرة، ومقهى مرتفع قليلا عن مستوى الأرض. لمحنا أحد الشباب الذين يقفون بعربة يدفعها بيده. عرض علينا أن يوصلنا لأحد الرياضات القريبة. وافقنا بعد أن عاينت فندقا حديثا يطل على الساحة ولم أسترح لحداثته. قذف الشاب بالحقائب داخلها، وسرنا خلفه في الأزقة الضيقة الصاعدة. كنا نصعد في عمق تاريخ وسط حياة تدور من حولنا، وأناس يتحركون، وآخرين يجلسون على المقاهي. كل ما كان يدور حولي لم أكن أراه بوضوح، مضبب كأنه خارج بؤرة الشعور. كان هناك رجل يسير أمامنا يصرخ ولا يعبأ به أحد. حتى صراخه، والذي من المفترض أن يكون علامة لافتة لي، ظل عائما على سطح شعوري، لم أقوَ على التفاعل معه، ولم يقترب من البؤرة، التي يغرق فيها الصوت والصورة والمعنى. كان هو وصراخه ذكرى آتية من زمن مضى لا أكثر، وليس موقعة حالية داخل النفس. ولكن الغريب أنني ظللت أتذكر صوت صراخه بعد شهور من الرحلة دون هيئته. كأني أُسدد دَينًا لم أوفه في حينه. كان صراخه أكثر قدرة على المقاومة وغطى تماما على صورته.

وصلنا لأحد الدروب المعتمة التي تتطاول بها واجهات البيوت القديمة حتى تحجب السماء، وأمام باب خشبي موصد وجميل مكتوب عليه «kenza la bague» انفتح الباب، وكانت المفاجأة، كل هذه الخشونة الخارجية، والزنقات الطويلة، ومربعات البازلت التي تضعضع باطن قدمك؛ تصل بك إلى بيت « كثمرة رمان من الداخل» كما وصفت سلوى الرياض الذي سنقيم فيه. عشنا في قلب الرمان المضيء مدة أربعة أيام. وقبل أن ينطق فؤاد عامل الرياض أسعار المبيت، عزمت ألا أبرح هذا المكان. كان السعر أعلى قليلا مما توقعنا، واضطر فؤاد أن يتحدث مع صاحب الرياض لكي يستأذنه في تخفيض السعر كوننا مصريَّين، وبالفعل وافق صاحب الرياض على تخفيض السعر من أجلنا ومن أجل صديق مصري من المحلة قابله في باريس، ونشأت بينهما صداقة مخلصة، وها نحن نجني ثمرة هذه الصداقة. من البداية كانت هذه المداولات حول سعر

الغرفة في هذه الجنة لا طائل منها، كانت تسير في اتجاه واحد، أن نمكث في قلب الرمان لأربعة أيام.
كانت نصيحة فؤاد عامل الرياض، بعد أن نستريح قليلا؛ أن نصعد لسطح الفندق لنشاهد المدينة القديمة من أعلى. صوت أذان المغرب كان يتصاعد من العديد من المساجد، صوت مخبوز داخل هذا الفرن الإنساني الدافئ، وسط هذه البيوت المتلاصقة، والمثبتة داخل تاريخ قديم وحي، لا تزال تسمع نبضاته بوضوح داخل نبضات قلبك، فلا تعرف في أي زمن للدهشة أنت تقف الآن لتراقب هذا الخفق العمراني الممتد على مرمى البصر. كان شكل المدينة كلوحة متراكبة يتداخل فيها كل شيء، ولكن الحدود بينها أيضا مصانة. في البعيد تظهر جامعة القرويين، والتي تعتبر أقدم جامعة في العالم وأنشئت في القرن الثالث الهجري، بلونها الأخضر المميز. كنت أشب بذاكرتي المستريحة حتى أطال هذا المدى، أعرف تماما هذا اللون الأصفر أو الأوكر الترابي للبيوت القديمة. أعرف هذا السواد الذي يغطي حواف البيوت وجدرانها، والمواسم التي يتحول فيها لون الطحالب الخضراء التي يغذيها ماء المطر إلى اللون الأسود بتأثير الشمس. مواسم مرت ولكن تترك علامات مرورها. المدن القديمة ذاكرة لعلامات مرور مختلفة. بالتة لون المدينة تتكون من درجات لونية عتيقة: الأصفر الأوكر، الأسود، بقع من اللون الأخضر، وأيضا الأبيض لمآذن بعض المساجد. أعرف تلك النباتات الشيطانية التي تخرج من باطن هذه المسارات المائية للمطر، ومن زوايا وجنبات الأسطح والشبابيك.
التاريخ كان يفرد صفحة مجسمة منه بكل تفاصيلها. هنا في فاس لسنا أمام ماكيت لمدينة كما أحسست بمراكش. هنا نحن أمام حقيقة تاريخية، في عمق زمن يمد لنا يده من الناحية الأخرى. هناك حوار يتجاوز الزمن، وهناك صوت يتحدث من وراء الأحجبة والسواتر. لقد كانت لدى إدريس بن عبد الله، مؤسس دولة الأدارسة في القرن الثاني الهجري، رغبة في أن تنافس مدينته المستقبل. وها نحن الآن، في حاضرنا، نقابل رغبته ونعيش في هذا المستقبل الذي حملته لنا المدينة وحلم مؤسسها مولاي إدريس الأول. كنا في نقطة التقاء حاضر مع مستقبل مع ماضٍ. القدماء ما زالوا يتناسلون بحكاياتهم في كتب التاريخ وفي الأفكار، والمدينة ما زالت تؤجل مستقبلها، لتعرضه طازجا على أناس قادمين. ليس القديم هو كل ما يموت ونحن نشاهد موته. القديم، أو العتيق، يمكن أن يكون تحديا أو اختبارا أثبت نجاحه، حتى لم يعد قديما. المدن لا تموت مهما عاشت. إنها كالنجم الذي يتنقل من مدارات عدة في هذا الكون الفسيح. إنه صراع مع زمن، أو ضد الزمن، أو مؤاخاة لهذا الزمن، حتى تمر منه بهدوء. هذا ما فعلته فاس القديمة، لقد مرت من خرم إبرة واسعة جدا في التاريخ والمستقبل.
تكونت بذرة فاس، التي تأسست على يد مولاي إدريس وجعلها عاصمة للدولة الإدريسية القديمة؛ من العائلات العربية من القرويين، بالإضافة إلى الأندلسيين «الموريسكيين» العائدين من الأندلس، أو بمعنى آخر الذين أجبروا على الهجرة منها، بالإضافة إلى اليهود. مدن جديدة تخرج من رحم مدن قديمة، وتقع على مسافة منها.
القديم والجديد في المغرب قريبان من بعضهما البعض، ليس بينهما زمن وسيط، سوى حياة الناس الذين شكلوا درجات السلم والتدريج الثابت الذي عبر عليه الزمن. أغلب المدن الجديدة، كما في مراكش وفاس، طنجة، الجديدة، الرباط؛ أنشأها الاستعمار الحديث. مدن غير مسورة، ليس لها أبواب، لا ترغب في الحماية، فليس هناك عدو لها، ربما لأنها تعرف في قرارة نفسها بأنها هي العدو لنفسها، لذا أصبحت أسوارها غير مرئية، في الحدود بين الطبقات، والجنسيات، والطموحات

المختلفة. أما المدن القديمة فهي المدن المحاطة بأسوار، وأبواب عديدة، وأبراج، وزنقات، ودروب، وأضواء محبوسة بداخلها كالجنّي لا يرى النور، كأنها مفصولة عن زمن خارجي. تعيش زمنها الخاص، والأبدي، في انتظار من يأتي ليكتشف الضوء في قلب حبة الرمان.

السبت ٢٥ مايو- فاس

اليوم عيد زواجنا الثامن عشر. احتفلنا به في فاس، بمرورنا وسط هذه الدروب الخالدة. هذا الرقم الصغير لا يعني شيئا أمام الرقم الكبير والصحيح للمدينة، وللبيت وللغرفة التي نقيم فيها، والذي يعود عمرها لثمانمائة سنة. ولكن هذا الرقم الصغير، في تقويم مدينة حياتنا، يعني لنا كل شيء.

لو تطول أعمارنا ونصبح في عمر هذه الأحجار الخالدة! هل من أجل الحصول على الخلود يجب أن نصبح أحجارا؟ هل هو الطريق الوحيد للخلود أن نتجاوز ماديتنا، أو نحولها لما يقاوم الزمن ونَصْله الحاد؟ من أي ثقب إبرة واسع يمكننا أن نهرّب حياتنا، وننقلها لهذا الزمن القادم، كما ينقل الميت معه احتياجاته في مقبرته في مصر القديمة في انتظار البعث؟ ربما انتظار البعث والإيمان به هو الذي يمنحنا الخلود المجازي. هل لو ألغينا من عقولنا هذا الخلود، ماذا سيتبقى فيها؟ عندها سيكون الموت هو بطل حكايتنا الوحيد.

تناولنا الإفطار في السابعة على سطح البيت بناءً على نصيحة فؤاد. جهز لنا هو وزوجته، التي تعمل معه في الفندق، إفطارا مكونا من العسل والزبد وعدة أنواع من المخبوزات والفطائر والمعجنات المالحة.

كل يوم كنا نستيقظ مبكرا ونرقب في صمت واجب بزوغ النهار على تلك المدينة النائمة، حتى تبدأ أصوات الحياة تعلو من بيوتها ودروبها.

من أعلى تحوط بكل تفاصيل المدينة كأنك تمتلكها، في الأسفل تتوه وتصبح واحدا من تلك الكائنات الصغيرة التي لا تميزها وأنت تنظر من أعلى.

زرنا مدرسة العطارين، وهي إحدى النقاط الهامة، التي تجدها أمامك صدفة، وتتكرر الصدفة عدة مرات أثناء تجوالك. تتكون من دورين، فسقية في المنتصف، وباب خشبي يؤدي للدور الثاني. وكالعادة مفتوحة من المنتصف للسماء. وشريط من نحوتات بارزة لأشكال نباتية وحروف، وفسيفساء تغطي كل الجدران. وفي الأعلى مقرنصات من الخشب. وشبابيك من الزجاج الملون بالجبس. ونجفة من النحاس.ومربعات الأبيض والأسود على الأرض.

توالي الأشكال الهندسية على الأرضية والحائط، يسبب حالة من خداع البصر. تتماهى وتتداخل الأشكال في عينك. ربما هي التعبير المجرد عن تلك الحالة الصوفية، تداخل لأشكال وحالات، وامتزاج وتوحد بعين باطنية لا ترى حدودا بين الأشياء بعضها ببعض، وبينها وبين الأشياء.

في الدروب والزنقات الضيقة كانت تتصاعد رائحة دباغة الجلود. أحدهم كان يمر بحصان محمل بقطع الجلد الحي في طريقه لمعالجته.

من بعيد أسمع طَرْقًا كالطَّرْق الذي كان يأتي من ساحة الفنا. نقترب من سوق الصفارين، العديد من العمال يجلسون على الأرض موزعين على درجات سلم الساحة كأوركسترا، عدة درجات تفصل بين مستويين للأرض، يطرقون أواني ضخمة من النحاس، ويعزفون سيمفونية بنغمة آلة واحدة ليجذبوا السياح. وبالفعل كان السياح يتقاطرون وراء مصدر هذا الصوت النحاسي. أمام الساحة مكتبة ابن خلدون. وفي زاوية منها كان هناك مقهى به صور قديمة لمدينة فاس، تعوَّدنا أن نجلس فيه للاستراحة، ولتدوين بعض الملاحظات.

وجدت باب المكتبة مفتوحا. تسللنا للداخل، استوقفني شاب وأشار إليَّ بأن المكتبة مغلقة، استأذنته أن أرى أي أثر من ابن خلدون، صحبني للقاعة العليا للقراءة، كنت في انتظار أن ألمس أي مخطوط، أو حتى أراه من بعيد. ولكنه أشار إليَّ بأن قسم المخطوطات مغلق.
الناس هنا ودودة، أو عندها وفرة من الوقت لتتحدث معك بإسهاب، وتنظر مليا في وجهك، بعكس مراكش. ربما قلة السياحة بالقياس بمراكش هي السبب.
السيدات في المدينة القديمة لا يبحثن عن صورة ليتطابقن معها. نموذج لطبقة اجتماعية متوسطة محافظة.
مررت ببائع كان يطلق لحيته، ويسدد بصره لشاشة التلفزيون، في دكانه الصغير، لقناة الناس التي كانت تذيع حديثا للشيخ محمد حسان. تحدثت معه عن أن الشيخ حسان من مصر أيضا، أثنى عليه كثيرا.
أفكر في أن أُسمي رحلتنا «اتنين شاي بالنعناع»، وهو المشروب الذي لم نملّ منه. أراها كصورة تجمع المفكرة الصغيرة التي أكتب فيها ملاحظاتي وفوقها القلم، بجانب صينية بها كوبان من الشاي، وغطاء العدسة الدائري للكاميرا التي لا تظهر في الصورة، لأنها مشغولة بتصوير المشهد. في هذه الصورة لكل منا له ما يمثله، أنا يمثلني المفكرة والقلم، وسلوى يمثلها الكاميرا، وهناك ما يمثلنا معًا في هذه الصورة الرمزية وهو كوبا الشاي بالنعناع. المفكرة والكاميرا يسجلان حركة الزمن هناك، زمننا. أما كوبا الشاي بالنعناع فهما العنصران المستقران، اللذان يمنحان هذه الحركة المتعجلة والمختصرة في الزمن استقرارا وثباتا ومقياسا كالوتد في صحراء واسعة.
في أحد التقاطعات كان صوت مياه لنهر يتدفق يجري من تحتنا.
صعدنا للطابق الثالث في أحد بازارات بيع الجلود، لنرى عمليات دبغ الجلود، بداية من نزع الشعر داخل أحواض الجير، ثم يوضع عليه زبل الحمام، ثم تستخدم الماكينة لتنعيم الجلد، ثم تأتي خطوة الصباغة والتلوين الطبيعي.
أثناء السير في المدينة من منحنى لمنحنى لمستقيم. ندور ولكن في خط مستقيم. الضوء المكسور للمدينة يساعد على تأكيد هذا الشعور. إنه أيضا ضوء يسير في دوائر، يرقص، أو ينحني مع إيقاع البيوت والدروب.
الشوارع والزنقات والدروب في المدينة القديمة كلها مغطاة بألواح خشبية متشابكة، حتى تحتفظ المدينة بدرجة متوسطة من الضوء.
في السوق قابلت رجلا كان جالسا على دكة خشبية يأكل «الحريرة». لمحني وسألني عن جنسيتي. بعد أن رآني أستفسر عن أحد الأماكن. قلت له وأنا أتجاوزه: «مصري». رد بسرعة لافتة، مشيرا لسلطانية الحريرة: «زي الفول بتاعكم». تقريبا قالها هكذا، أو ترجمتها في عقلي بالإشارة هكذا.
أحسست بوخزة في صدري لذكر الفول في هذا المقام، بإهانة مستترة ربما لم يقصدها. الغريب أن يتحول الطعام إلى مكان للتمييز وأحد رموز العنف اللفظي.
وصلنا حي البليدة، ودخلنا أحد المحال التي كان يجلس بائعها في الداخل، ودعانا للدخول، كان صوته مُرحِّبًا. وتعرفنا على محمد الريفي. في العادة يقف أحد العاملين في البازار خارجه ليجذب الزبون. تفرجنا على مجموعة من السجاجيد القديمة المعلقة على الحوائط.
وصلنا لبيت ابن خلدون، أو البيت الذي يقال إنه عاش فيه أثناء مكوثه في فاس. البيت مسكون بأجيال حديثة، والمعلومة غير موثقة، ولكن هذا الارتباط، ولو بالخطأ أو بحسن النية والغفلة

التاريخية، بين ابن خلدون وأي شيء؛ يستحق عناء البحث. الأكيد أن هذا البيت القديم جزء من زمن كان ابن خلدون أحد أعمدته الروحية.
مررنا بمحال صغيرة لتصليح الأحذية، مرفوعة عن الأرض بمقدار متر، وهناك عتبة أمام المحل، ليصعد عليها صاحبها. درجات السلم سواء داخل البيوت، أو في الشوارع، عادة كبيرة، تفوق انفراجة القَدم في الصعود والسير، تشعر بالخطة في الصعود والنزول، كأنك تقفز.
أبواب البيوت منخفضة بشكل لافت. يفسرها فؤاد بأنها صنعت عمدا قصيرة حتى ينحني الضيف عند دخوله البيت. كأنه يدخل على ملك. المضيف في هذه الفكرة هو الأهم، والضيف طارئ وليس له حقوق سوى إظهار احترامه لمضيفه.
أثناء عودتنا من باب كيسة كانت هناك مباراة في الدوري الأوربي بينما رواد المقهى جالسون والأولاد يلعبون في الساحة بالجوار، ينسخون أجواء المباراة المذاعة بحماسها وبأسماء نجومها. أخرج لنا صبي المقهى كرسيين بعيدا عن مدرج المباراة، وتناولنا الشاي. كان هذا المقهى وهذا الصبي وضوضاء الأطفال ليلا وهم يلعبون الكرة، من اللحظات الهامة في الرحلة، قبل أن تذهب للنوم، تأخذ معك صوتا من حياة المدينة. نجلس قليلا على المقهى لنشرب «اتنين شاي بالنعناع».
أشعر أحيانا أنني كالجمل، أحتفظ بكل ما أراه في جيب تحت جوف عيني، ثم سيأتي الوقت، عندما أجوع، لأستمتع به وأنا أجرش هذه المناظر والأحاسيس والذكريات والوجوه.
لا تنصاع الذاكرة للمسافة بين البلاد، بالترحال عن نقطة الأصل. الذاكرة أسبق من مكان وزمن يحددانها، بالنسبة لها لا توجد نقطة أصل، لذا لا توجد نقطة رجوع. هي في رحلة دائمة. هي عائمة على بحر من الذكريات والصور والأحاسيس والمذاقات، تتوزع بين الحاضر والماضي والمستقبل. المخاوف ليس لها زمن. والحب كذلك. لذا تتقاسم الذاكرة أزمة للغبطة، وأزمنة للرهبة. وبينهما أزمنة حنين معلقة. أحيانا تقترب هذه الذاكرة من ذكريات المكان الأصلي، ولكن بدون أن تعرف بأنه المكان الأصلي لصاحبها. لا تستعير نفسية صاحبها، بل تؤازره. تحاول أن تنفصل عنه ولا تتحد به، لتمنحه الحرية وتخرجه من دائرة الإكراهات بين الذاكرة والأصل. تمنحه الكبرياء ليعتليها ويطير بها كبساط الريح متجولا فوق مدينته وذكرياته وبيت طفولته وهو على هيئة بُراق. في السفر تجد الذاكرة المكان الأصلي قريبا منها، ومطروحا على جدول أعمالها. الحلم يصبح محليا خالصا أثناء السفر.
مهما كنت دقيقا في الوصف، فأنت تبالغ وأنت تصف شيئا رأيته في السفر. سواء بإضافة ثراء، أو نزع ثراء. كل حسب الوجهة التي تتبعها النفس. الكتابة نوع من الدراما ينشط في السفر. مهما حاولنا تحري الدقة والحقيقة، هناك نموذج يتسرب من خلف الكلمات والرؤى والمشاهد، نموذج تتوجه له الكلمات والرؤى والمشاهد. تتسع أو تضيق عدسة الذات التي ترى. لا تعد محايدة لأنها مسافرة، إنها تعوض هذه الغربة وغياب المكان الأصلي، بهذه المبالغة. المبالغة هي حركة اللغة أثناء السفر، الروابط الجديدة التي تجمع الفكر داخل اللغة. داخل المسافة تبحث اللغة عن إشارة، كإشارة الموبايل، عن نموذج قريب من هذه الذات. بقدر المسافة وما تحمله، وبقدر الذات وما تنتظره من رهان، وبقدر الصدق وما يحمله من رغبة في التطابق مع ما ترى، والطريق وما يحمله من مفاجآت، ينفتح النموذج ويتسع، أو يضيق. هذا النموذج الذي سيحفظ ويسجل ويخلد رحلة البحث والصدام. «الفورم» الذي يخلد البحث. المسافر يبدو أحيانًا كعاهرة تبيع نفسها للغريب، وتتجدد متعتها مع كل لقاء ومشهد تراه. إننا نسافر في ثقافات وتقسيم طبقي وعِرقي مسبق، وليس إنسانيا. نسافر داخل كتاب تعاليم صارم ككتب الأكلات. أن تكون إنسانيا بافتعال

يعني هذا أنك عبرت فوق هذا التقسيم ولم تعد طرفا في التجربة. الإنسانية ليست نموذجا، أحيانًا هي عائق، وشكل ضيق للحب وللمتعة.

الرياض من الداخل

البيوت في مراكش وفاس جنتها هي الداخل. ليس لها نوافذ تفتح على الخارج. جدران مصمتة متعالية تلتقي في هذا السقف المجازي، نقطة الزوال، للدرب الضيق. البيت وحدة مغلقة على الداخل، وربما لهذا السبب يتحقق داخل البيت ما كان المفروض أن يحدث خارجه. يتحول إلى وحدة اجتماعية كاملة. الشارع للعبور فقط، بأقل قدر من المساحة والاتساع والصدام، أما نسج الجمال والعلاقات على مهل فيحدثان داخل قلب حبة الرمان.

بعد باب الدخول مباشرة للرياض هناك مدخل يفضي إلى ممر صغير يفضي لباحته، على اليمين مباشرة هناك سلم يفضي للأدوار العليا ومنها للسطح. يختزن السطح كمية من الضوء تعوض درجات العتمة التي يستقبلك بها البيت.

فقط من تلك الفتحة العليا داخل الرياض تدخل الشمس، ثم يعاد توزيع الضوء بالتساوي، على غرف الرياض وأدواره الثلاثة، من هذا الصنبور الضوئي الشفاف المليء بذرات الغبار. داخل الرياض الضوء هادئ ومطمئن، وذاتي، ومجهول المصدر، كضوء ثمرة الرمان، أو كضوء الأحجار الكريمة، أصيل وليس انعكاسا لضوء آخر، بالرغم من عامود الشمس المصبوب داخل باحة الرياض.

هناك شمس حيية تعيش في فاس. تشعر بأن هناك غلافا منصوبا حول المدينة يمنع وصول تلك الدرجة القوية من ضوء الشمس، يمتص جزءا منها، ويمرر ضوءا مكسورا كأنه لون غائم. يحفظ المدينة فيه. كأن المدينة تعيش داخل فقاعة من الضوء المكسور. تشعر بأن هناك فلترا سماويا ترى الشمس من خلاله، ويمكنك أن تفتح عينيك فيها. لا أعرف هذه الشمس الحيية مرتبطة بهذا الوقت من السنة، أم هي ظاهرة! وهذه الدرجة من الضوء المكسور هي التي جذبت الرسامين ليرسموا فاس القديمة ويصبح ضوءها إحدى أيقونات رسوم عصور الاستشراق.

داخل الرياض، الذي أقمنا فيه، كنا نتحرك كأبطال ألف ليلة وليلة، ولكن بدون وقائعها. زمن الحكاية يتجدد دائما عبر هذا التناسل العمراني للقديم. ليس هذا فقط، أيضا عبر هذا التناسل لسلالات الضوء نفسها التي كانت إحدى البطلات المتواريات للحكاية. هناك درجة من الضوء تفتح باب الحكايات القديمة. هذه الحكاية المعلقة في ثقافتنا قابلة دوما لأن تتناسخ وتُستدعى في أكثر من زمان ومكان ومناخ. كنت متعجبا ومندهشا ونفسي طافحة بالسرور من هذا المكان. الغرفة التي نزلنا بها كانت في الطابق الأرضي، كانت في الماضي تخص عائلة بكاملها. التاريخ والزخارف والنقوش النباتية والحروف العربية تسكن في كل شيء، بداية من الباب والشباك والسقف العالي، وذلك المستوى الآخر للغرفة، الذي يتم الصعود إليه بسلم خشبي، والذي ربما كان مخصصا لنوم الأبناء، أو لساعات القراءة أو التأمل لرب الأسرة في الماضي. وصولا للحمام وبلاطات الموزاييك التي تغطي الجدران، والأرضية، وحوض الغسيل، الصبانة، رف أدوات الحلاقة، المرآة موشاة الحواف. كنت أستكثر على نفسي أن أقيم في مكان له هذه الدرجة من الجمال والحساسية، ينعقد لساني من الدهشة. طوال أربعة أيام لم ينفك لساني، ولم ينقطع انبهاري بهذه الأشياء البسيطة كلما دخلت الغرفة، وأعيد التأكيد مرة أخرى، بنفس اندهاش المرة الأولى. كلما دخلت أقفز على السرير بكل جسمي قفزة الراحة بعد عناء يوم طويل.

الأحد ٢٦ مايو - فاس

استيقظنا في السادسة تقريبا.
سمعت من غرفتنا صوت زوجة فؤاد وهي تحضر الإفطار في المطبخ.
صعدنا كالعادة إلى السطح.
كل يوم ترى المدينة قبل أن تستيقظ، وهي ما زالت تحلم، وبعض الطيور السوداء تحلق فوق مياه هذا الحلم.
كل صباح كنت أشفق على زوجة فؤاد وهي تصعد بالصينية في هذا الدهليز ذي الدرجات العالية الذي يؤدي للسطح. تشعر بأنه نفق لأعلى للهرب الاضطراري وليس للصعود اليومي ونقطة الاتصال بين أدوار البيت الثلاثة فيما مضى.
قبل خروجنا وقف فؤاد يسألنا عن الأمس وهل نمنا جيدا، السؤال الذي سأله للمئات من قبلنا، ويكرر «ياسيد علاء» عدة مرات أثناء حديثه. ويمنحنا بعضا من معلوماته التاريخية لشرح أحد معالم فاس وتاريخها.
وفي هذا الصباح جاء صاحب البيت إدريس محيويي، الذي تحدثت معه في التلفون منذ يومين، ليسلم علينا. كان هذا الرياض هو بيت عائلته الذي اشتراه من حصيلة مدخراته، وحوَّله إلى فندق. ظل تقريبا أربع سنوات يجهز فيه قطعة قطعة ليخرج بهذا الشكل المتحفي.
كان لقاء لطيفًا، تبادلنا فيه الذكريات التقليدية.
بجانب ضريح مولاي إدريس، ومدرسة العطارين، يقف بائعو الحلوى على عرباتهم المكشوفة. كنت أحب شراء الحلوى داخل تلك العلب الكرتونية الخشنة للحلوى ذات الطباعة الرديئة، كي تتحمل نشع زيوتها، والتي اندثرت من مصر ومن أحيائها الشعبية.
حضرنا أحد مراسم العرس. أثناء تسكعنا وجدنا فرقة موسيقى شعبية تقف أمام ممر أحد البيوت. سألنا عنها، عرفنا أنهم في انتظار العروس ليزفوها. سمح لنا أحدهم، وكان يقف بصينية حلوى في الشارع محمولة على حامل يشبه الحمار الخشبي؛ بأن نحضر العرس، سرنا في الممر المعتم الذي يفضي إلى البيت. كان أهل العروس يرقصون في باحة البيت، أحرجت من الدخول، فانتظرت على الباب، وذهبت سلوى للعروس في الغرفة الداخلية. طلبت منها السيدات أن تشاركهن في الرقص والغناء، اعتذرت. وصفت لي العروس بأنها كالملكة. الكل كان يرقص ويغني. كانت الملكة تنتظر خروج موكبها من البيت. خرج هذا الموكب المهيب، والملكة تتوسطه على كرسيها الأبيض، محمولا على الأعناق، الذي يشبه كرسي الهودج؛ وعبرت بهذا العرش بنفس الممر المظلم الذي يشبه فجوة في الذاكرة.
مررنا بالأمس بباب بو جلود، صادفنا بعض المقابر قبل النزول للطريق السريع الذي يدور حول المدينة باتجاه فاس الجديدة. المقابر فاصل بين القديم والجديد، كفترة البعث تماما. هي المحطة التي يتأمل فيها البعث حياتين مختلفين في عمر المدينة. في الماضي كانت المقابر تقع خارج المدينة، أما الآن فهي كبرزخ يفصل المدينة القديمة عن الجديدة، كمنطقة الأعراف لموت قد يطول قبل البعث. كان هناك من يقومون بصباغة هذه الجلود المدبوغة، ونشرها لتجف بين صفوف المقابر المتراصة وأحيانا فوق بعضها التي لم تعد تعمر بأجساد جديدة. ربما حتى يجد هؤلاء الموتى المتعطلين من زمن طويل طال فيه رقادهم عملا أو تسلية حتى يأتي يوم البعث.
وصلنا لسوق العوادين. كان هناك مجموعة من الدكاكين تتوسطها شجرة توت عمرها ٨٠ سنة. تكثر أشجار التوت المعمرة داخل الأسواق.

صادفنا أناسا جالسين في مستطيل يشبه امتدادًا لمقهى، بينما رجل يقوم بعرض برادات شاي فضية قديمة. يقوم بعمل مزاد بدون صوت، فقط يمر بكل ترابيزة ليتلقى السعر.
جلسنا في أحد المقاهي لشرب الإكسبريسو. كل مقهى هنا متوفر به ماكينة قهوة إكسبريسو، مهما كان مستواها. أتى شخص ليعرض علينا برطمانا به سائل دهني. فتحه لأتذوق ما به، أخرج نسيلة لحم من داخله وقص جزءا منها بالمقص. كنت على وشك إزاحة يده. ولكني ترددت. كانت أكلة تسمى «الخليعة» عبارة عن لحم بقري نيء يحفظونه في الشحم، ويتناولونه في الصباح لتكون مصدرا للطاقة. مثلما كنا نسمع في مصر في عهود ماضية من كان يشرب كوب سمن بلدي على الريق!ربما امتدت هذه الشعيرة من عصور الترحال في الصحراء، كما رافق الملح ترحال اليهود.
بالرغم من عدم مضي وقت طويل على الإفطار فقد استعدت شهيتي سريعا عندما مررنا بسوق السمك، وسألت أحدهم عن مطعم يقدم السمك، وأشار لي بأحد المطاعم. كان صاحب المحل يعمل مع ابنه الصغير. اختار لنا تشكيلة من السمك المقلي الصغير والترانشات والجمبري. والصلصة الحمراء مع الشطة التي عادة ما يقدمونها مع وجبة السمك، بجانب الفلفل المقلي. لم يكن بالمطعم ترابيزات للجلوس وإنما رف من الرخام عرضه حوالي ٣٠ سم، مثبت في حائط ثلاثة أضلاع من المحل، وكراسي طويلة ككراسي البارات. كل يأكل في حاله.
كسرنا كل مواعيد تناول الطعام، كلما صادفنا فاترينة شهية انعطفنا سريعا وغيرنا الخطط ودلفنا وسط المطعم.
كان عندي ثقة في أي طعام أتناوله، ربما تعود لثقتي في جودة الحياة في كل طبقاتها، في خبزها، في شوارعها، في مراعيها. في سطوة الطبيعة، في الرحلة الطويلة التي قطعها أهل البلد سواء كانوا من البربر أو الأندلسيين العائدين أو البدو أو الفلاحين، ليتأقلموا ويتعايشوا مع هذه الطبيعة متعددة الأوجه. كل إثنية يقبع وراءها مسافة سفر.
الدرجة الأدنى من الحياة لا تعني بالضرورة تدنيا في نظافة أو مذاق أو جودة الطهي.
كل مطعم نخرج منه يودعنا صاحبه على أمل أن نأتي في الغد. أو أبادر بالثناء على طعامه وأطلب منه بأن يحجز لنا مكانا في الغد. مجاملة زائدة. ربما ينسى هو وجهي غدا، أو نكون في هذا الغد في مكان آخر. المهم هو أننا نمد نقطة أو جزءا سائبا من الخيط الذي يربط الناس أو العلاقات الطارئة.
في أحد المطاعم القريبة من حي الحفارين، حيث نسكن، دخلنا مطعما اسمه «برادة» تديره سيدة. اصطحبت السيدة سلوى إلى داخل المطبخ لتختار الطعام الذي تريده. كان الوقت بعد انتهاء ميعاد وجبة الغداء. كلما نطقت سلوى اسم إحدى الخضراوات أو اسم طعام ما، تنتاب السيدة موجة ضحك مستمتعة بنطق سلوى للاسم وإيقاعه، وتستدرجها لتكرره مرة ثانية. كلمة « طماطم» كان لها النصيب الأكبر في تعويم فشة هذه السيدة.
خريطة المدينة التي أعطاها لنا فؤاد كان بها هذه الأسماء: المقبرة اليهودية/ الملاح/ باب السّمّارين/ جامع الحمراء/ باب الكيسة/ العشابين/ زاوية سيدي أحمد التيجاني/ دار الدبغ الشوارة/ جسر وساحة بين لمدون/ ساحة للا يدونة/ جامع الأندلس/ جامع الأنوار/ باب بوجلود/ النجارين/ سوق الحناء/ جامع القرويين/ ساحة الصفارين/ العوادين/ ساحة الرصيف/ سوق عين علو/ سوق البلاجين/ سوق العطارين/ زنقة المشاطين/ باب محروق/ باب ريافة/ باب فتوح/ بيعة ابن دنان.
أعدنا الخريطة لفؤاد عند رحيلنا وبها آثار عرق الأنامل التي مرت على دروب ثم سارت فيها، أو الدروب التي لم نلمسها إلا على الخريطة فقط.

داخل سوق فاس، تتكرر العديد من الوحدات التجارية المنفصلة عن الزنقة الرئيسية. تتكون من مجموعة من الدكاكين تشرف على ساحة صغيرة بها شجرة توت معمرة. شكل العمارة والتقسيم يسمح بمثل هذه الانفرادات والخصوصية. في إحداها كان هناك دكان لبيع العطارة، والصابون والزيوت. بجانبه شجرة التوت ويافطة تشير بأن المكان المعلقة عليه كان من قبل يشغله مارستان، يتم العلاج فيه بالموسيقى.

أصوات الأطفال

في اليوم الأول لوصولنا فاس، بينما الحمَّال يحمل حقائبنا في عربته اليدوية؛ صاعدا على هذا البازلت الصخري القديم الذي يكسو أرضية الزنقات، وسط هذا التوالي في الانحناء والدوران وتتبع الدليل باتجاه الرياض الذي سنقيم فيه. وسط هذا سمعت صوتا كأنه قداس يوم الأحد، تراتيل جماعية لكورال من الأطفال. صدَّقتْ سلوى على الاستنتاج نفسه، واتفقنا بوجود كنيسة تقع داخل حيز هذه المدينة القديمة. كم كان هذا محالا، أن تحتوي المدينة القديمة على أي رمز مسيحي صريح هكذا، نظرا لتاريخ العداء والاحتلال الذي عانته المغرب من الأجنبي. قد تتواجد الكنائس في الثغور المشرفة على البحرين الأطلسي والمتوسط، أما هذه المدن القديمة فهي بمثابة محمية محررة من أي وجود آخر، طبعا باستثناء حي الملاح اليهودي واحتوائه على كنيس لإقامة الصلاة. اليهود رفقاء رحلة، ومكان وتجارة، ويشكلون الجزء العملي في الذات المغربية القديمة، والتي كانت تميل أكثر ناحية التصوف.

في اليوم التالي، عند عودتنا في الظهيرة، واقترابنا من الرياض الذي نقيم فيه، تكررت نفس أصوات التراتيل، تتبعنا الصوت بحثا عن تلك الكنيسة المخبوءة عن تاريخ العداء، حتى وصلنا لمبنى مكون من طابقين، أزحنا الباب الموارب، وصعدنا السلم شديد الانحناء للطابق الثاني. كان الصوت يشتد ويقوى، كعاصفة هوجاء، وتحوط بك ذبذباته، أصبحنا في وسط البحر ولا معنى للتراجع عند هذه النقطة، لا يمكنك سوى أن تفتح ذراعيك له.

كانت هناك غرفة واسعة يظهر منها شاب يقف كالمايسترو منفردا في الضلع الخالي. كانت تشغل الأضلاع الثلاثة الأخرى للمربع مجموعات من الأطفال تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة يجلسون على دكك خشبية. استأذنا منه في الدخول، أذن لنا، جلسنا وسط الأطفال، وتحركت هذه الحناجر تكر على سجادة مغربية ناعمة وعتيقة كلَّ تراثهم الغنائي في الترحيب بالضيف، والغناء للوطن، وللملك. أصواتهم كانت تمنح أي غناء براءة وتخلصه من التواطؤ. فالملك أو الوطن الذي يغنون له، بالرغم من كونهم فقراء فيه، هو الحلم البعيد، بنت الجيران، البيت الدافئ، بابا نويل المفاجآت. تذكرت أغانينا الوطنية، «وطني فداي وأحلامي، وطني...» هذا المعنى، ومعانٍ أخرى قريبة، كانت تخرج من تلك الحناجر النزيهة لتمنح هذا الوطن وهذا الملك فرصة أخرى ليُظهرا عطفهما عليهم، ومحبتهما لهم، ولو في المستقبل البعيد.

حدثني المشرفون، الذين كانوا يتبادلون دور المايسترو والغناء معهم، بأن وظيفتهم تطوعية، يحاولون أن يقتربوا من هذه السن المراهقة، حتى لا يعانوا مثل ما عانى جيلهم من تجاهل. وعندما سألته عن ماذا عانى جيلهم؟ أجاب بكلمات غير واضحة، فهمت منها غياب هذا الحس الجماعي. لقد كانت وسيلتهم الغناء والحوار. أطفال بسطاء يدخلون ويخرجون من القاعة، وبنات بضفائر كالضفائر المنتشرة في الحارات المصرية، التي تبرع في تصفيفها الأم قبل أن تدفع بنتها للعب السيجة في الشارع. ساعة كاملة غنيت فيها مع إيقاع أغانيهم، وصفقت حتى تورمت يداي، لم أطل تلك الطبقات العالية والحارة من غنائهم لأنني لم أفهم معظم كلمات النشيد، ولكن حرارة هذه

الطبقات تصل لقلبي مباشرة وتبث فيه نشوة النشيد الجماعي. وقبل أن أنصرف وقفت مكان المايسترو وانحنيت لهم بأداء مسرحي، ولكنه حقيقي، وأنا أوزع عليهم القبلات في هواء الغرفة المشبع بالغناء.

أكتب الآن من فوق سطح البيت

الأسوار تحد كل هذا، تحبس هذا الزمن القديم بداخلها كخاتم الزواج. لا شيء أملكه سوى هذا اللحن الخفيف لوطء الأقدام داخل الأسواق والزنقات والدروب، الحركة والاصطدام والزحام والضوء القليل، هو ما أحمله من نوتة موسيقية لهذه المدينة. نوتة لا صخب فيها، فصوت التاريخ وصلواته يغطيان على أي صخب، ولا يجعلان لأي صوت آخر وجودا.

هذه النظرة التي تعبر فوق المدينة، تحلق كأحد طيورها السوداء ذات الصوت المميز. والتي تشك في كونها ملائكة متنكرة من فرط الانسجام بينها وبين كل ما حولها. هناك طبقة من التاريخ تنظر لي الآن كما أنظر إليها بنفس القدر من التعتيق. لا يعلو صوتي على صوتها. مر ابن رشد وابن بطوطة وابن خلدون، والذين توطدت صداقتي بهم، ليس عبر كُتبهم، ولكن عبر عبوري بمكان عبورهم، البيوت التي سكنوها والأزقة التي مروا بها. تاريخ للفكر خرج من هذه الدروب الضيقة، ذات الضوء المكتوم، فحررت ضوءا كان كامنا فيهم. هم أولاد هذا الضوء المكتوم، النور الداخلي الأصيل، بدون مصدر انعكاس له. حررت وجودا فكريا صُنع كفسيفساء البيوت والجدران والمساجد. التركيب والمجاورة والاتساق هي روح العمارة هنا، وربما كانت هي الأسبق في صناعة وصياغة وسبك الفكر على شاكلتها، الجدل بين جزيئات تُشيد في النهاية هرما لا مرئيا من الوعي. الحرفة اليدوية الماهرة للعمارة وللفكر والمعادن. كل شيء ممسوس بالدقة، وبالشك. هذا التداخل البصري لبلاطات الأبيض والأسود هو رمز للشك. الخداع البصري شك فلسفي، وأحد أشكال الجدل. عصور ازدهار للمادة والفكر معا.

فاس مدينة تنام وتحلم في حضن الطبيعة والتاريخ. الهدوء والسكينة البادیان من أعلى يخفيان تحتهما تماما دبيب الحياة في الأزقة والدروب، كقمة جبل الجليد أو لحظة الحلم. كأنهما عالمان مختلفان وكل منهما له معبوده. هذا الزمن سيمضي عندما أقرأ ما كتبته بعد عدة أيام وأنا بالإسكندرية، سيكون هذا الإحساس قد تحول إلى ذكرى، ولكن الطريقة التي تتكون بها ذكرياتي هنا مستريحة، لا تحركها أي رغبة في التصالح مع أي شيء، إنها هنا كالطير الذي يتحرك بحرية من مكان لآخر، بدون إكراه إلا رغبته في الطيران والاستمرار وتحويش حصيلة صور لإطعام الخيال. لا أعني بالإكراه ما تكون قديما أو حديثا رغما عنا، إنه القدر الذي يولد معنا ويصاحبنا ويتشكل حسب إرادتنا ورغبتنا وتقبلنا للحياة، إنه الظل الذي يسبق أو يلي أو يتخلف عن الجسد. كان قدري في تلك الرحلة وذكرياتها محاذيا لظلي.

هواء يهب من كل الاتجاهات، والسكينة تهب أيضا من كل الاتجاهات، والحمام يستجيب لحركتَي الهواء والسكينة. يتصاعد الآن صوت أذان العصر من كل المآذن، يفرش المدينة، يخرج من تلك البؤر المتباعدة والقريبة. أذان مختصر بدون أي تنغيم أو لحن، يدور مع اتجاهات الهواء، ثم يتسرب الصوت كما جاء، ليوسع هذه الخزانة التي تعيش فيها كل الأصوات مع أصوات ابن رشد وابن خلدون، الدين والدنيا والفلسفة والعلوم والحب. نحن نقلد هذه المدن،في ثرائها النفسي، نأخذ منها عصارتها، نتماهى معها، لعلنا نحشر معها وعلى أكتافنا تلك النياشين من الزخارف التي تزين جدرانها، وتلك التكرارات والصبر الجميل لصانع الفسيفساء. إننا نتعلم من المدن الصبر

ونوسع حياتنا بها. ربما التماهي مع المدن ليس له مركز واحد للحب، كما يحدث مع الآخرين، لذا العلاقة معها ممتدة.

محمد الريفي

في أحد البازارات بحي البليدة التي كانت تعرض سجاجيد يدوية، «زرابي» كما يسمونها في المغرب، استوقفنا أحدهم وعرض علينا الدخول والفرجة بدلا من النظرة المتعجلة من الخارج. كنت أتجنب الدخول في هذه البازارات خوفا من شَرَك مساومات البيع والشراء. ثقل هذه العملية على قلبي يجعلني أوفر طاقتي في الفصال للحظة التي أنوي فيها الشراء بالفعل. دخلنا بدون نية الشراء. كان أدب البائع يليق بصاحب بيت وليس بائعا. كان يغمض عينيه وهو يدعونا للدخول كأنه يدعونا لبيته بخجل وتواضع. وبعد تبادل الحديث ستكون عادة إغماض العينين عند الحديث إحدى سمات وجهه وأسلوبه. ربما يخجل من التحديق في وجه من يحدثه، فيشيح بوجهه بعيدا، أو يغمض عينيه ويكمل حديثه في الظلام. أيضا كانت له حركة عصبية في أدائه الجسدي. لحظتا قيامه وجلوسه من الدكة الخاصة به، بهما مفاجأة، كأن جسمه لم يتوقع هذا الفعل المقدم عليه، كأن الرسالة التي أرسلها عقله لجسده ليأمره فيها بالقيام والجلوس وصلت متأخرة في آخر لحظة، فتظهر هزة في جسده كنتعة العربة المفاجئة.

كان البازار عبارة عن بيت قديم، أغلب البازارات هنا لها نفس التكوين. أخذ الرجل يعرض علينا مجموعة من الزرابي. تجاوز الستين وله صوت حاد مؤثر، ونفسية مكشوفة على السطح. دعانا للجلوس عندما أيقن بأن الشراء هو آخر اختياراتنا. كان يعيش في طنجة قبل حضوره لفاس، عمل عند أحد أصحاب البازارات الأغنياء هناك. علَّم محمد الريفي نفسه بنفسه، وقرأ للعقاد وتوفيق الحكيم، وهما بالنسبة له ما زالا على قيد الحياة، حقيقة وليس مجازا، ما دام فكرهما ما زال موجودا بداخله. بهذا الشكل لم يمت أحد طالما له أثر ممتد في حياته وأفكاره. حدثني عن حبه لعبد الحميد كشك لأنه شخص واضح وزاهد في الدنيا ولا يحب المال وهذا واضح في هجائه لأصحاب النفوذ والجاه. استغربت من حبه للشيخ كشك، ولكن ربما خيط الزهد هو أحد ملامح شخصية محمد الريفي، وسبب حبه لكل الزاهدين، فجلوسه في هذا المكان، البعيد عن نهر السياحة والسائحين، في انتظار الزبون يحتاج صبرا، خصوصا لو كان هذا الزبون نادرا بشكل ما. تحدثنا كثيرا وكان مبسوطا لتعرفه علينا. أخذ عنواني ورقم تلفوني فلربما يمر على الإسكندرية خلال رحلة حجه القادمة. إنه كالحُجاج المغاربة القدامى الذين مروا بالإسكندرية وأقاموا وعاشوا فيها خلال رحلة حجهم، ومنهم من قضى نحبه بالمدينة بعد أن عاش بها ونسي الرحلة العكسية للعودة لوطنه. الإسكندرية كانت بالنسبة لهم نقطة نسيان مقدسة على هذا الخط المقدس الممتد من المغرب حتى مكة. أحسست أنه يريد الهرب حتى ولو على مركب صيد مهاجرة وعليها عشرات الهاربين. كان يقضي وقتا زائدا في هذا المكان، حتى ولو استمر هذا الوقت الزائد حتى مماته، ولكنه سيظل وقتا زائدا، كون نفسه استطابت الرحيل.

وعدته في المساء بأن نمر عليه. نسيت وعدي تماما عند نزولي في المساء. أخطأنا وتهنا في الدروب المتشابهة كالعادة، بعد عدة دورات في السير تجد نفسك أمام علامة، دكان، بيت، بائع؛ كنت فارقتها منذ قليل. وجدنا أنفسنا أمام بازاره. كان مظلما إلا من انعكاس النور الآتي من الخارج. شاهدت شبحا جالسا مكوما على الدكة. شعرت بشفقة جارفة تجاهه، وتجاه جلسته الوحيدة. انتفض عندما سمع صوتنا ونحن نحييه. كان ينتظر حبل الإنقاذ. سريعا أضاء النور، وتسلق سريعا بئر الصمت الذي كان غارقا فيه. قال: « كنت أنتظركم». صدقته في الحال. أنقذناه

من وحدة اليوم الطويل، وسط الزرابي والجلابيب، ومن وراء وحدة اليوم الصغيرة وحدة حياة طويلة قضاها بمفرده بدون حياة عائلية أو مرفأ تطول فيه الإقامة. دار السؤال بنفسي ماذا ينتظر لسنواته القادمة؟ عندما تبدأ الأسئلة في القفز إلى ذهني أشعر تماما أنني وقعت في شرك التعاطف مع الشخص صاحب الأسئلة.
إكراما ليومه الطويل الذي لم يبع فيه شيئا، كما قال؛ طلبت منه سلوى أن يفرجها على جلابيب نسائية.عندها تذكر مهنته، فصعد للطابق الثاني من البازار، وأخذ يعرض علينا بهمة أنواعا عديدة من الجلابيب القديمة والحديثة، ولكن ولا واحدة منها كانت مناسبة سواء اللون أو المقاس. لم يكن يهمه البيع، هذا حقيقة، لأن عزمه لم يفتر وهو يؤدي مهمته. كان يريد أن يفرش الحديث بيننا كما يفرش الجلابة أو السجادة على الأرض في المساحة بيننا، كأنه البردة التي فرشها الرسول وجلس عليها سيدنا علي. الجلابة أو السجادة التي كان يفرشها محمد الريفي كانت بمثابة عهد الصداقة.
أخرج كيسا بلاستيكيا صغيرا يضعه بجانبه به عشب اللويزة، له طعم الليمون، وهو من المشروبات المشهورة هناك، وشربتها من قبل في واحة سيوة. وأصر على أن يضيفنا به. وافقنا. غاب قليلا في الداخل وعاد بصينية عليها كوبان من اللويزة. كنت أعاني قبلها من التهاب في حلقي، فكانت اللويزة الدواء الشافي. كنت خجلانا من ضيافته لنا واستمتاعنا بحكايته، كل هذا بدون مقابل. أصررت في النهاية أن أضع ورقة نقدية في الصينية الفارغة. نظر لي نظرة استعلاء مرحبة. نعم استعلاء به قبول للهدية التي منحتها له في نهاية يومه. أنفة واستعلاء فكاهي، الوجه الحقيقي لاستعلاء عبد السلام النابلسي في أدواره، وترفُّع على كل جيرانه من أصحاب البازارات والعاملين فيها. ربما بسبب تحصنه بالعلم والقرآن وتفاسيره العديدة، والكتب التي قرأها بدون مساعدة من أحد. ربما لا يجد نفسه في المكان المناسب. وربما يكون هذا هو مصدر عزائه وتحمله لهذه الحياة الفاترة كما أشار، فعدم التوافق يبعث أحيانا حيوية ويبث الحرارة في الحياة الفاترة، فغدا سوف تنصلح الأحوال. عند خروجنا أصر أن يوصلنا لأقرب مكان يؤدي بنا لباب كيسه حيث الطريق إلى بيتنا هناك في درب الحفارين. ترك محله مفتوحا وبلا حراسة وسار معنا. تعانقنا. كان جافا في عناقه. كأن صدره لوح من الخشب لا ينضح بأي زيت للشجن.

الاثنين والثلاثاء ٢٧، ٢٨ مايو -من فاس إلى طنجة

اليوم الاثنين ٢٧ مايو هو يوم السفر لطنجة. كنا ننوي ترك الغرفة قبل الساعة ١٢ حتى يتسنى لغيرنا السكن فيها. خرجنا مبكرا للتسوق. مررنا على بازار محمد الريفي. كان مغلقا. وربما كذلك ما حدث بيننا بالأمس كافٍ لا يحتاج أي إطالة أو زيادة أو لجاجة في الوداع.
عُدنا للبيت حوالي الحادية عشرة. كانت حقائبنا محفوظة في غرفة الإدارة حيث تجلس تلك الفتاة اللطيفة التي تحل محل إدريس صاحب المكان في إدارته واستقبال الوفود. كان لها وجه بشوش وجسم دقيق ومتناسق.
أخرجنا الحقائب في باحة البيت. وبعدها دخلت الحمام استعدادا للسفر. عدت مرة أخرى ولأول مرة ألحظ الحقائب وهي تنتظر وحيدة تحت أسطوانة ضوء الباحة الآتي من السماء، ولا شيء آخر يشوش على وجودها. ومن حولها عتمة تصنع حدودا مسرحية لها.
شعرت بوخزة شجن وتعاطف مع حياتنا ورموزها، وأنا أرى الحقيبتين مستغرقتين في هذه الوحدة، هما أحدَي رموز الرحلة، كما مفكرة الكتابة والكاميرا رمز لنا، كما «اتنين شاي بالنعناع» رمز لنا. شكل الحقيبتين وهما وحيدتان وتحت هذه الإضاءة المسرحية، والعتمة تنتشر من حولهما،

بانا كقديسين في معبد بوذي. إنهما جزء لا يتجزأ من أي رحلة، الجزء الذي لا يتكلم، ولكنه موجود.
صحبنا فؤاد حتى الطريق العام وأوقف لنا «طاكسيا» وأوصاه علينا. «مع السلامة ياسيد علاء» بنفس الوجه والابتسامة المحايدة التي لم تتغير درجتها خلال أيامنا هناك.
استأذن السائق بذهابه لمحطة المرور ليقضي أمرا يختص بعربته. كان هناك بعض الوقت. انتظرناه وسط زحام وضوضاء الموقف، بجانب أحد أسوار المدينة، ولكن هذه المرة من الخارج.
كتبت في مفكرتي: «الذاكرة المستريحة هي الذاكرة التي لا تعلق بأذيالها التفاصيل، ولكنْ روح الأشياء، روائحها، ملمس إحساسها، أثرها الزائل».
وكتبت أيضا: «المسافة صمغ الذاكرة». وأنا أكتب هذه الجملة تذكرت زجاجة الصمغ في المدرسة الابتدائية بسدادتها السوداء الكاوتشوكية المرنة، والثقب الذي بداخلها الذي يتم الضغط عليه بقوة على الورقة ليتسرب هذ السائل اللزج للصق ورق الأعمال الملون. من هذا الموقف القديم كانت تندلق مسافات بحذاء هذا السائل الأصفر.
بالأمس مساء خرجنا خارج أسوار المدينة القديمة باتجاه أحياء شعبية لها بناء حديث. حياة مبعثرة، لم تتضام وتتداخل وتتعشق كما في فاس القديمة. كانت هناك سيدة تشحذ في الطريق العام. كلمتها المأثورة والمحننة للقلب، وفي المغرب بأسره «يرحم والديك». بادرتها بنفس لهجتها «يرحم والديك»، فابتسمت تحت النقوش التي تغطي وجهها ويديها. منحتها ابتسامة.
في الساحة الواسعة أمام محطات القطارات، نجر الحقائب، يؤنسنا صوت احتكاك عجل الحقائب بالأسفلت أو البلاط. الصوت المصاحب للرحلة، موسيقاها التصويرية التي تتصاعد في أوقات السفر. ركوب القطارت، أو مغادرتها، هي اللحظات المفصلية في أي رحلة. تودع مكانا وتستقبل مكانا جديدا. أشعر كأني طير مبلول ينفش ريشه ويتطاير منه رذاذ الماء في سعادة، صورة لقلبي في تلك اللحظات بالرغم من كل تعبها وانتظاراتها وقلقها. صوت إيقاع قطار بطيء نسي الهدف من الرحلة وتخطى محطته الأخيرة.
وصلنا طنجة عصرا. سألنا عن قصبة المدينة، فوصفها لنا أحدهم، وكان جاري في القطار، بأنها قريبة. هذه المسافة القريبة، والإشارة المختصرة للسبابة استغرقت منا حوالي ساعة إلا الربع سيرا على الأقدام. ما خفف طول المسافة هو أن السير كان على البحر. من بعيد ظهر المرتفع أمام البحر الذي تسلقَته من قبل حيوات طنجة القديمة.
استقررنا على فندق ماركوبولو، على البحر أمام الميناء مباشرة. كان خاويا تماما من السياح. لم يكن هناك حتى من ينقل الحقائب للطابق الثالث سوى موظف الاستقبال.
استرحنا من عناء السير ثم سريعا يتجدد النشاط مع هواء المدينة الطازج.كانت هناك مجموعة من المقاهي والمطاعم أسفل القصبة أو المدينة القديمة. تناولنا وجبة سمك مشكَّلة بها كل شيء. لم يكن لذيذا وشهيا كما في فاس. في العودة شعرت بأننا نسير في شاطئ المعمورة في آخر أيام الصيف، بعد أن ذهبت زهوته. أناس قليلة تتمشى على البحر، يلبسون ملابس شتوية، أو الجالسون على المقاهي، حتى محلات الأيس كريم بدت خاوية.
المسافة قريبة بين القصبة والمدينة الجديدة، الاثنتان متداخلتان وكل منهما تكمل الآخر بعكس الحدود الفاصلة بالأسوار كما في فاس ومراكش وغيرهما. البداية كانت في القصبة ومنها امتدت بحذاء البحر الذي كان يحدد مسيرة العمران. في الامتداد ترى عدة عصور للمدينة، بعكس المدن

ذات الأسوار، نقطة الأصل فيها غير قابلة للتطور أو الامتداد، بسبب الأسوار، إلا بالبعد عنها وإيجاد بديل عكسي لها، تظل خالصة لزمنها بدون تداخل أو تجاور أو منافسة.
في محل البقالة بجانب الفندق تناولنا إفطارنا. كان هناك ترابيزة صغيرة للجلوس، ورف في الحائط للزبائن الذين يتناولون إفطارهم. كان أغلب المترددين من عمال الميناء. كل شيء متوفر: الفاكهة والجرائد والخبز الطازج، والحلوى والزبادي والعصائر والكرواسون وغيره من المخبوزات. كم أفتقد هذا الإحساس الصباحي الشعبي الأليف، ومهما كانت التكلفة فإنها لا تساوي ثمن ربع وجبة سريعة في أي مطعم.
في المقهى القديم على الشاطئ الصباح ممسوس برائحة عزٍّ ضاع، ملابس أنيقة ويونيفورم موحد للعاملين، على حياة مرتجلة وسائبة، وعلى مجموعة من الزبائن الهائمين ككبار السن الذين يخرجون بذقون بيضاء طويلة غير حليقة وببالطو فوق ملابس مكرمشة. تشعر في طنجة أنها كالثري الذي فقد ثروته، أو ضاعت منه وسط تصاريف الحياة، ولا رجاء في استعادتها.
صعدنا القصبة، دخلنا من أحد أبوابها الذي به مطعم شعبي للسمك، وفي عودتنا سنبدِّر تناول وجبة الغداء من أجل إطفاء هذا الجوع الذي تسببه تلك المطاعم الصغيرة ذات الروائح النفاذة والحميمة.
في الطريق لِقمة القصبة مررنا بضريح الرحالة ابن بطوطة، ومن حوله البيوت. نوافذ صغيرة تطل على الزنقة، كوات في الحائط تكشف جزءا من المطبخ. قليلةٌ الأصوات التي تخرج من البيوت. تحتفظ دروب أعلى القصبة وفي بعض أجزائها، بالهدوء. كلما صعدت لأعلى تسامى الصوت وتحول إلى بخار. المسافة الصغيرة التي تواجِه فيها السائرين في تلك الدروب والزنقات المؤطرة بالسقف والحوائط القريبة، تجعل العين في العين كعلاقات ونظرات البيوت. الوشائج التي يسببها ضيق المساحة.
تنام مدينة طنجة في حضن الجبل الذي يشرف على البحر. صعود وهبوط ودرجات، ومنحنيات. أغلب المدن القديمة اختارت طرقا وعرة لتؤسس فيها حياتها، أو أن العيش بالقرب من البحر له كلفته التي يجب أن تدفعها المدينة من جغرافيتها، أن تستأنس هذا الجبل أو القلعة أو الصحراء. في أعلى القصبة كان التقاء البحر المتوسط بالأطلسي، وعلى الناحية الأخرى ظهر جبل طارق وإسبانيا.
طنجة في الصباح الباكر عنها في الظهيرة. في الصباح الباكر تمنحك إحساسا بالطزاجة والانتعاش، كأنك عثرت على أحد أسرار الصباح الضائعة، والموجودة فقط في تلك المدينة. مع الوقت واللف والدوران والعودة من قمة القصبة لسفحها، ثم تجلس على المقهى مرة ثانية، يتآكل هذا الإحساس ويذوي، ويتقشر من عيني هذا البريق، ويُستبدل بإحساس السأم من الظهيرة وشمسها الأبدية الحارقة، وثبات المشهد، على الأقل نفسيا، أمام ساحة المقاهي والبلدية من أمامك، كأننا في مصيف نقضي عقوبة. أفواج قليلة من السياح، خيمة لشركة فودافون، بعض المتأنقات والهائمين. صوت كراكات العمل في الميناء.
ظهيرة مملة - باتجاه تطوان
في تلك اللحظة السأمانة بزغت فكرة الذهاب لمدينة تطوان التي تبعد حوالي ساعة عن طنجة. مدينة جديدة تضاف للرحلة. سريعا نأخذ «طاكسيا» لمحطة الأتوبيسات والتي لا تبعد سوى عشر دقائق عن الفندق. عاد البريق من جديد، وتحركت المياه تحت النفس، وتحولت هذه الظهيرة الأبدية المملة إلى باب مفتوح على احتمالات أخرى.

في الأتوبيس لتطوان، شاهدنا عرضًا للشحاذين قبل إقلاع الأتوبيس من المحطة التي تشبه موقف أحمد حلمي. كل منهم يقف في دوره، لا يتقدم أحدهم إلا بعد أن ينهي زميله دوره. ثم ينزل من الباب وهكذا. من يقف ينتظر دوره يعطي المشاهدين حق تفرسه، والتدقيق في صدق احتياجه، فهو لا ينظر للمشاهدين الذين يفحصونه جيدا، من بداية وقوفه في الكواليس، استعدادا لتأدية دوره. في مصر والمغرب وكل مكان، يتواجد هؤلاء الذين يؤدون أدوارا بدون أن ينظروا في عيون جمهورهم.
عندما نقترب من المدينة تظهر من بعيد تلك البيوت البيضاء التي تشغل الجبل. تتكرر الطرق المنحنية، فتلاقي تلك الجبال على استحياء من زاوية أخرى، كطفل يلعب معك الاستغماية. اعتقدت هذا في البداية، ولكن طول المسافة أكد لي أننا فارقنا الجبل الأول، وأننا أمام بقعة سكنية جديدة. هناك شَبه مع الجزر اليونانية، كل مجموعة من الجزر تشكل وحدة تحتل أحد الجبال. هنا مجموعة من الجبال تشكل المدينة وضواحيها. وجميعها تسيح وسط مساحة مفتوحة، سواء من المياه أو الوديان والجبال.
تطوان مدينة لها أصول أمازيغية. حركة دائبة وزحام في المدينة القديمة. المدينة لها سمت أوربي تماما، وسط المدينة مصمم على الطراز الإسباني. شارع محمد الخامس مليء بالمارة عصرا، والمقاهي مشحونة بالحوارات والزبائن، وجو شبابي يتدفق في نهر الشارع. انسللنا للسوق، مررنا بحي الملاح والقصر الملكي. أحسسنا بالجوع. الجوع هنا إحدى علامات الاستمتاع والعلاقة مع المكان. في العديد من المحال كانت معروضة قوالبُ صغيرة من الجبنة الشيفر المصنوعة من لبن الماعز محفوظة داخل محتوى من الخوص الأخضر. اشتريت قالبا. كانت هناك في السوق عدة محال تبيع الزيتون المخلل. توقفنا أمام أحدها، كان صاحبه يضع عصا على كرسي يسد به المدخل، كان يصلي العصر في إحدى الزوايا التاريخية التي يمتلئ بها هذا السوق الصغير. انتظرناه حتى عاد. شاب بلحية طويلة وبوجه بشوش. عاتبته برفق عن غيابه. ولقاء عتابي أصر أن نتذوق عدة أنواع من الزيتون قبل الشراء. اخترت المنثور عليه قِطَع الشطة الحمراء. منحته خمسة دراهم وكان حسابي ثلاثة دراهم ونصفًا. تركت له الباقي وذهبت. جرى ورائي وأصر أن يمنحني الدرهم والنصف. عندما نتحدث يعرفون أننا مصريان. يحدثوننا عن عادل إمام وأحمد حلمي. ربما تحول الاثنان وآخرون إلى أيقونة لروح فكهة، ساخرة، يتحدث عنها الجميع هنا ويحِنُّون لها. كان بائع المخلل والخبز وغيرهما يذكروني دائما بأني أملك لهجة وروحا لهما تقديرهما ومكانتهما وسط قاموس الأرواح واللهجات في المغرب.
عرجت على إحدى المكتبات في مدخل المدينة بجوار حي الملاح، وقصر الملك، سألت طبعا عن كتاب «حصان نيتشه» لعبد الفتاح كيليطو، استشعرَت الفتاة لهجة محببة في كلامي، سألتني: «أنت مصري؟». كم كانت فرحة وقالت إنها المرة الأولى التي تقابل فيها مصريا. أخذنا الطعام وجلسنا في ميدان صغير نأكل وسط هذا الزحام.
في الطريق لتطوان مررنا بسهم يشير للطريق لشفشاون، المدينة الزرقاء التي وددت لو يخطئ الأتوبيس وينحرف باتجاهها، ونقضي هناك عدة أيام على الساحل وسط غابات الحشيش كما حدثني العديد من الأصدقاء، ونصحوني بزيارتها. ومنهم من نصحني بارتياد الحمامات المغربية، ومنهم من نصحني بأن أذهب بمفردي! لاأنسى صديقًا لي من الإسكندرية عاد من زيارته للمغرب ولم ير هناك سوى حمامات مدينة الرباط، والنساء اللاتي قمن بتحميمه.

ولد وبنت في طنجة

في مدينة طنجة القديمة انسللنا إلى القمة حيث التقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي. بعدها ابتلعتنا شرايين الزنقات، وصلنا لمكان يربض به مدفعان قديمان يشرفان على ميناء المدينة حيث كانت تأتي سفن الغزو في العصور القديمة. لأول وهلة واجهني عقلي بسؤال هو كيف وصل هذان المدفعان لهذا المكان المرتفع وسط هذه الشبكة العنكبوتية من البيوت والبوابات المنخفضة؟ كيف تسللا بضخامتهما ووزنهما الثقيل عبر هذه الزنقات النحيفة، وانحنيا أمام البوابات؟ ربما وصلا في زمن لم تكن به تلك البوابات أو الزنقات قد بنيت بعد. زحفت الحياة إلى هذه المدينة القديمة بعد أن ولى الخطر وزمن الحرب. في هذه البقعة المعزولة على البحر وجدت فتى وفتاة على وشك قُبلة، بوغتا بوجودنا، أو نحن بوغتنا بوجودهما، ولم أعرف كيف أخفي نفسي، في هذا الفخ المكشوف، كي يُكملا قُبلتهما، كأنني أنا الذي ضُبطت متلبسا. ارتجافي في تلك اللحظة، أو حرجي عبَّرت عنه سريعا بأسف مبهم في كلمات خرجت بدون أن أفكر فيها بلغتي المصرية، أصدرت صوتا كصوت ارتطام القطة بأطباق الطعام عند هربها. لم يفهما ما أقوله، وربما ظنا بأني أنهرهما عن هذه القُبلة المختلسة من أعلى نقطة في المدينة في نفس المكان الذي كان تصوب منه القذائف على السفن الغازية. ارتجفت الفتاة وسحبت نفسها بسرعة وسارت في طريق الزنقات، أما الفتى فأخذ طريقا باتجاه البحر عبر سلم حجري جانبي يفضي لمستوى منخفض ومنه للشارع. لحظات ووجدتهما، كل على حدة، يقتربان من تلك النقطة التي سيلتقيان فيها في الشارع ليستكملا قُبلتهما التي انقطعت. رأيتهما من أعلى وهما يقتربان من تلك النقطة، حتى قبل أن يكونا مكشوفين لبعضهما.

أكملنا سَيرنا مرة أخرى في تلك الشرايين، دخلت حانوت أشياء قديمة. كان صاحبه البدين يجلس خارجه. كنت أنوي شراء هدية لصديق في الإسكندرية يهوى جمع الوثائق القديمة والصور العائلية لمجهولين. الحانوت ضيق للغاية من كثرة الأشياء التي بداخله،لا يسمح بحركة مرتاحة وسط هذه الأشياء، مما زاد حرجي في أن أنقب بنفسي وسط هذه الأحقاب التاريخية لأستخرج ما أريد. لمحت فاترينة زجاجية متربة بها بعض الألبومات. أشرت إليها. دار الرجل وشفط كرشه ليمد يده في فتحة في هذه الفاترينة. أخرج لي ثلاثة ألبومات صور لعائلات، وعقود زواج من عقد السبعينيات، حديثة بالطبع ولم تُثر شغفي لاقتنائها. الألبومات جعلتني بدأت أتعرف على مغرب قريب من مغرب الحاضر الذي أسير فيه. لا يوجد بالمغرب هذا الزمن المفقود الذي يجعلك تنظر لأي شيء يأتي من الماضي بشغف أو حنين، بعد أن يعبر عتبة هذا الزمن المفقود ويتشرب بحنينه. أو ربما هذا الزمن لم يصل لهذه الحوانيت. لقد عبروا بهذا الزمن وهم مستيقظون، فلم تطاردهم أحلامه وكوابيسه كما طاردت شعوبا أخرى.عتمة الحانوت ذكرتني بعتمات الممرات التي تفضي إلى البيوت هناك. مساحة معلقة بين البيت والشارع، درجة وسيطة أو مفقودة من الضوء.

أكملنا سيرنا وسط محلات الأشياء القديمة. وقع نظر سلوى على أحد الحلقان المصنوعة من الفضة. أعجبها الحلق، سألت البائع عن الثمن، أعطاها ثمنا ربما مرتفعا نسبيا. وهنا تتدخل حاستي الكلبية في إفساد الصفقة، قلت لها إن المبلغ مرتفع، وحاولت مع الرجل تخفيضه قليلا فلم يوافق. تحولت لمسألة كرامة، وفي النهاية ضاعت الصفقة. كم ضيعت أشياء ثمينة بهذه الطريقة. ربما اقتناؤك شيئا مَهما غلا ثمنه، من هذا المكان البعيد، يعوض الإحساس بالغبن وشعورك بأن البائع تغلب عليك. وماذا يحدث لو تغلب عليك البائع ورضيت بهذا؟ طالما كنت سعيدا بهذه الذكرى التي عدت بها من هناك. مع الوقت لن يكون للذكرى ثمن.

العابرون لطنجة

في القطار إلى طنجة جلس معنا زوج وزوجة من المدينة. بعد مغادرتنا محطة أصيلة مررت بيافطة مكتوب عليها العرائش، تذكرت مباشرة منبت الكاتب المغربي الشهير محمد شكري، سألت جاري المغربي عن هذه المدينة، سألني كيف عرفتها، أخبرته أنني قرأت اسمها في رواية، أجاب مبتسما: محمد شكري، كأنه كلمة السر التي ستفتح مغاليق تحفُّظه ويصرح بأن محمد شكري كان يقبح كثيرا في كتاباته. لم أتمادَ في هذا الحوار، كان يكفيني أن ألمس اسم محمد شكري على لسان أحد المغاربة العاديين والبسطاء، والذي ربما لم يعرف بجانب كونه عاش فقيرا في هذا القرية هو وعائلته، أن مقبرته صارت هناك.

عند وصولنا محطة طنجة، مررنا بقطار منتظر في المحطة للمغادرة إلى الدار البيضاء. كان القطار قابعا في سكون، كان من القطارات القديمة ذات اللون الأحمر، وبداخل إحدى عرباتها كانت هناك مجموعة متناثرة من السائحين الأجانب، رأيت مباشرة صورة طنجة الستينيات والسبعينيات، ولكن بعد أن فاتهم قطار اللحظة الذهبية للمدينة. هؤلاء الباحثون عن أحلام المدينة، تماما مثل الذين كنت أشاهدهم في الإسكندرية يبحثون عن أثر داريل أو كفافيس، هذا البحث يجعل سيماهم بها ثقب في جبهتهم، يطلقون منه ضوءا واهنا باتجاه تلك المومياء المدفونة في أساس المدينة وتحت ترابها. يحملون جزءا من موت مضى عليه زمن. البحث عن زمن ضائع، واقتفاء أثر كاتب مات، كان يمثل في اعتقادهم زمنا، ولكنه غير قابل للتمثيل. كأنهم يمسكون بقبضة من الصابون، لذا يظل بحثهم لا يشفى، ويكبر مع الوقت هذا الثقب في الجبهة. تخيلت تماما القطار الذي أتى به بطل فيلم «برتولوتشي» والتراب الذي أثارته العجلات والمكابح في فيلم «شاي في الصحراء»، كأنها تنثر الملح في عيون تراقب هذا المشهد، هذا الزمن الآخر، ليتحرك البطل ويصنع أسطورته في خيمة التراب هذه، لحظة انتقال لعالم جديد.

كل أزمنتنا أزمنة انتقال، وكل عوالمنا عوالم أخرى.

يمزجون بين سيرتهم وسيرة المدينة، يوسعون بهذا من حدودهم الشخصية، من حدود ثقب الجبهة، وخريطتهم الشخصية، ليمزجوها بحدود أكبر وبخريطة أكبر، ولكن كل هذا لا يحدث إلا لحظة الفقد، الموت. التوسعة الشخصية تعبر بهذا الفراغ وبطور المومياء وبقالب الموت، كل هذا لا يتم إلا داخل إطار الفقد. ولكنها تظل إحدى التجارب الهامة في الحياة، أن تمزج تاريخك الشخصي بتيار التاريخ العام، تحاول بشتى الطرق أن تقرب حياتك من هذا النهر، عبر الموت، أو الفقد، أو ضفتَي الفقد.

يسيح الباحث والمتجول في جغرافية مدينة، يتحول تاريخه الشخصي، بدون أن يدري، المجرد والمرموز، إلى شوارع وطرقات وتماثيل. تختلط رموزه برموز المدينة، يتسع الثقب في الجبهة حتى تنصت له. لكي يحدث هذا التواصل لا بد وأن يستعيد تلك المدينة عبر وسيط، كاتب، عصر ذهبي لها، فيلم، عبر لمعة الذهب في الخزائن الحديدية المغلقة، كأن التطابق بين الاثنين لكي يحدث لا بد له من شروط. أن يسمح بميلاد جديد للمدينة بداخله.

الأربعاء ٢٩ مايو- من طنجة للدار البيضاء

وصلنا الدار البيضاء عصرا. سرنا، ومن خلفنا ماكينة نسج الطرق والمسافات والحكايات، من محطة القطار لوسط البلد وبمحاذاة شريط المترو. كانت الشوارع شبه خالية. لم أسمع ضوضاء آتية من الشوارع الموازية القريبة من البحر. مررنا بساحة آل ياسر، اقتربنا من منطقة السوق المركزي. عثرنا على الفندق. دائما مطلبنا في الفندق أن يكون متوسط السعر، وبحمام داخلي، وأيضا يقع في قلب المدينة ليسهل الدخول إليها ولحياتها، ورؤية المدارات التي تشكلت حول هذا

القلب المجازي. كان من يقف في الاستقبال رجل له بشرة إفريقية، يبدو أنه من الأصول البربرية. حذرَنا من اصطحابنا لجوازات السفر معنا عند الخروج، ونصحَنا بأن نتركها في خزانة الفندق. وافقنا. وجدنا أحد المقاهي المزدحمة نسبيا، كانت هناك أسراب من الطلبة في طريق عودتهم من جامعاتهم. كان موقع المقهى بجوار أحد البارات، وهناك من يقف على بابه يتحدث بصوت عالٍ جهوري، ويجُر شَكَل الآخرين، بينما يحمل جريدة في يده ليدلل على شيء ما لم أعرفه. لم يكن أداؤه يثير الشك أو الريبة. ويبدو تماما معرفة الناس له واعتيادهم على هذا الأداء الليلي المخمور. في مثل هذه المواقف الاستثنائية بالنسبة لي، التي تحدث في مكان جديد، أبحث عن وقع الحدث على الناس المحيطين بي من أهل المكان، وكيف تلقوه، لو وجدت في أعينهم استغرابا أو اندهاشا، عندها فقط أُولي الحدث أهمية وأستعد لتوقع الأسوأ. إحساس الناس هو مقياس حقيقي لرصد درجة الخطر.

في صباح اليوم التالي ونحن في طريقنا للمطار، أمطرت السماء بشدة. كان الجو منعشا. استقبلتنا الدار البيضاء بالمطر وها هي تودعنا بالمطر. ربما الفارق بين الاثنين هو العِشرة التي نشأت بيننا، واعتيادنا على المطر في هذا الوقت من العام. المدن في الصباح الباكر لها ملمس خاص، تشعر به وهو يحك جلدك.

في رحلة القطار من طنجة للدار البيضاء ظهرت من جديد تلك المساحات الشاسعة من الأراضي المزروعة، التي عادة ما تراها في طرق السفر. تجمعات متناثرة للبيوت تظهر في الأفق. ثم تجمعات أخرى قريبة من شريط القطار لأناس يعيشون على حافة السفر، ويسورون هذا الجزء الصغير من الأرض المزروعة بسور مزدوج وأحيانا ثلاثي، من نبات التين الشوكي، كعدة صفوف من الأسلاك الشائكة. ثم تظهر مئذنة بيضاء، وسط هذه المساحات الخضراء والصفراء من الزرع والأرض. أحصنة وحمير ومدافن بيضاء ورعاة وأغنام. شبكة اتصال ومصالح واحتياج واسعة تجمع فيما بينها كل هذه المفردات ورموز الحياة. ومن بعيد تظهر سلسلة الجبال. هي الحائط الذي يحمي هذه الرموز من الضياع، والنافذة الداخلية التي ينظر منها الجبل لهذه الرموز الذي ظل يراقبها من آلاف السنين وسيراقبها لعدة آلاف من السنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إن كان البحر حدًّا لمكان وبداية لمكان آخر، فارغ من الناس، حقيقة أو مجازا. فإن الجبل امتداد لأعلى، لمعنى داخلي يتمدد، للأرض المنبسطة التي يصعد بها وبمعناها ويسحبها معه لأعلى كالسلم الكهربائي في المولات الضخمة. الجبل عملية تحول وتسامٍ مستمران. أيضا هو الأقرب لهذا العالم الآخر الذي يقع خلفه، المطلع عليه، هو نافذة بوجهين، للآخر وللسماء. أحيانا يتحد الاثنان في عين الرعاة والفلاحين والبسطاء.

أحلام ما بعد العودة

حلمت بعد عودتي من المغرب بأني أصعد خلال زنقات ودروب فاس القديمة. صعود يشبه صعود الجبل، وقد تحولت المنعطفات والتقاطعات والانزلاقات والصعودات إلى أشخاص، يسلمني وجه لوجه آخر، وهذا الوجه الآخر يسلمني بدوره لوجه ثالث وهكذا لما لانهاية. بينما أنا مستسلم، أشعر فقط بإعياء ودوخة داخل متاهة الوجوه هذه.

* * *

ما زالت تطاردني المغرب في أحلامي. في الأمس جاءت على هيئة أبواب متداخلة ومتناسلة من بعضها البعض. وأنا أحاول أن أجتازها كأنها حواجز في سباق. منها العادي الذي أعبر منه بدون مشكلة، ومنها القصير الذي يجب أن أنحني عمدا أثناء عبوره. تذكرت في الحلم كلام فؤاد، عامل

الرياض في فاس، حول حكمة الأبواب القصيرة، كي ينحني الضيف احتراما لصاحب البيت، احترام بالإكراه. ولكن في حلمي لم يكن هناك أي إكراه، ربما كنت أنحني للبلد نفسه. ولكن هذا التداخل في الأبواب، كلما عبرت واحدا لا أشعر بأني أنجزت جزءا من السبق، بل هبطت لأسفل، وغرقت تماما. الديمومة والتداخل والغرق هي سمات علاقتي الباطنية بالمغرب، أشياء تسلم لأشياء أخرى، بدون بداية أو نهاية لهذا البحث والانتقال. حلم بلا بداية أو نهاية، نقطة على سلسلة في النهر الجاري الذي يسمى الزمن كما وصفه بورخيس. ولكن زمني الذي أنتقل فيه في حلمي زمن عربي، لا يجرح الذاكرة، لأنه إحدى دوائرها الشاغرة. هو الآخر الذي يأتي من الداخل. لم أحاول أن أتتبع، كمخبر سري، بداية أو نهاية أي حكاية انبثقت فجأة في الطريق. يكفي أن تطل على هذا الزمن الجاري والمجتزأ، وهو يجري داخلك، وهو يقطع رحلته فيك بحثا عن توأم له، أو قطعة مفقودة من فسيفسائه، أو عن صورته الأولى التي تكونت في الذاكرة، ربما يحن عبر حياتك لكي يقابل طفولته. في المغرب، وللمرة الأولى داخل أسفاري، لا أبحث عن حكاية ولا أريد أن أكمل حكاية، لأنني في هذه اللحظة جزء من حكاية، قطعة فسيفساء عادت، أو طوبة ألقيت في النهر.

* * *

للمرة الثالثة على التوالي أحلم بالمغرب. هذه المرة تجسدت المتاهة أو هذا الزمن المفتوح على شكل أوراق قديمة تتساقط ثم تعلو في نظام، كأنها تتحرك بجاذبية لأسفل ولأعلى. بينما أقرأ في إحداها وأنا سائر وسط الدروب. ربما تحولت الدروب نفسها إلى نص قديم. في الحلم الأول كانت المدينة متاهة جغرافية من الوجوه البشرية، أما هنا فقد تحولت إلى نص، إلى رمز تقني تماما كوني كاتبا. كانت المدينة داخل النص. أشم رائحة أحجارها، خطوطها الكوفية، زخرفتها النباتية على جدران أضرحتها، كأني جالس في باحة مدرسة العطارين أقرأ على الهواء من هذه المتاهة القائمة على الجدران وفي الأرضيات. هذه الفسيفساء هي المتاهة الحقيقية، حركة دائمة ودائبة داخل العين بالرغم من سكونها الظاهر، إنها تتحرك وتتبدل مواقعها، وتخرج من الزهرة زهرة أخرى، ومن المربع مربع آخر، ومن الحرف يولد حرف جديد، وفوق هذا الانفجار الهندسي، هناك وردة.

الإسكندرية- ٢٦ سبتمبر - ٢٠١٤

---

(1) هو تجمع سكاني يهودي، وأصل تسميته بـ«الملاح» يعود إلى عهد المرينيين في الثلاثينيات من القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يوجد موقع عند مدخل مدينة فاس تجمع فيه مادة الملح قبل توزيعها، فكان الموقع أول تجمُّع خاص باليهود. ومنذ ذلك الحين تم تعميم مصطلح الملاح ليتم تداوله بين الأوساط المسلمة واليهودية، كحي محاط بأسوار عالية له بابان في غالب الأحيان، يقطنه اليهود. وقد عمد سلاطين المغرب إلى تجميع اليهود بهذه الأحياء، وكان الملاح عادة قريبا من قصر السلطان من أجل توفير الأمن والحماية لهذا العنصر نظرا لدوره الفاعل في تنشيط الحياة العامة، ولكونه مصدرا من مصادر تزويد خزينة الدولة بالمال. ولكل ملاح «مقدم» ونواب يمثلون الطائفة وينوبون عنها أمام السلطات ويرعون مصالحها ويعملون على حل مشاكل الطائفة فيما بينهم، وداخل أسوار الملاح، أو بالقرب منها، يتواجد كنيس للعبادة والصلاة ومدرسة لتلقين مبادئ الكتابة والدين. وكان الملاح يعج كذلك بالمحلات التجارية المختلفة التي تبيع المواد الغذائية ودكاكين العطارة والملابس، ومختلف الحِرَف الأخرى. كما كان لا يخلو من محل أو أكثر

للجزارة حيث تباع اللحوم وفق أصول الشريعة اليهودية. وكان جزء من معاملات التجارية يتم خارج «الملاح» مع المسلمين. فقد كان كثير من التجار اليهود الكبار والصغار يقصدون الأسواق الموسمية لعقد الصفقات والمتاجرة في الأغنام والأبقار والإبل والدجاج والبيض والتمور والحبوب والسكر والشاي والألبسة وغيرها من السلع، وعند انفضاض السوق يعودون للملاح حيث أطفالهم الصغار بانتظارهم وانتظار حلوى السوق. (من شبكة الإنترنت).

كنا قريبين من السحاب
رحلة للبرازيل

بداية من استعدادي للسفر للبرازيل، ونهاية بعودتي بعد ثلاثة عشر يوما قضيتها بمدينة ساوباولو، كأنني كنت أحلم. أن تعبر بحر وبمحيط لمدة ثماني عشرة ساعة، لن تجد إلا النوم الإجباري هو الذي سينقذك من تخيل الليل خارج الطائرة، ليل ثقيل صامت له جدار سميك من الظلام الكثيف لا يسهل اختراقه. بجانب النوم داخل الطائرة لاستنفاد الوقت، كانت كل شاشات التلفزيون تعرض مسار الطائرة، تتعرف على مكانك وسط الكون عبر هذه الخطوط التي تكتسب مصداقية في هذه الحالة أكثر من أي قطعة أرض بعيدة لا تطولها مشاعرك ولكن خيالك هو الأقرب لها. الأحلام لا أرض ولا مكان لها، بدون أي لعب بالألفاظ أو استخدام للمجاز أو التخييل. الشاشات المضيئة أمام المسافرين هي كوننا الجديد، تضغط علينا الجدران من الخارج فتشف جنسياتنا وأجسادنا. بالرغم من استيعابي للنظرية التي تطير بها الطائرة، إلا أنني في كل سفر أشعر بالمعجزة لهذا المجتمع الطائر، لهذا الكون الصغير المضيء وسط ظلام الكون الكبير.

«ياسيد علاء»

«ياسيد علاء» وهي الجملة التي لم يغفل خالد عن نطقها عند توجيه أي حديث لي، أو عندما يحاول أن يلفت نظري لشيء لم تلحظه عيني أثناء السير في شوارع ساوباولو. خالد في الأربعين من عمره ويحمل الجنسية العراقية، ومهاجر بالبرازيل منذ عشر سنوات. بالرجوع لتلك الفترة في تاريخ العراق كان لا بد من السفر، بعد أن اشترك في صفوف الجيش في الحرب الإيرانية العراقية، أصبح عنده من الأسباب ما يملأ كتبا كي يغادر العراق. سافر إلى ليبيا من أجل العمل كمدرس لغة إنجليزية، ومن هناك سافر لساوباولو للعمل كمدرس للغة الإ نجليزية أيضا. والآن هو يحضر رسالة ماجستير بالجامعة حول «شكسبير». تعرفت عليه صدفة، وكانت بالفعل صدفة جميلة فتحت لنا خرائط وحواري ومسالك وطرقا، والأهم أنها أتاحت لنا الفرصة للتعرف عليه عن قرب. يسير ويرفع كتفيه لأعلى، نوع من الاعتزاز الشخصي الذي لا يفرضه على أحد، وعند كل لقاء يعتذر عن الدقائق الخمس التي تأخرها في الطريق. اختار لنا الإقامة في وسط المدينة لنكون قريبين من تنويعات الحياة، الهادئة والصاخبة. وعند مقابلتي له بعد انتهاء يوم العمل، يخرج من شنطته ورقة يفتحها فتجد خريطة صنعها بنفسه في اليوم الفائت تصف إحدى الضواحي أو أحد الأماكن الهامة في المدينة والتي يجب أن نزورها. إذن كان يفكر بنا في الأمس، ليس هذا فقط، وإنما صنع لنا قاموسا مبسطا لبعض الكلمات بالبرتغالية ومرادفها بالعربية، الكلمات التي تستخدمها في أوقات الزنقة كالسؤال عن السعر، التحية، الاعتذار، السؤال عن الطريق. ولكن أضاف لقاموسه كلمتين طريفتين وهما: بدون ثلج، ومع ثلج، (sem gelo، com - gelo).

لا يمر يوم إلا وأجد منه رسالة في مكتب استقبال الفندق، عند عودتي من الخارج أنظر لرقم غرفتي هل هو مدون على السبورة السوداء أم لا، ومعناه أن هناك رسالة لي، أفتحها فأجد تأكيدا منه لموعد اتفقنا عليه. أصبحت المدينة في متناولنا بالرغم من أننا لم نقطعها كلها. كانت خرائطه وتعليقاته تشعرنا بالأجزاء التي لم نصل إليها بأقدامنا. سرنا وراء المدينة التي يحبها، وجزء من عرفاني بجميله أن نرى المدينة من خلال عينه، كما رآها منذ عشر سنوات، وما زال يراها حتى الآن. وطبيعي أن يكون في وداعنا عند باب الفندق، بوجهه المبتسم، وهي الابتسامة التي حافظ عليها، على الأقل أثناء فترات اصطحابه لنا في التجول. مما لا شك فيه أنه يمتلك روحا واسعة، يقنع بحياته في البرازيل بالرغم من رغبة أقاربه من أن يلحقهم في أمريكا أو أوربا أو في مدن الشتات العراقي، ولكنه وجد في البرازيل سلامه الخاص وطمأنينته، بالرغم من الدخل المتوسط الذي يوفر معيشة متوسطة، ولكنه قانع بها.

كان يتحاشى أن ينظر إلينا في أعيننا في لحظة السفر وبشكل عام، ربما خجله أو طريقة احترامه للآخرين، وربما كذلك حتى لا يثبّت لحظة حزن أو ارتباط عاطفي. بالنسبة لي كنت أرى وجودنا في البرازيل هو لمرة واحدة، وكنت أرى الأشياء من حولي بهذا الحس ومن هذه الزاوية، كل شيء أراه للمرة الأولى والأخيرة، فالمسافة الكبيرة بيننا وبين البرازيل، وكذلك مسافة الذهن التي تجعلك تشعر بأنك خارج أي خريطة رسمتها في أحلامك أو يقظتك. قبَّلني أنا وزوجتي، وظل ينتظر العربة وهي تتحرك وتبتعد وهو لم يغير مكانه. في آخر يوم عرفت صدفة أنه من طائفة الكلدانيين في العراق، ووالدته قريبة لنجيب الريحاني، إذن الابتسامة التي لم تفارقه هي ميراث عائلي. كلما ناداني بجملته الشهيرة «ياسيد علاء»، لم أتأذ من هذه الكلمة، شممت في كلمته رائحة احترام زائد ومسافة طبيعية يضعها بينه وبين الآخرين، وجدارا، ولكنه جدار واطئ يمكن القفز من فوقه بسهولة.

شارع باوليستا

شارع باوليستا في ساوباولو مكدس عن آخره بالجمال والحيوية والحركة الدائبة. وهو الشارع الذي رشحه لنا خالد لنسكن به. يعتبر الشارع الذي تنعكس على واجهاته قوة المدينة ومعاصرتها. عند إشارات المرور، يتوقف سيل من العربات الأنيقة، ويعبر سيل آخر من البشر. كل عدة دقائق يضخ الشارع العشرات عند نقاط التجمع هذه. المئات يخرجون من فتحات المترو إلى الشارع الكبير، أكشاك بيع الجرائد تتخلل مسيرتك أينما ذهبت، محطات الأتوبيس، محلات بيع اليانصيب، الجوائز التي تتعدى أرقامها ستة أرقام، داخلها طوابير محتملة لامتلاك الحظ.عربات الشرطة التي تتمركز في النقاط الحيوية حول البنوك، عربات صغيرة وأخرى مصفحة، لا ترى من بداخلها ولكنه يراك. ومن حولك العمارات الشاهقة كأنك في نيويورك. ناطحات سحاب مصغرة، في أيام الإجازات تتحول إلى أبراج صماء لا حياة فيها، وفي أيام العمل تمرح الخيالات الصغيرة من خلف واجهاتها الزجاجية المضاءة. المطاعم والكافتيريات التي ستمتلئ عن آخرها وتحتل بعضا من الرصيف في الليلة السابقة للإجازة، وزجاجات البيرة هي مفتاح الاستمتاع بهذا المساء، شباب من كل الأعمار تمتد أمامهم طاولة الطعام والشراب، لا يوجد احتفال بغير البيرة، ومن غيرها سيجعلك تثرثر وتضحك بدون حساب لصباح اليوم التالي. في يوم العطلة يفقد الشارع حيويته، يعود مسنا وكئيبا خاصة في الليل.

يمتد الشارع لعدة كيلومترات، تقطعه عدة ميادين صغيرة تضم داخلها حديقة دائرية، لكي لا يختلي أحد بوحدته. الدائرة تصنع مجالا مفتوحا للذات، ربما لهذا السبب صُنعت الميادين دائرية، كي تشعر داخلها أنك جزء من عالم كبير ومفتوح، هي الدليل على حرية المدينة وشمولها. اللون الأخضر لا ينقطع طوال مسيرتك في الشارع، وفي ساوباولو على وجه العموم. هناك شحاذون يحتلون هذه الحدائق، يعيشون فيها صيفًا وشتاء. ومحلات الأحذية والملابس والمكتبات والكنائس والمولات، لا يوجد شيء يرمز إلى المدينة الحديثة بكل تناقضاتها وجبروتها، إلا وتجده في شارع باوليستا. والكلمة مشتقة من اسم المدينة «باولو»، كما نقول «الإسكندراني»، فالشارع يشير إلى خصوصية ما داخل نسيج المدينة، رائحة ابن البلد.

بالتأكيد الكلمة تحمل مجازا ما، فلا توجد أي مظاهر للقِدم داخل الشارع، أو لرائحة ساوباولو القديمة، اللهم إلا مجموعة من القصور كانت في السابق للمهاجرين الأوائل الذين عملوا في تجارة البن. ولكن هناك شيئا أكثر قِدمًا من هذه القصور، وإن كان غير مادي وهو الفقر الحاد. يبدوا أنها سمة المدن الحديثة، أن تجمع فقط بين النقائض، ولا تحلها. مقولة العالم الأول والثاني والثالث،

أصبحت مقولة قديمة، فكل مدن العالم أصبحت مقسمة على العوالم الثلاثة، فلم يكن مستغرَبا أن الشحاذين الذين يشغلون الأرصفة والحدائق، يتجاورون مع البنوك الفخمة، والمليارات التي تضطجع في خزائنها. في أحد الأيام الممطرة مررت بالحديقة ليلا، كان هناك نفر منهم يشعلون النار ويلتفون حولها، كاحتفال بدائي بالدفء والجماعة يستمر طوال شهور الشتاء، والبوليس يراقب من بعيد ولا يتدخل، يترك لهم حرية الحركة في المدينة ما داموا مسالمين.
التواجد الأمني الكثيف في كل شبر من المدينة يثير الانتباه. الأمن بأنواعه المختلفة، حاملو العصيان المكهربة، وحاملو المسدسات وحاملو البنادق والمتمترسون داخل العربات المصفحة، كأن هناك حربا على وشك الإعلان. أما الطرف الآخر فهو غير ظاهر ولكنه متوقع، لذا تكثر الالتفاتات من رجال البوليس، تكثر تحركاتهم وتفرسهم بهدوء في الوجوه، وأجهزة الووكي توكي على أفواههم، يهمسون داخلها، وهناك من يتلقى تلك المعلومات في غرفة محاطة بالأجهزة والشاشات ويصدر الأوامر لهم بالتحرك أو التوقف. فلا يمكن أن يتكرر ما حدث منذ شهور عندما هاجمت عصاباتُ المافيا، وهي عصابات تعمل في تجارة المخدرات، المدينةَ لمدة ثلاثة أيام متواصلة. هاجمت فيها مراكز الشرطة والشرطة العسكرية ومراكز الإطفاء. وتعطلت خلالها المدارس وحُرقت أتوبيسات النقل، وأغلقت المحال، ولم يجد العمال ما ينقلهم إلى المصانع، فتعطلت المصانع هي الأخرى. وقتل ما لا يقل عن أربعين جنديا من الشرطة، ومثلهم من العصابات، وقد سمَّت العصابات نفسها «القيادة الأولى للعاصمة»، وهو اسم يليق بحركة ثورية هدفها تغيير العالم.
شرارة الثورة حدثت في السجون، حيث يعيش زعماء هذه العصابات. قاموا باحتجاز حراس السجون وأخذهم كرهائن. والسبب الذي فجر تلك الأحداث هو عزم السلطات المحلية للمدينة نقل زعماء العصابة من سجن داخل المدينة إلى سجن ناءٍ بعيد وخضوعهم لحراسة مشددة. كان عددهم يبلغ حوالي سبعمائة وخمسين سجينا. الطريف في الأمر أن الزعماء كانوا يديرون الحرب من داخل السجون بالهواتف النقالة، مما دعا قوات السجن إلى التشويش على المكالمات حتى تمنع الاتصال. وقد تطور الأمر أن طلبت الحكومة المركزية من السلطات المحلية تدخل الجيش لقمع هذه الثورة ولكن حاكم ساوباولو رفض هذا مكتفيا بقدرات القوات المحلية على إخماد ثورة العصابات.
حرب بمعنى الكلمة نشبت بين الدولة والعصابات. يبدو أن تراكم عصور الدكتاتوريات بجانب عصور الفقر- فقد كانت البرازيل محاصرة بديون، خلفتها عصور الدكتاتوريات، تقدر بحوالي ٢٦٠ بليون دولار حتى سنة ٢٠٠٢، وانتشار تجارة السلاح والمخدرات في أمريكا اللاتينية التي ظهرت بالتوازي مع وجود حركات سياسية معارضة مسلحة في أغلب دول أمريكا اللاتينية حتى سنوات خلت؛ كل هذا أدى إلى نمو حركات موازية، لها القدرة على النظر في عين الدولة بجرأة ومنافستها في السيطرة على أشد خصوصياتها، وهي السيطرة على الأمن في المدينة.
جزء من رحلتنا في ساوباولو كان منصبًّا على توقع جريمة ما، هجوم مفاجئ، ولا تعرف من أين، وربما من أحد راكبي الموتوسيكلات المقنعين الذين يملئون الشوارع. أو يخرج عليك أحدهم بسكين، وهذا احتمال ضعيف لأنها سلاح الهواة، والأغلب بمسدس محشو في أحد الشوارع الهادئة ليطلب مني حقيبتي أو نقودي أو ساعتي. قالوا لي لو حدث هذا أعطه ما يريد بدون تردد، ففي مثل هذه الحالات لا ينفع الذكاء أو المماطلة أو الرغبة في الكسب، فكل الحالات التي حاولت المقاومة كان مصيرها الموت. لهذا السبب كنت أوزع النقود بيني وبين سلوى زوجتي، وكذلك أقسمها على

عدة أماكن في جسمي. وقد حكى لي خالد صديقنا العراقي عن تعرضه الشخصي لحادث من هذا النوع، فقد تعرض لعملية سطو مسلح، وهذا هو اسمها بدون مبالغات. أشهر أحدهم المسدس في وجهه، فسلم بدون أي كلام أو تردد أو محاولة منه للنظر في عين اللص من أجل استرحامه. إنه عمل اللص الذي تدرب عليه لسنوات وأصبح يتقنه، لذا الجريمة هنا دقيقة ولا تدخل الرحمة في بنودها. سلم له خالد «اللاب توب» الأنيق الخاص به، ومضى بدون أدنى إحساس بخسارة كبيرة.
داخل هذا الخوف لم أشعر أنني سائح، بل مواطن. الخوف يقربك من إحساس عام وخفي يجمعك بالآخرين، شيء يتحرك تحت الجلد. كنت أتفرس في الوجوه، خاصة لو أخرجت نقودا من جيبي، أو أخرجت سلوى كاميرا التصوير اللافتة للنظر بعدساتها المكبرة: أيهم وسط هذه الوجوه المتسامحة والجميلة، فلم أستبعد أن جمال النساء له وجه إجرامي أيضا، سيخرج مسدسه وينقض علينا؟ أيهم سيسحبني إلى ركن وينظر في عيني بقوة؟ ولكنه خوف لذيذ أيضا، يجعلك تعيش داخل حكاية، وتشعر بأن هذه الجنة من الأجناس المتعددة والجمال المتنوع والطبيعة الخرافية؛ جنة ناقصة، فهناك كثير من الفقر، والأطفال الذين يملئون الشوارع يشحذون أمام العربات، والفقراء الذين ينامون في الحدائق وعلى الأرصفة، وكثير من البيوت الخشبية الفقيرة التي ظهرت ونحن في طريقنا إلى مدينة سانتوس، ميناء تصدير البن الهام في البرازيل. في الطريق كما كانت الطبيعة والخضرة والجبال في أشد تألق لها، كانت البيوت الفقيرة والعشوائيات والجيتوهات المنسية خارج نطاق المدينة تتخلل هذه الجنة الطبيعية.
رغم هذه التحذيرات، إلا أنه يجب علينا أن ننساها، فلا يمكن أن تقترب من شيء وأنت تعيش في خوف. وشيء آخر، هل كنت أخاف حقا، أم أنني استسلمت لتحذيرات حتى أضفي التشويق على رحلتي؟ ربما أميل أكثر لهذا التفسير، كما قال لنا المرشد في الغابة، في الرحلة التي سأتحدث عنها بعد عدة صفحات؛ عن وجود ثعابين مسالمة. عندها توسع مفهوم الغابة في مخيلتي. المشكلة التي كانت تحتاج لاستعداد آخر، وهي ماذا سيحدث لو تعرضنا لهجوم، أو لسرقة، أو للدغة ثعبان أمازوني لا يرحم- طمأنونا أن بساوباولو أكبر معهد للأمصال في العالم- ماذا كان سيحدث؟ ربما في هذه الحالة كان سيتغير حديثي عن الحياة هناك وعن الجنة المتسامحة، كان سيضاف إليها إحساس فوهة مسدس بارد مصوب إلى رقبتي. وأحمد الله أنه لم يحدث.

الطعم السكري

أثناء سيرنا في شارع باوليستا ليلا والسماء تمطر، توقفت أمام بائع الفشار، اجتذبتني النار التي تتوهج داخل عربة اليد الزجاجية. اشتريت كيسا وسرت به في الشارع، كما يحدث في الإسكندرية عند بائع الفشار في ميدان محطة الرمل، يصطحبني الكيس مدة تسكعي وسط زحام شارع صفية زغلول. كان الفشار لونه أحمر ومخلوط بالسكر، مذاق جديد للفشار لم أعهده من قبل، مثل كثير من المذاقات هنا، فالطعم السكري حاضر، حتى وسط وجبات الغداء أو العشاء.الموز المقلي، وذلك النوع من الجذور التي تشبه البطاطا، يقطع ويقلى ويخلط مع الصلصة واللحم، أو يصحن ويقدم منفردا كالأرز ولكن لونه أصفر. تتذوقه تشعر بالمذاق السكري له. هذه الأطعمة السكرية لها قناع حاذق، لا تعرف أصلها بسهولة، فالموز يقطع ويقلى في خليط من الدقيق والبيض حتى تختفي معالمه الخارجية تماما. حتى المشروب الشعبي عندهم وهو الكاشاسا، وهو عبارة عن شراب كحولي يصنع من قصب السكر، وعند تناوله يضاف إليه القليل من السكر مع شريحة من الليمون. بالنسبة لي أرى الحياة من جانبها الآخر، الأطعمة الحاذقة هي الجديرة بالاحترام لأنها أطعمة وقورة، مذاقها لا يذوب بسهولة في الفم، وتستهلك وقتا أكثر في مضغها، وتظل عالقة

بخلايا الذاكرة، تتذكرها فيقفز مذاقها على سطح الذاكرة. الأطعمة الحاذقة لها مذاقات عدة وشديدة التنوع، بعكس الأطعمة السكرية، جميعها تدور حول مذاق السكر، وهو في النهاية مذاق واحد، ويذوب سريعا في الفم، ولا يعطي الفرصة للذاكرة كي تجتره أثناء غيابه. ولكن هناك نقطة في ذاكرتي يلتقي عندها المذاقان، السكري والحاذق، فقد كانت جدتي في أيام الشتاء تقلي لنا، نحن صغار العائلة، العجوة مع قليل من السمن البلدي ثم تكسر عليه بيضتين، ويكون الناتج طعما ولونا فريدين. لم أنس مذاق هذه الوجبة في ذاكرتي أبدا، لأني لم أنس جدتي.

هنا نحن محاطون بالفاكهة من كل جانب، بتنوعها اللانهائي وهشاشتها وذوبانها السريع كأنها لم تكن موجودة. المفارقة أن السكر له نفس الاسم العربي، هو العنصر العربي على ألسنة البرازيليين. الأكلة الشعبية هي خليط من اللوبيا السوداء والأرز واللحم. وبجانبها يوضع طبق صغير به قرون الشطة الحمراء المجففة والمخلوطة بالزيت، ليضفي طعما حارا لتلك الوجبة الفقيرة في مذاقها. تلك الوجبة كانت الأكلة المتاحة للعبيد، طبعا بدون إضافة اللحم، أو كانت تطهى ببقايا فضلات الذبائح التي لم يكن يأكلها السادة. وكذلك مشروب الكاشاسا، أيضا من اختراع العبيد، ويجهز من قصب السكر المتوافر بكثرة. الوجبة والمشروب صمدا كل هذا الزمن، بالرغم من أن ميلادهما لم يكن مترفا.

معمل ضخم للجينات

أجناس عديدة عاشت في البرازيل، الهنود الأصليون، والأفارقة واليابانيون والألمان واليهود والعرب المهاجرون والإنجليز وطبعا البرتغاليون، الفاتحون لهذه البلاد. قارة جديدة تستوعب كل ما هو غريب ومختلف، أصبح هناك معمل كبير للجينات، مئات البشرات، ومئات طرق الجمال. كل جنس يحمل معه طعامه وبذورًا عالقة في أحذيتهم. معجزة هذه القارة خصت النساء أكثر من الرجال، معجزة الجمال البشري. برج بابل النساء، ليس هناك عقيدة واحدة أو لسان واحد، أو لغة واحدة للجمال. الصدور المكشوفة بعفوية، فقد عشن خطأ داخل المدينة والمكان الأصلي هناك في الحياة القديمة، حيث الصدر العاري والشال الرقيق الذي يغطي العانة. صدور النساء تعطي للشارع رجة شهوانية، ولكنها شهوة طبيعية، فالعري ليس موضة أو تحررا، وإنما هو جزء من تاريخ وحياة وحرارة جو استوائي يجعل الخروج من الملابس أسهل بكثير من الدخول فيها. النساء لا يشعرن بجمالهن، الجمال أسطورة غير شخصية، لأنه نشأ وسط الطبيعة وليس وسط تصنيفات طبقية مدينية. ربما الأصل الهندي، والذي تفرعت منه شجرة الجينات، هو نقطة الاتزان لكي يكون الجمال نزيها. المدينة جعلت الجمال محتكرا وثمينا، جعلت منه سلعة للتداول.

عندما يتحدث «ماركيز» عن عاهراته الجميلات والحزينات، وعندما يضع «باولو كويلو» عاهرته في مكان القديسة، أفهم لماذا. فهناك هشاشة تختفي وراء هذا الجمال تجعله قابلا للسقوط، لأنه أصبح جمالا مغتربا منفصلا عن مكانه. ولا أجد أفضل من المشهد في رواية «ماركيز» «مائة عام من العزلة» عندما يتسلق أحدهم من طابق إلى آخر حتى يصل إلى الحمام الذي تستحم فيه «ريميديوس بوين ديا» الجميلة، وتراه وهو يخاطر بنفسه من أجلها، عندها لا تصرخ أو تبحث عن شيء يستر جسدها، وإنما تخاف على هذا العاشق من أن يقع.

هناك شيء غير مكشوف في علاقة النساء بأجسادهن. الرجال أقل وسامة من النساء، وهو شيء طبيعي وعادي، ولكن في البرازيل ملحوظ كإحدى العلامات الفسفورية التي تصادفك في الطريق. ولكن هذا الفائض الرأسمالي من الجمال انعكس بالإيجاب على الرجال، فقد جعلهم مرغوبين بالرغم من قلة وسامتهم. المنظر العادي أن تجد امرأة جميلة جدا في صحبة شاب غير وسيم على

الإطلاق والاثنان غارقان في قُبلة طويلة في الحدائق العامة، على السلالم المتحركة للمولات، وفي مداخل محطات المترو، في الأسانسيرات. الرغبة تستيقظ مع الحركة. الغريب أن تجد المرأة هي التي تبدأ بمناغشة الرجل. يبدو أنه التاريخ القديم للمرأة هناك، أن تعمل أكثر وتبذل مجهودا في إسعاد الرجل. وهي القسمة غير العادلة التي تسمح بها البرازيل. كل وجه في العالم يمكن أن يكون برازيليا. لا وجه مميزًا لرجالهم ولنسائهم، مهما كانت بشرتك أو تقاطيع وجهك، فلن تكون ملحوظا وسط الشارع، قوس قزح الألوان والأجناس والأديان، قاموس مفتوح للجنس البشري.

الإفريقي

الإفريقي الأسود، الكائن الضعيف والمستعبد والذي سار مع مراكب الغزو البرتغالي والإسباني والإنجليزي، والذي أصبح سلعة وتجارة هامة تعبر المحيط الهادي، من إفريقيا للعالم الجديد في الأمريكتين، ولأجزاء أخرى من العالم وصل إليها هذا اللون الصريح. دائما ما كانت هناك رغبة في استعباده، فاللون الأسود هو لون القوة والتحمل والتفاني في العمل. كانت هناك مراكز وموانئ لتجمع العبيد ثم إعادة توزيعهم على خريطة العالم. كان خروجه من موطنه الأصلي يعني أنه لن يعود مرة أخرى، الانفصال المادي عن أي معنى مركزي كالوطن، وداخل هذه الرحلة كان هو المادة الأولية التي يجرب فيها العالم الجديد طريقته الجديدة في الحياة، يجرب ابتعاده وانفصاله عن أي سجن حميم كالوطن أو الأمومة أو الأبوة. ولكن الإفريقي لم يكن منتبها للتحولات التي تحدث داخله، فقد كان عنده ما يشغله، لم يكن عنده الوقت ليفكر في التكوين الجديد الذي أصبح يحوزه.

حدث شيء لم يكن في الحسبان أثناء رحلة الاستعباد، أن هذا الكيان الهش والضعيف واللون المستعبد، تسرب كثقافة إلى كل الجهات التي وصل إليها، وأصبح اللون أساسيا عند كل شعوب الأرض، بعد أن كان محددا برقعة جغرافية. لقد حمل معه لونه وثقافته أينما ذهب، وانتشرت أغانيه وأطعمته، وطريقته في الحياة وأيضا حزن رحلة الاستعباد. لقد تجاوز بضعفه وهشاشته حدود لونه ومكانه، أصبح هناك وطن عالمي لهذا الإفريقي الأسود هو وطن العالم. هو الجدير بلقب مواطن العالم، أكثر من أي جنسية أخرى. لقد فرض نفسه عن طريق الاستعباد، لأنه يملك اللون الصريح الذي لا يقبل القسمة، كالمعدن النقي الذي تبنى عليه الحضارات. أصبح الاستعباد جزءا من حركة انتقال الثقافة، فالثقافة رحلة استغلال من مكان لآخر، تجارة غير مرئية.

شعوب كثيرة استُعبدت ولكنها ظلت في مكانها، كثقافة وكطموح، ولم تنتشر في العالم رغم أهميتها. أما الإفريقي ولأنه تحمَّل الجزء الأكبر من العذاب، ولأنه استُعبد وهو مسافر، وهو سائر، وهو هارب، وهو مذعور، وهو خائف؛ فحمل معه لونه وثقافته أينما ذهب، وأينما وصلت به مراكب الغزو.

رحلة الغابة

كنت قد طلبت من خالد أن يقترح علينا مكانا ريفيا يعكس مناخا آخر غير مدينة ساوباولو شديدة التعقيد والتي تنتمي أكثر لكل المدن الأوربية الحديثة والمزعجة، والذي ينحصر جمالها في هذا التعقيد، في هذه الدوامة اليومية والجموع الهائلة من البشر الذين يملئون الشوارع ويبلغ عددهم في ساوباولو عشرة ملايين نسمة. بالتأكيد خلف هذا التعقيد والتركيب هناك جمال ما، لم يظهر بعد، أو هو صنع من أجل المستقبل لأجيال جديدة، وتصادف أننا عشنا شطرا من هذا المستقبل.المهم، اقترح علينا خالد أن يصحبنا في عطلته إلى إحدى الغابات لنقضي فيها يومنا ونتعرف على ركن جوهري من أركان الحياة في البرازيل. أعطانا ميعادا في السابعة وعشر دقائق صباحا أمام الباب الداخلي للمترو. في الميعاد جاء هو وصديقته البرازيلية مارسيل، وهي تنتمي لإحدى جمعيات

الحفاظ على البيئة. في نهاية خط المترو التقينا بصديق لخالد في منتصف الثلاثينيات، اسمه نبيل، سوري الجنسية من باب توما، ويمتلك مطعما للأكلات الشرقية في إحدى ضواحي ساوباولو. مرت على نبيل أربع سنوات في البرازيل، قادما من أربع سنوات أخرى قضاها في برايتون بلندن. كان نبيل برفقة صديقته الجديدة إلينا، في منتصف عقدها الثالث، وتعمل مدرسة للرقص الشرقي في إحدى مدارس الرقص التي تمتلئ بها مدينة ساوباولو بما يشبه الموضة، وتقوم بالتدريس فيها لأربعين طالبة.

استقللنا القطار نحن الستة حتى محطة وسيطة، أنا وسلوى زوجتي، خالد وصديقته مارسيل، نبيل وصديقته إلينا. في طريق القطار وعلى حافته تماما ستظهر تلك البيوت الخشبية المُخرَّبة، ذلك العرض من الأخشاب القديمة والحياة البائسة بعيدا عن مركز المدينة. ومن هناك أخذنا الأتوبيس إلى قرية «paramapiacaba» التي سنقضي فيها يومنا وسط الطبيعة. في نهاية خط الأتوبيس كان المرشد في انتظارنا ليصحبنا وسط الغابة، فرحلة من هذا النوع تحتاج لمن يدلك على الطريق الصحيح، وبدونه يمكن أن نفقد، ليس طريقنا فقط، وإنما يمكن أن تضاف إليه حياتنا. عند محطة الأتوبيس انضم إلينا فتى وفتاة برازيليان، الفتاة لها ملامح يابانية واضحة، والوجه الياباني إحدى سمات الشارع، فقد تمت هجرات عديدة من اليابانيين إلى البرازيل في أوائل القرن العشرين. هل كانت صدفة أن تكون رحلتنا مناصفة بين عدد الذكور والإناث، لو استثنينا المرشد؟ هل المعنى الذي يليق بالغابة، بهذا المكان البدائي، هو هذا الحضور الرمزي للحياة؟

توجهنا ناحية الغابة، مررنا على كوبري يصل القرية بالغابة، ويمر فوق قضبان سكك حديدية. توقف المرشد في منتصف الكوبري ليشير إلى ساعة كبيرة لها طراز إنجليزي، تشبة مبنى ساعة بيج بن. أثناء دخول الإنجليز للبرازيل قاموا بتشييد عدة خطوط للسكك الحديد في منتصف القرن التاسع عشر، ليضمنوا مرورا آمنا لبضائع الدول التي تستعمرها. كما حدث في مصر والهند وأجزاء عديدة من العالم القديم، كانت خطوط السكك الحديد، وكذلك شبكات الري، هما الوسيلتين لبسط النفوذ واستغلال الموارد للاستعمار الإنجليزي. استعمار تجاري يبغي ربط مستعمراته بشبكة مواصلات أرضية ليسهل انتقال الموارد الطبيعية لتلك البلدان وإدخالها إلى السوق العالمي الذي كانوا يسيطرون عليه في القرن التاسع عشر. كان البن يُنقل عبر هذه القضبان إلى ميناء سانتوس القريب من هذه القرية ومنه إلى بقية العالم.

كل بيوت القرية التي مررنا بها كانت مصنوعة من الخشب ومدهونة بلون مائل إلى الحمرة الداكنة، ولها سقف من القرميد، وكانت تستخدم لمبيت العمال الذين يعملون في بناء شبكة المواصلات. بيوت لعمال تتحول مع الوقت إلى قرية، وفي أحد هذه البيوت الخشبية سنتناول الطعام بعد عودتنا من رحلة السير في الغابة. من البداية وقبل الدخول إلى الغابة ألمح المرشد على أننا يجب أن نكون أسرة واحدة، نسير معًا، وعندما يتعب أحدنا، ما عليه إلا أن يخبر المرشد للتوقف، وتلا علينا عدة تعاليم يجب أن نلتزم بها: لا نأخذ من الغابة إلا الصور، لا نترك فيها شيئا إلا الأحاسيس، ولا نقتل فيها إلا الوقت. من تلك اللحظة أحسست بجدية الرحلة، وقد عين المرشد الفتى والفتاة اللذَين انضما إلينا في مؤخرة الركب، بينما هو في المقدمة، وبين فترة وأخرى ينادي المرشد فيردان عليه، الدليل على أن كل شيء تمام والأمور على ما يرام. كان المرشد يحمل حقيبة ثقيلة على ظهره، يظهر منها بعض الدعائم البلاستيكية، وعرفت بعدها أنها تستخدم لتجبير الكسور. وقبل أن نتوغل أشار لوجود بعض أنواع من الثعابين المسالمة، وعلينا ألا نحاول إيذاءها

وعندها لن تقوم بالاقتراب منا. ثعابين مسالمة؛ تعبير جديد بالنسبة لي، جعل سيري في الغابة منتبها لمسار قدمي، ولأي حركة ناعمة بين أوراق الشجر التي تغطي الأرض.
الجبل الذي يحتضن الغابة يرتفع عن الأرض بحوالي ثلاثمائة متر، والقرية التي بدأنا منها مسيرتنا ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ثمانمائة متر، أي عند صعودنا إلى أعلى نقطة في الجبل سيكون ارتفاعنا عن سطح الأرض ألف ومائة متر. مسافة طويلة إلى أعلى، تجعلنا نقترب من السحاب، وهي ليست كلمة مجازية، فعند وصولنا لأعلى الجبل كنا نتحرك وسط مساحات بيضاء هشة تأتي من بين الأشجار، كأننا في حلم تتنفس فيه الطبيعة، عندما وقفنا خارج هذه الكتلة الخضراء ونظرنا إلى مدينة سانتوس التي تظهر عادة من هناك؛ لم نر شيئا سوى تلك المساحة البيضاء تغطي الأفق.
دخلنا الغابة في العاشرة صباحا، النهار واضح والشمس ساطعة، ولكن هذه الشمس لم تقدر على النفاذ إلى الداخل من كثافة الأشجار وطولها وتشابكها الذي يصنع قوقعة صلبة لا يقدر الضوء على المرور منها إلا في بعض المناطق التي تقل فيها الأشجار، وهي نادرة. كنا نسير في ضوء ما قبل الغروب مباشرة، الأشجار منداة، والهواء ثقيل نظرا لتشبعه ببخار الماء. على الأرض بعض البِرَك الصغيرة، فالأمطار متكررة الهطول. اختلاط أوراق الشجر المتساقطة مع المياه جعل خطواتنا على الأرض غير ثابتة. إحساس اللزوجة يحيط بكل شيء، بالأشجار التي تنمو الفطريات الخضراء على جذوعها وسيقانها، كنت أخشى الإمساك بها في لحظات اختلال التوازن، بالأرض الموحلة المليئة بأوراق الشجر. مع أنني كنت أتصبب عرقا، ولكن إحساس البرودة الذي تبثه الغابة لم يفارقني، أنظر إلى قميصي فأجده مبللا ولكني لا أشعر ببرودة على جلدي. أنظر إلى رفقاء الرحلة البرازيليين، فلا أجد آثار العرق عليهم، أنظر إلى سلوى فأجدها مجهدة ولكن الكاميرا التي تحملها والمشاهد التي تفاجأ بها جعلا العرق يتوارى قليلا. حتى البنطلون الجينز الأزرق تسربت إليه المياه، كأني أستحم من الداخل. مرافقتنا التي لها جذور يابانية أبدت دهشتها من المياه التي أغوص فيها، نظرت إليَّ نظرة دهشة وأعطتني منديلا ورقيا، ماذا يفعل منديل ورقي وسط تلك القوقعة المائية التي دخلت فيها؟ ربما كان من الأجدى أن أخلع ملابسي كلها وأسير عاريا كالإنسان الأول، عندها لن يكون للعرق دليل على جسمي. أخرج زجاجة المياه من الشنطة وأتناول جرعة سريعة، صوت تنفسي بدأت أسمعه يتضخم داخلي، كنا في طريق صاعد، طرق ضيقة ووعرة مليئة بالمياه والأحجار والزلط المدبب والعوائق والأشجار الساقطة. كنا في غابة عمرها ٣ ملايين سنة منذ عهد الديناصورات، هكذا قال لنا المرشد، ليست نفس الأشجار ولكن نفس المكان، وفكرة السير داخلها فكرة حديثة، فالغابة كانت مكتفية بذاتها، تربي نفسها من الداخل. صارت هناك قوقعة أخرى من صوت تنفسي المتصاعد، لم أجرؤ على طلب التوقف، فليتوقف قلبي ولا أتوقف وسط هذه المسيرة المدهشة.
نبيل وصديقته إلينا كانا دائما في مؤخرة الركب، كانا قد تعرفا على بعضهما البعض منذ مدة وجيزة، لذا كانت رحلة الغابة رحلة من أجل توطيد الروابط، وقد كان: قُبلة خفيفة هنا، ضحكة هناك، وأحيانا السير متخاصرَين. نبيل وإلينا كانا في نزهة وسط هذه الأحراش، لم ينقطع غناء نبيل الساخر، لعدوية وأم كلثوم وفيروز وعبد الحليم حافظ، وإلينا تغني معه أغنية عدوية «هو فاكرنا إيه... إيه، مش ماليين عينيه». خبرتها بالرقص الشرقي ربطتها بالأغاني العربية ولم أستغرب أنها تعرف عمرو دياب وحكيم جيدا. إلينا تتعامل مع الغابة بمرح مثل شخصيتها تماما، وربما حبها لنبيل يرجع لهذا السبب، لمرحه، في الغابة والقطار والطريق، ضحك متواصل. كانت

أقلنا احتياطا للغابة في ملبسها، فانلة من غير أكمام ومفتوحة الصدر، وبنطلون لغاية الركبة، وشبشب جلدي في غاية البساطة، رغم هذا لم تتذمر من أي شيء، وكلما غاصت قدماها في بِركة موحلة بالطين، كانت تضعهما في أي مجرى مائي ثم تعاود السير مرة أخرى.أما مارسيل صديقة خالد فقد كانت أكثر جدية، ولأنها مهتمة بالبيئة فقد كانت تحتل مقدمة الركب، وراء المرشد مباشرة، وكل فترة وأخرى كان المرشد يخرج كاميرته الديجيتال ليأخذ صورة إما لعنكبوت وإما لأحد النباتات النادرة أو لإحدى الحشرات. بعد أن يأخذ الصورة يعرضها أولا على مارسيل لأنها تلميذته النجيبة، ثم يعرضها علينا بعدها. وأحيانا كانت مارسيل تستاء من تأخر نبيل وإلينا في السير وتأخيرهما للمجموعة ككل. كانت تتبادل نظرات استياء مكتومة مع المرشد. أما خالد فقد كان يسير بجواري أو ورائي في الطابور، وعينه على حركتي بعد أن لاحظ التعب الذي أحل بي وبخطواتي، كان يخشى أن تنزلق قدماي في الجرف الممتد على يميننا أو يسارنا، وكلما تأخر عن صديقته مارسيل كنت أسمع كلمتها العربية الوحيدة التي حفظتها من أجل خالد: «هبيبي»، تقصد حبيبي.

ما زالت المسيرة مستمرة، لم أعد أكترث بالمياه التي تغوص فيها قدماي، ولا بالأشجار التي أخذت فروعها تحوطني من كل جانب تاركة بعض الخربشات على وجهي ويدي، المهم أن نستمر، انتابتني حالة فائقة من النشاط سببها هذا السير المنهك لمدة ثلاث ساعات حتى الآن، اكتسب الجسم آلية في حركته، حتى إن ركبتيَّ عندما تقفان عن الحركة، أشعر بالآلام فيهما. أعتقد أن الجزء الذي كان متعبا، ليس هو جسمي، بل عقلي، تلك الصور الجديدة عليه، تلك المفاجأة غير المتوقعة. الجسم يشكو، وشكواه أن يتوقف، ولكنه لم يتوقف دليلا على أن التعب لم ينل منه بعد. أما الذهن فشكواه مختلفة، إنه يبث الرعب في الجسم، يوسوس له بالخذلان والتراجع. أنظر لسلوى فأجدها متماسكة، ولكنها بدأت في الشكوى لي من أن جسدها على وشك الاستسلام، كنت أعرف مدى فرحها بما تراه، وهذه الشكوى هي عتبة لهذا الفرح.

كنا نصارع الوقت، أو بمعنى أدق كنا نصارع حلول الظلام. كانت الساعة الواحدة ظهرا، وما تبقى يحتاج لثلاث أو أربع ساعات إضافية بدون أي معوقات تطرأ في الطريق. هذا هو البندول الذي كان يدفع المرشد لعدم التوقف، برغم إحساسه بحالتنا. كاد يتحول في نظري إلى أحد الدكتاتوريين الصغار، الذي يملك وحده مفتاح راحتنا. طردت هذا الإحساس سريعا وعدت إلى انضباطي المرح، فليحدث ما يحدث. كانت النقطة التي نريد بلوغها هي الشلال الذي يقع في وسط الغابة، المزار الذي يجب الوصول إليه، وبدونه تصبح رحلتنا ناقصة. من الصعب أن أحفظ خريطة الغابة، حاولت جاهدا أن أضع علامات في طريقنا لأعرف هل نعود لنفس النقطة أم أننا نسير في خطوط مستقيمة لا تتلاقى. شعرت أننا في مكان بلا حدود، بالرغم من أن الجبل يحوطنا، وهو نقطة التماس والنجاة لو فقدنا طريقنا، إلا أن الجبل تذوب حدوده في ذاكرتنا، ويصبح المكان هو العالم، وليس هناك أي شيء بالخارج.

طريق الحشرة السوداء

الشلال هو القلب النابض لهذه الغابة، ذروة الرحلة، لا تعرف من أي مكان تنبع المياه. لم أسأل ولن أحتاج لإجابة، حتى ولو لم توجد أي مصادر للمياه من حولنا، فسوف أصدق بذاتية وجوده، بدون أي تفسير. يبلغ عرضه تقريبا ستة أمتار، وارتفاعه حوالي ثلاثة أمتار، لذا فكلمة الشلال كلمة مجازية، هو أي مكان تندفع من فوقه المياه. رأيت شلالا مشابها في وادي الريان بالفيوم، هو المزار الرئيسي في تلك البقعة الصحراوية. ولكن عندما شاهدت الشلال نفسه في فيلم «المصير»

ليوسف شاهين، لم أصدق أن الكاميرا حولته إلى شلال كبير. عين الكاميرا اقتربت أكثر من المجاز، مثلما أحسسنا نحن أمام شلال الغابة، رأيته كما تخيلته وليس كما أراه في الواقع. جلسنا أمامه، وهنا كانت لحظة الراحة لنا جميعا، حوالي نصف ساعة نشاهد المياه، كل منا أخرج الطعام الخفيف الذي يحمله في حقيبته. تدفق المياه ولَّد فينا جميعا الرغبة في التبول، انسللنا واحدا تلو الآخر إلى مكان قصي لنفرغ مثاناتنا الخانقة.
الشلال كان أيضا دواء شافيا من هستيريا كادت أن تصيبنا جميعا. فقبل أن نصل إليه مررنا على أعشاش أحد أنواع الحشرات التي تسكن الغابة. حشرة سوداء تلتصق بالجسم بمجرد اقترابه منها، كأنها تحن لجلد بشري.
يبدو أن شجرة قديمة قد سقطت في طريقنا وكانت تحمل أعشاشا لهذه الحشرة بداخلها المجوف، فبمجرد أن عبرنا بمنطقتها حتى سمعنا طنينا حادا، لم نر شيئا، سوى أن مئات، بل آلاف من هذه الحشرات تسللت إلى أجسامنا، تحت الملابس وفوقها، حتى وصلت إلى فروة الرأس. بحركة تلقائية أخذ كل منا يضرب نفسه في كل اتجاه، سواء بيده أو بأي ملابس كان يحملها. كان خوفي أن تكون هذه الحشرات سامة، ومعناه ألا فائدة من المقاومة، فلا يوجد مكان لم تصل إليه. جرى إلينا المرشد وطمأننا بأنها غير سامة ولا تسبب أي نوع من الحساسية الجلدية. هذا جزء من الموضوع، ولكن أحسست بفروة رأسي وكأنها تفور، كلما وضعت يدي داخلها أخرجت حشرة ميتة، طلبت سلوى مني المساعدة، فقد استوطنت عائلات من هذه الحشرة داخل شعرها، استغربت كيف تصل بسرعة إلى هذا العمق. إلينا ومارسيل والرفيقة الثالثة، جميعهن ركزن مجهودهن على شعورهن، أما نبيل فمشكلته كانت في تنظيف ملابسه، أما من جهة رأسه فلم تجد الحشرات شعرا لتختبئ فيه. خالد الذي تعامل مع الأمر في البداية، كما يتعامل في كل شيء، بهدوء وشياكة، لم يصمد مع تلك الهستيريا التي أصابتنا. بعد خروجنا من هذه المحنة صادفنا ثلاثة شبان يرتدون ملابس سوداء، نائمين على الأرض ولا يُبدون أي اكتراث بما يجري حولهم، كأنهم ينتمون لعالم آخر، وأننا دخلاء على عالمهم هذا. للمرة الثانية ينتابني إحساس بخلع ملابسي والتعري من كل شيء والعَدْو في الغابة، والارتماء في أول بركة مياه تصادفني، ربما كان شعورنا جميعا، لذا عندما جلسنا أمام الشلال، كنا نغتسل من الهستيريا الجماعية التي أصابتنا. في قطار العودة كان كل منا يتتبع بقايا هذه الحشرة بين طيات ملابسه، أو يتتبع آثار الوهم الذي خلفه هذا الهجوم. في الفندق أمام الدش كانت آخر واحدة تسقط، وتجري مع المياه إلى البالوعة.
طريق واحد للذهاب إلى الشلال والعودة منه. هكذا ألمح المرشد، معنى هذا أننا سوف نمر مرة أخرى من طريق الحشرة السوداء. هذه المرة أخذنا حذرنا، كل منا غطى كل جزء من جسمه بما يحمله من ملابس، حتى وجوهنا لم يظهر منها سوى العينين. أخرج المرشد بالطو أصفر طويلًا، تركناه لإلينا فقد كانت أكثرنا تعرضا للهجوم، فالمساحات المكشوفة من جسمها كانت تغري أي حشرة بالاقتراب والاستيطان. في العودة مررنا بخسائر أقل، بعض الطنين، والقليل من الحشرات التي علقت بملابسنا، كنا نضحك أثناء عبورنا، الضحك الجماعي حوَّل هستيريا الخوف إلى هستيريا مرحة. أيضا صادفنا في طريق عودتنا هؤلاء الشبان الثلاثة في نفس حالة اضطجاعهم على أرض الغابة المبللة وانفصالهم عما حولهم، انتابني شعور أنهم وراء كل ما يحدث لنا.
الغابة بناء إلى الداخل، ليس مفتوحا على الخارج كالصحراء، إحساس جنيني يشملك وأنت داخلها، العبور وسط الممرات الدقيقة، وسط هذا التشابك اللحمي والعضوي بين أشجارها. الغابة عشوائية في بنيانها، صنعتها بذور قادمة من شتى أرجاء الأرض، وهنا كانت الأرض الكونية لنموها.

التعدد داخل الغابة يشعرك أنها مكتفية بنفسها، لا تحتاج إنسانا لكي تثبت جدارتها بالحياة، لا تحتاج لتأويل، الغابة تقوي نفسها من الداخل، وكلما قل الفراغ داخلها، وقل الضوء الواصل إلى أعماقها، وانتشر الظلام؛ تحققت فكرتها عن نفسها. الغابة بدائية في بنيانها، تتلمس ماديتها في كل شيء، وتردك إلى مادية كامنة في عمق وجودك، كأنك داخلها في لحظة ميلاد عضوي، كأنك لم تخلق بعد ومازلت في طور بدائي من أطوار الإنسان. أما الصحراء فتحتاج لتأويل، لإنسان يرد عنها هذه الوحشة، فلن تشعر بها إلا لو تمثلتها، حتى تمنحها الحياة وتؤنسها.

لم ينتهِ الحلم بعد، فعند عودتنا إلى القرية، كان الضباب يغطي كل شيء، شباب بشعور طويلة وضفائر يحتسون البيرة، يقفون بجوار جدار من الأسلاك الشائكة، كل عدة خطوات نفاجأ بمجموعة جديدة، عائلة تسرع الخطى وهي آتية من فوق الجسر الذي يلفه الضباب أيضا، كل شيء متقطع ولا يظهر كله، جزء من المشهد تحجبه الطبيعة الضبابية، شيء غير مكشوف، لا توجد حكاية من أولها لآخرها، هناك فراغات في الزمن وفي المكان، وهناك إمكانية للتحول، هكذا تُجلب أجواء الستينيات كحلم، حلم يهيم فيه البشر. «أجواء الهيبز» في الستينيات تعاد مرة أخرى، هكذا علقت سلوى على المشهد.

قطار الأقاليم

كما يحدث في مصر، وخاصة في قطارات الأقاليم التي تزدحم بالباعة الذين يقفزون عند مداخل المحطات ثم يهبطون عند تحرك القطارات؛ نفس الشيء حدث بالقطار الذي أخذناه في طريق عودتنا من رحلة الغابة إلى ساوباولو. كنا منهكين تماما وارتمى كل منا على مقعد لينام، غفوت قليلا لأستيقظ نصف استيقاظ على صوت ضحك بين نبيل وإلينا. كان القطار قد توقف في إحدى المحطات، بدأت الضوضاء في التصاعد، ولكنها لم تغير من غفوتي شيئا لكوني لا أعرف اللغة البرتغالية التي يتكلمها أهل البلد، كان جهلي بها بمثابة الستارة التي تحفظ العتمة لنائم الظهيرة. لحظات وبدأ سيل من الباعة المتجولين يصعدون إلى القطار، كل ما يخطر على بالك، بائعو البيرة، والشوكولاتة واللبان والعصائر. بدأت في تمييز صوت منتظم في نبرته، وكذلك صوت بكاء طفل لم ينقطع لمدة تزيد على عشر دقائق. ربطت بين نبرة الصوت وبكاء الطفل. انتبهت لصاحب الصوت، كان شابا في العشرينيات استغل توقف القطار في المحطة وأخذ يسرد عظاته التي يقوم بتمثيلها أمام الركاب. ذهابا وإيابا داخل العربة، لا يتوقف ويجد كلاما مشحونا بإيمانه لمدة ساعة ونصف الساعة بدون مبالغة. عرفت أنه من طائفة بروتستانتية تقوم بالتبشير في البرازيل، ولأن حرية الأديان مكفولة، فللجميع الحق في التعبير عن معتقداتهم ونشرها وسط الناس. كان الشاب يرتدي بذلة رمادية كاملة مخططة بخيوط رفيعة وحذاءً لامعا مدببا. يبدو أن هذه الملابس الجديدة هي ملابس العمل في القطارات، فقد كان هناك زميل للشاب يقف على مبعدة منه ويرتدي نفس الملابس، ربما ليتدخل في الوقت المناسب لو احتاج الأمر. الشاب يتقاضى أجرًا من الكنيسة على عظاته. تلعب الكنيسة دورا هاما في الحياة العامة في البرازيل، فهناك جامعة تقوم بالصرف عليها، وتعتبر ثاني جامعة من حيث الأهمية، في ساوباولو، بعد الجامعة الحكومية، وغالبا ما تأتي الأموال من تبرعات الأهالي التي تقدم للكنيسة. ولكن بشكل عام هناك تدين مرح، فتعدد الجنسيات والأديان يملي عليهم أخذ الأمور بهدوء حتى لا تفسد هذه الكعكة الذهبية من الجنسيات والأديان.

أي سلطة يمتلكها هذا الشاب ليظل صوته مرتفعا لمدة ساعة ونصف الساعة في وسيلة مواصلات عامة؟ أليس هذا يمثل تعديا على حقوق الآخرين؟ ذكرني هذا الأداء بالرجال الملتحين الذين يقفون

عند إشارات المرور وفي يد كل منهم دفتر للتبرعات، وفي اليد الأخرى مكروفون صغير يحض الناس على التبرع. مرت فترة من الوقت وبدأ التذمر يظهر على وجوه الناس، بينما الشاب الواعظ يقوم برسالته على أكمل وجه، لم يتأثر أو يتحرك له جفن من مشاعر الاستياء. ربما كان يتمثل السيد المسيح والناس تنصرف عنه ولا يستمعون لكلامه الذي يهديهم إلى الله. ترجم لي خالد بعض ما يقوله الشاب: كيف تبحث عن السلام الداخلي، بينما ترفض كل من يدق بابك طالبا للمساعدة؟ عند هذه الكلمة كان الشاب يقوم بتوجيه عدة ضربات قوية على باب القطار.

هل يحتاج السلام الداخلي إلى كل هذا الوعظ الجاف والخالي من المشاعر لكي يحتذي به الناس؟ جارنا في المقعد المجاور قام بمد قدميه في الممر الذي يسير فيه الشاب من أجل أن يعرقله. فطن الشاب للحيلة وتفادى القدم الممدودة. فعل نبيل نفس الشيء ومد قدمه أزيد من قدم الرجل، وتفادى الشاب أيضا ذلك الفخ المنصوب في طريقه. بدأ نبيل في إثارة الناس ضده، وبدأ يعلق على كلامه بالضحك، وتفاعل الركاب مع تلك الضحكات، وصارت العربة بكاملها تضحك على كلام الشاب، بل وتشوشر عليه. ابتسم الشاب ابتسامة خفيفة ولكنه لم يوجهها لأحد، حتى لا تفسد لعبته في التأثير. جارنا بدأ في إصدار أصوات استنكار من فمه، تشبه استهزاء الشخرة السكندرية، والشاب سادر في وعظه، ربما تذكر استهزاء الناس من كلام السيد المسيح، فتظهر له علامة من علامات النبوة، ألا وهي تحمُّل العذاب. هل هذه الدرجة من التطابق الديني ما زالت موجودة هنا في البرازيل؟ أم أن الشاب يؤدي دورا يتقاضى عليه أجرا؟ ربما كلما زاد عدد المؤمنين بطائفته البروتستانتية، زاد أجره الذي يتقاضاه. بدأ القطار في التحرك بعد ساعة ونصف الساعة من المسرحية. نزل الشاب من القطار إلى قطار آخر يعيد فيه نفس ما قاله بحذافيره في قطارنا، فمن أين سيأتي بحرارة يشحن بها كلماته وهو حتى لم يستجب لرأي الناس فيه، ولم ينسحب بهدوء إلى الكواليس. بقيت آثار لضحكات في عربة القطار، ومع الوقت اختفى هذا الجو الجماعي المرح الذي سببه الواعظ الشاب، وعدنا مرة أخرى إلى النوم.

عصر الدكتاتوريات

تسنى لي أن ألتقي بمجموعة من الفنانين والكُتاب من عدد من أقطار أمريكا اللاتينية: من البرازيل، كولومبيا، شيلي، الأرجنتين، تركيا، إيران، وبولندا في ندوة نظمتها مجلة «الدوكومنتا» الألمانية واستضافها معهد جوته بساوباولو، وكانت تدور حول مدى تقبل المجتمعات لفكرة الحداثة. خلال الحوارات التي دارت بيننا تشعر بأن كلمة أمريكا اللاتينية تمثل قارة كاملة، وأن هناك تمايزات وفروقا سياسية واقتصادية واجتماعية بين بلد وآخر. ولكن على الطرف الآخر هناك منبع ثقافي وحضاري واحد ينظر إليه الجميع، يجعل كاتبا كبيرا مثل «جارسيا ماركيز» يخرج من بلد صغير مثل كولومبيا، فداخل هذا البلد الصغير هناك تمثُّل لروح قارة بأكملها، لعبة الأواني المستطرقة للأفكار والعادات واستجابات النفس.

ربما هذا النبع الحضاري المشترك يتمثل في أن هذه البلاد جميعها مكتشَفة من طرف مستعمر أجنبي، سواء كان برتغاليا كالبرازيل، أو إسبانيًّا كباقي دول أمريكا اللاتينية. هذا الصدام بينهم كثقافة أصلية وبين مستعمريهم، سمح بتعين واسع المدى لثقافتهم الأسطورية العادية، بالقياس بالثقافة الوافدة العلمية إلى حد ما. أصبحت هذه البلاد تملك حسا مركبا بنفسها. وكذلك هناك مرجع حديث يجمع بينهم، وهو عصرالدكتاتوريات العسكرية التي عاشتها هذه الشعوب في القرن العشرين. سواء كان هذا الحكم يساريا كما حدث في شيلي، أو يمينيا كباقي البلاد. هذا العصر خلف وراءه أحاسيس مشتركة في التعبير والرفض، وعمق الإحساس بالألم. خلق استجابات عميقة

وفريدة لفكرة حرية الفرد شديدة الصلة بحرية المجتمع، وهو شيء يخصهم وحدهم بعيدا عن الحضارة الأوربية.
هناك اتفاق عام بأن عصر الدكتاتوريات خلف ندوبا وجروحا لا تندمل، ولا يراد لها أن تندمل، كما قالت إحدى المثقفات هناك، فالحفاظ على الندب، كأثر لجرح قديم، كالحفاظ على شيء مقدس، ليذكرك بفترة لا يمكن نسيانها. لتكون هذه الندبة وسيلة للوعي بالوجود الشخصي، عن طريق الهشاشة أو الضعف يمكن اكتشاف وإصلاح مسار الذات. فهذا المستودع الكبير للألم والقهر يجب أن يستثمر من أجل المستقبل. فهناك تاريخ غير قابل للتطهير وهو مرافق لتاريخ أي جمال هنا. الجمال هنا مسيس بشكل ما.

في الطريق إلى سانتوس

الطريق إلى مدينة سانتوس، وهي الميناء الهام هناك، والتي تبعد عن ساوباولو قرابة ساعة بالأتوبيس، كان مفاجأة جميلة. ولأننا أخذنا أتوبيس السادسة والنصف صباحا، لم أنم جيدا وتركت تلك الغفوة للوقت الذي سأقضيه في الأتوبيس. اللون الأخضر في كل مكان بلا أدنى مبالغة، على الجبال والصخور وفي الوديان التي نخترقها، كنا على ارتفاع ثمانمائة متر من سطح البحر، نسير وسط السحاب. كنت أغفل قليلا، ثم أستيقظ ولا أعرف بالضبط هل أنا ما زلت نائما. لم أعد أفرق بين ما أشاهده في حلمي القصير، وهي عادتي أن أحلامي سريعة التكوين في المواصلات العامة، وبين ما أشاهده في الخارج. ندخل في سحابة بيضاء ثم نخرج منها إلى أخرى. نسير فوق كبارٍ تخترق وديانًا لا نرى الأرض فيها، وعلى مرمى البصر كوبري آخر كخط متقطع وسط السحاب تسير عليه عربات. حياة عالية، تولِّد في نفس أي إنسان حلما كبيرا، حلم الطبيعة أكثر صلابة من حلم الإنسان، لسبب بسيط، أنه واقعي ومادي ومرئي وقديم، أما حلم الإنسان فيحتاج لإرادة فولاذية كي يتحقق ويتسامى كالبخار، ولكنه حلم لا غنى عنه.
اللون الأبيض ربما سبب لي بعض الخوف في هذا الصباح، من كثرة تكراره وكثافته، تشعر أنك قزم أمام طبيعة مسنة موغلة في القِدم، وأن هذا النفق الأبيض الطويل الذي تعبر فيه، هو نفق لا نهاية له، يتصل من ناحية أخرى بهذا الزمن القديم ذي اللون الواحد.
صعدنا أعلى الجبل في سانتوس بواسطة عربة خشبية تسير على قضبان وتشدها سيور من أعلى، وهناك كانت تقبع كنيسة قديمة، غالبا الأماكن المقدسة ما تختار لنفسها مكانا عاليا تقضي فيه بقية حياة العزلة. ومن هناك تسللنا إلى أسفل عبر حوَارٍ وطرق وشواهد دينية تتخلل الطريق. وعبر بيوت متواضعة يسكنها بسطاء، كان الجو ممطرا، مما أتاح لنا أن نلتمس الدفء على عتبات تلك البيوت ونتبادل حديثا صامتا مع أهلها. مدينة سانتوس تختلف كثيرا عن ساوباولو في إيقاع التحديث وفي قيمة الوقت، فبالرغم من أن اليوم ليس إجازة، فهناك كثيرون من ساكني الجبل يجلسون يشربون البيرة والكاشاسا في الصباح والوقت أمامهم ممتد بلا نهاية.

البوابات الكهربائية

وسط صخب الشارع الذي يعج بالحياة وبالجمال وبالشهوة، تبرز البوابات الحديدية العالية التي تفصل البيوت عن الشارع. قليلة هي البيوت التي لا تتصاعد أمامها بوابة بطاقم حراسة قائم ليل نهار. الحديد يلمع في كل مكان، في النهار وفي أضواء الليل الخافتة، والأسيجة المدببة تشهر أسنتها أمام العابرين، وأنظمة المراقبة الداخلية تلتقط الخيالات المسرعة والمتلكئة. أصبحت البوابات الحديدية سمة لشوارع ساوباولو، وخاصة في الأحياء الغنية، أما في الأحياء الفقيرة فعتبات البيوت جزء من حياة الشارع كما يحدث عندنا في مصر. بوابات حديدية تمنع الداخل عن

الخارج، تخشى قائمة طويلة من المتطفلين. من سطح الفندق في الطابق الخامس عشر كنت أقطن أمام إحدى هذه العمارات المحصنة بالحديد، بدأ المشهد الداخلي للبناية في الظهور، ملاعب وحمامات سباحة وربما سوبر ماركت وسينما، تتحول العمارات إلى شوارع مغلقة على ساكنيها، ويبدو أنها أصبحت حركة الحياة الطبيعية في كل مدن العالم، لم يعد هناك شارع كبير، بل شوارع مغلقة محاطة إما بالبوابات الحديدية وإما بالفقر، هذا الأثر القديم والمقدس الذي لم يَبْلَ. حياة تعيش فقط في الداخل بالشكل الحقيقي أو المجازي، إذًا كيف سيتم التمتع بحصيلة التقدم؟ أليس هذا الاستمتاع يحتاج لعرض كرنفالي كبير تصبح فيه الحياة الداخلية والسرية جزءا من الحياة المكشوفة أمام الناس. بعض هذه البوابات كانت تحمل أسلاكا رفيعة للغاية، تكاد لا تراها، توصل في الليل بمصدر كهربي لتكون جاهزة للانقضاض على الفرائس الهائمة.

ماسحو الأحذية وجامعو القمامة

ليس غريبا أن بيليه أعظم لاعب كرة في تاريخ البرازيل كان ماسحا للأحذية، وليس غريبا كذلك أن رئيس الجمهورية الحالي «دي سيلف» والمعاد انتخابه حديثا لفترة رئاسية جديدة، كان يعمل في بدايات حياته ماسحا للأحذية. يبدو أنها مهنة العظماء في البرازيل، المهنة التي يجب أن يمر من مبسمها الجميع حتى تبتسم لهم الحياة في النهاية. ولكن هذا الزمن القديم الذي كان يسمح بهذا الصعود، هل ما زال حتى الآن مستمرا، أن يخرج بيليه جديد من وسط هؤلاء الفقراء المنتشرين في الشوارع؟ الأمنية الأكبر أصبحت منصبَّة أكثر على لعبة كرة القدم، الدين الجديد المتعصب للشعب البرازيلي بكل فئاته وطبقاته. في كل مكان ستجد مجموعة من الأطفال تلعب الكرة، أرض خضراء أو ترابية، أو وسط الغابات، وذلك الصياح للفرح الجماعي الذي يتخلل اللعبة، وربما ما يعطيها سحرها.

تحولت مهنة ماسح الأحذية إلى أيقونة في مدينة ساوباولو، ربما تخليدا للمشهورين الذين عملوا بها. تجد في وسط العاصمة وفي أهم أحياء البنوك برجولا خشبية دائرية، يتجمع داخلها مجموعة من ماسحي الأحذية ينتظرون الزبائن. وهناك من يسعى وسط المدينة، وهم الغالبية، يتحركون بصناديقهم الخفيفة وسط الناس. أصبحت المهنة بها مسحة من الفن، كل عصر يختار نماذج من العصور السابقة عليه حتى يؤبنها. ملابس ماسح الأحذية الخاصة وكذلك شكل صندوقه، مثل بائع العرقسوس القديم الذي كان يجول في أحيائنا، كل فعل يقوم به كان له طقسية وشكل، صوت الصاجات والأداء الذي يصب به العرقسوس والرغاوي التي تتطاير من الكوب. برغم عدم استساغتي لطعم العرقسوس الذي يشبه الدواء، إلا أن هذه الطقوس كانت تجعله ينزلق مباشرة إلى قلبي دون المرور على لساني. كانت الشوارع هي المتحف المفتوح لكل نشاطات الحياة، أما الآن فبعد غياب هذا الفرد الفنان الصانع الذي كان يتفنن في احترامه لمهنته وإتقانها، لم تعد للشوارع ذكرياتها الفنية، لم تعد لها مفاجآتها أو مصادفاتها التي قد تستوقفك أمام لحظة تاريخية مختلفة.

مهنة حديثة نسبيا أضيفت للسجل الفني لمدينة ساوباولو، وهي مهنة جامعي القمامة. يسيرون بعربة خشبية، يجمعون داخلها كل شيء من نفايات المدينة، علب بلاستيكية، علب سجائر، أخشاب، صفائح، كراتين، زجاجات، بقايا أقمشة، أي شيء يمكن أن يصادفوه في الشارع. ولهم أماكن تمركز في المدينة، عندها تكون لحظات الاستراحة واللقاء فيما بينهم، وعادة ما تكون في الحدائق العامة التي تبعد عن الشوارع الرئيسية. في النهاية تتحول هذه العربة من النفايات إلى عمل فني، أنهم يجمعون خلفهم ألوان المدينة المبهجة. ويتحول كذلك جامع القمامة والعربة التي يدفعها أمامه إلى رمز من رموز المدينة رأيته معروضا في إحدى الصالات الفنية.

هناك أيقونة أخرى ليس لها شاهد أو تمثال سوى في ذاكرة وخيال الناس وعلى ألسنتهم، ذلك الشخص الآخر الذي يعيش هناك في باهيا على المحيط الأطلنطي، حيث ما زالت هناك تعيش بعض القبائل من السكان الأصليين الهنود. تلك المدينة التي لم تتطور وتدخل في إيقاع الحداثة مثل ساوباولو، النموذج الضد، والذي كتب عنه الروائي البرازيلي «جورج أمادو» رائعته «جابرييلا قرنفل وقرفة». ليس «أمادو» فقط بل الروح الروائية البرازيلية والمناخ الروائي والبطل الروائي البرازيلي تكون داخل أزقة باهيا وشوارعها وبيوتها ومحيطها. هناك يعيش ذلك الرجل الكسول الذي لا يعرف قيمة الوقت أو العمل، ويجلس أمام باب بيته طوال النهار يستمتع بالشمس وبثمرة كبيرة من جوز الهند، ولكن داخل قلبه شعلة متقدة. هذا هو النموذج الروائي الذي يعيش في خيال ساكني ساوباولو عن هذا الآخر البعيد. ولكن داخل هذه السخرية من أهالي باهيا هناك عتب من أن الناس في ساوباولو تعمل وتكدح وتدفع ضرائب من أجل هذا الشخص الذي لا يعمل. لا أعرف كيف تكتب رواية عن ساوباولو.

ماسحو الأحذية وبائعو الفشار الليلي وبائعو السوداني وجامعو القمامة، والصناديق والعربات التي يكسبون منها رزقهم؛ جميعهم يشكلون اللحظة الفنية التي ما زالت تتحرك وسط صخب الشارع في ساوباولو، بعد أن انسحبت منه غلالة السحر التي كانت مشهورة به البرازيل ودول أمريكا اللاتينية. والتي كانت تضع الحياة في مستويات متعددة ومتفاوتة في العمق وفي الرؤية. الحلم الاقتصادي نزع هذه الغلالة وأصبح كل شيء واضحا. أصبح الحلم خارج الإنسان بعد أن كان متواريا داخله. ولكن ستظل هذه المجتمعات بها فروق وتفاوتات وفراغات في تكوينها الاجتماعي والفكري والإثني، فالمصادفة والمفاجأة واردتان باستمرار داخل تفاصيل الحياة.

الإسكندرية- ديسمبر ٢٠٠٦

أكتب إليكِ من بلد بعيد
رحلة لمارسيليا

كانت كل علاقتي بمارسيليا، قبل السفر إليها، ترتبط بأخي الذي يكبرني بثماني سنوات، والمسافر في فرنسا منذ سنوات عديدة، وعودته عام ١٩٧٩ على باخرة من مارسيليا للإسكندرية في صحبة عربة بيجو صغيرة، كانت حصيلة عمله في سنوات البداية. ذهبت للميناء، وكانت أول زيارة لي لمكان له علاقة بسفر طويل. وقفت في شرفة المستقبلين، وكما يحدث في الأفلام، فعندما اقتربت السفينة كان هناك جمع من ركابها يقفون على سطحها، وبالفعل قدرت على تمييز أخي وتلويحته لي من وسطهم، وبدوري رفعت المنديل الأبيض الذي رفعه «يحيى» في وداع أبيه في فيلم «حدوتة مصرية» قبل مغادرته ميناء الإسكندرية متجها لدراسة السينما في جامعة باسادينا بولاية كاليفورنيا. تبادلت في الخيال موقعي مع «يحيى» المسافر، وضعت نفسي على المركب وغيرت وجهتها للسفر بدلا من العودة، وأن هذه هي تلويحات الوداع. طبعا في هذا الوقت لم تكن قدمي خطت شبرا واحدا خارج حدود القُطر. ربما هذه العودة وهذه السفينة المسافرة والآتية من مارسيليا قد حملت معها في عودتها، نظرة شغف وغيرة مني لكل المسافرين والغائبين، وتحققت الأمنية بعدها باثنين وعشرين عاما تقريبا.

في مارسيليا هناك دائما وقت لعمل شيء ما

في مارسيليا وجدت هذا الاعتزاز بالذات، الذي تمنحه المدن البحرية، موزعا على عدة مظاهر: الأذرع العارية الموشومة، والعضلات المفتولة، والشوارب الطويلة، والبشرات الخمرية التي نضجت تحت شمس المتوسط. ناحية الميناء والمقاهي التي تحوطه وفي البارات الصغيرة التي تتخلل المدينة شعرت أن هناك نموذجا لا مرئيا للبحَّار المُخاطر الذي يعود من البحر ويشرب حتى الثمالة ويمسح زبد البيرة أسفل شاربه بظهر يده، ثم يدخل في أحد ألعاب القوة: اثنان على طرفَي منضدة واليدان متشابكتان وحولهما جمع يشجع، ترتفع الصيحات، يزداد الضجيج، فالضجيج هو إحدى الوسائل لتأكيد القوة والإحساس بالحياة. ما زالت تلك الألعاب اليدوية البسيطة قائمة حتى الآن في مارسيليا، هي أحد المظاهر المباشرة للقوة الجسدية القديمة التي تعايشت مع البحر، وصارعته.

المصادفة الجغرافية أحاطت مارسيليا بسلسلة من الجبال صنعت حدودا بينها وبين باقي فرنسا، وفي الوقت نفسه جعلت البحر هو المنفذ الوحيد المفتوح أمامها. يحدها من الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال سلسلة جبال سانت فيكتوار التي خلدها «سيزان» في أعماله، أما من ناحية الغرب فيحدها مناطق ساحلية وعرة، ومن الشرق سلسلة جبال سانت بوم. لقد تم استثمار هذه الصدفة الجغرافية عند أحد الذين قابلتهم هناك عندما قال: «أنا مارسيليّ»، وكأن انتماءه لمارسيليا جعله ينظر إليها كجنسية خاصة لا تنتمي لفرنسا بقدر ما تنتمي لهذا البلد الكبير الذي يحده البحر. ربما في كلامه بعض المبالغة ولكنه إحساس موجود في مارسيليا. إنها مكان له خصوصية تاريخية وجغرافية صنعتا له هذه الجنسية المجازية التي يتحدث عنها مُحدِّثي. يخبرنا «بريدراج ماتفيجيفتش» في كتابه الأسطورة «تراتيل متوسطية» الذي يؤرخ فيه أدبيا وجغرافيا وأنثروبولوجيًّا لحضارة البحر المتوسط : «لقد كان سكان السواحل أقل تشبثا بأمتهم مما هو عليه تشبثهم بحاضرتهم»(2). أيضا يكتب في مكان آخر: «تمتلك مظاهر المتوسط دورا تقوم به هي الأخرى، إن خصوصية موقعها وتجانس فضائها، يولدان الانطباع بأنه عالم في ذاته، ومركز العالم: بحر محاط بالأرض، أرض محاطة بالبحر، تبدو الشمس التي تشرق عليه وتضيئه بوفرة وكأنها في السماء من أجله فقط، ولا تنتمي إلا إليه»(3). هذا الانتماء لحضارة المتوسط جعلت من

مارسيليا ميدانا جديدا للتجارب الإنسانية، وأهمها على الإطلاق تجربة الهجرة من كل أصقاع الأرض، بداية من الهجرات الإغريقية القديمة وصولا لآخر الهجرات الحديثة القادمة من جزر القمر، إحدى مستعمرات فرنسا التي تحررت حديثا.

هناك جنسية مجازية أخرى صنعتها الثقافة والتاريخ الحديث عندما يقول آخر: «أنا باريسي»، إذا كانت باريس مرتبطة بكل ما هو ثقافي ومبتكر وأيضا بكل ما هو يسير بسرعة، فإن مارسيليا تبعا لتاريخها ترتبط بكل ما هو حيوي وقريب من الطبيعة والشمس، والنيء، والصراع بكل أشكاله القديمة. هناك طبق من المحار النيء بكافة أنواعه وأشكاله وألوانه، يقدم في أفخم المطاعم وبأغلى الأسعار، تشم فيه رائحة البحر وأعشابه وطحالبه ويوده، ويوضع في طبق كبير، وتبدأ في مضغ هذا اللحم النيء الخارج من أصداف قوية حية لا تسلم لك بسهولة، وتستبسل في المقاومة ورفض موتها. أغلب من قابلتهم هناك عندما علموا بأني سأسافر إلى باريس بعد زيارتي لمارسيليا التي دامت حوالي شهر، كانوا يلقون أمامي الملاحظات: «باريس مختلفة، مدينة لا تنام، الزحام، لا يلتفت أحد للآخر في الشارع، تنفتح بوابات المترو فتندفع أفواج في خطوط مستقيمة إلى الشارع ومنه إلى العمل». أما في مارسيليا فهناك دائما وقت لعمل شيء ما، للنوم في الظهيرة، للجلوس كعائلة في الحديقة والاسترخاء تحت الشمس، للتسكع أمام الفاترينات وللانتقال من بار إلى آخر. الوقت ما زال مخزونا إنسانيا ينفقون منه كلما احتاجوا قبل أن يتحول إلى سلعة نادرة. هناك فراغ، أو شبه ملل، يتخلل التجمعات المنتشرة في الشوارع وفي البارات والحدائق العامة، هناك من لا يعرف كيف يستثمر وقته، ومن يهجم عليه الوقت فيشل قدراته عن الحركة. ولكن هذا الرصيد من الوقت يشعرهم بأنهم أبطأ من الباريسيين. ألمح أحيانا وراء هذه المقارنة إحساسا بالغيرة من التقدم والسرعة اللذَين تعيشهما باريس، أو بمعنى أدق ألمح إحساسا بثقة واعتزاز، مثقوبين، بالمكان الذي يعيشون فيه.

سكن الناس مدينة مارسيليا والمناطق المحيطة بها منذ حوالي ٣٠,٠٠٠ سنة، فقد اكتشفت حفريات حديثة لمساكن من طوب حجري تعود إلى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد تقريبًا بالقرب من محطة السكة الحديد. تأسست المدينة، والتي تعتبر الأقدم في فرنسا، على يد الإغريق عام ٦٠٠ قبل الميلاد تقريبا لتكون ميناء تجاريًّا ومنحوها اسما يونانيا (ماساليا)، التي أصبحت واحدة من أول الموانئ الإغريقية في أوربا الغربية، وفاق عدد سكانها ألف نسمة، وأيضا أولى المستوطنات التي تحولت إلى مدينة في فرنسا(4).

«التعدد» هو الذي صنع روح المدينة، تعدد الجنسيات والأديان والطبقات التاريخية، بداية من الإغريق، الرومان، ثم دخول المسيحية عليها، ثم القوط الغربيين، ثم الفرنجة وغيرها من الصراعات، ولكنها لم تفقد أهميتها كمركز تجاري ومرفأ خاص على المتوسط. هذه الصراعات والتجارب التي كانت تخوضها بمفردها أيضا منحها عصامية واستقلالا عن أي حكومة مركزية في فرنسا، بل ودعاها لأن تتمرد عليها. البحر مرة أخرى يدخل في حياة المدينة، وعبر هذا الممر المائي الكبير جاءت لمارسيليا سفن وغزوات وهجرات من جميع أنحاء العالم. في العالم القديم كان البحر هو الممر التقليدي لمعرفة الآخر وللسيطرة عليه، أو الكسب، بمعنى ما هو «كتاب السفر» الذي يجب أن تقرؤه جيدا، أصبح بشكل ما وسيطا لغويا مشتركا بين عدة لغات.

دخول المياه في صلب تكوين الحضارة الإغريقية جعلها تسافر وتتخذ من البحر رابطا، تعبر من خلاله أفكارها. فقد عبرت البحر ووصلت إلى مارسيليا، وكونت ما يشبه الرابط الذهني أو العقلي الذي يربطها مع أي من مدن المتوسط الأخرى، كالإسكندرية مثلا التي أوجدتها أيضا الحضارة

الإغريقية. نقطة قديمة ولكنها هامة لأنها تدل على وجود بذرة عاقلة ومتفهمة داخل لا وعي المدينتين؛ الإسكندرية ومارسيليا، وكل مدن المتوسط التي وصلتها وربطت فيما بينها الحضارة الإغريقية.
هناك هجرات حديثة وفدت إلى مارسيليا بشكل إرادي كان دافعها السفر والتنقل والبحث عن مكان أفضل للعيش أو لتجربة الحظ في مكان آخر. فقد كانت الموانئ فيما مضى مركزا لإنتاج الثروات. هجرات جاءت من إسبانيا وإيطاليا واليونان وغيرها. وهناك هجرات أخرى وفدت إليها نتيجة لأحد النزاعات السياسية كهجرات الأرمن الذين تفرقوا على سواحل البحر المتوسط. وهناك هجرات تمت بإيحاء من علاقة قديمة مثل علاقة المستعمِر والمستعمَر، من رعايا المستعمرات الفرنسية في حوض البحر المتوسط وإفريقيا. الدول المستعمِرة فرضت علاقة أزلية بالدول المستعمَرة. وبزوال الاستعمار لم تجد الدول المستعمَرة بُدًّا من أن تعيش في كنف المستعمر القديم والمتقدم ماديا وروحيا، بعد أن تحولت أوطانها إلى أوطان طاردة، ماديا وروحيا أيضا.
هذا النوع الأخير من الهجرات حمل معه إحساسا بالظلم وبالدونية، جعلا هناك بترا في العلاقة مع دولة المهجر. العيش من جديد داخل كنف المستعمر القديم عطل النضج المنفرد للهوية، تعقدت المشاعر بين الحب والكراهية تجاه المستعمر القديم. المثال القوي لهذا النوع من العلاقة هو الهجرات الآتية من بلاد المغرب العربي وخاصة الجزائر. الاستعمار الذي ظل فيها ١٣٠ عاما جعل هناك حقبة زمنية طويلة مخصصة فقط للآلام النفسية والبدنية التي سببها. لقد أثَّر في خيال وجينات أكثر من جيل ووضعه في امتحان صعب لقياس إنسانيته، وكرد فعل لما حدث في الماضي. أجيال متوالية من المهاجرين: الجيل الأول، الجيل الثاني، الجيل الثالث، ولكل جيل أزماته الخاصة في مدى دموية الصدام مع دولة المهجر، مدى الفجوة القائمة، مدى الانقسام الذي لا رجعة فيه بين الثقافتين والذي أخرج أعمالا أدبية في غاية الحساسية مثل «ليس على رصيف الأزهار من يجيب» للكاتب الجزائري الذي يكتب بالفرنسية مالك حداد. بطول فترة الاستعمار أصبحت فرنسا مثل الأم المستهترة والتي تفرض أمومتها بالقوة، لذا يجب عليها أن تدفع ثمن استغلالها لهذا الابن المستبعد. صارت فرنسا وطنا لهم ولكنه وطن بينهم وبينه مسافة لن تختفي بسهولة إلا بإعادة تخيل الماضي بدون هذه الثنائية الدامية «مستعمِر/مستعمَر».
في الشوارع الرئيسية والجانبية، على النواصي، في الحدائق العامة، في المقاهي الخلفية، بين فواصل المحلات، شاهدت الكثير من الجزائريين، أغلبهم من الكبار الذين تعدوا الستين، يجلسون في تجمعات دائرية أو في خط مستقيم على أحد المقاعد الخشبية في إحدى الحدائق العامة يملئون فجوات المدينة ونهاراتها المملة. هناك حوارات دائرة بينهم وأحيانا يهيمن الصمت الطويل، فقد قيل الكثير من قبل. الوقت فائض لديهم، فقد جاءوا إلى مارسيليا مبكرا، للخدمة في الجيش أو لرصف الطرق أو هربا من الجزائر، وأصبح لهم معاش ثابت يقبضونه من الحكومة الفرنسية، يرسلون أغلبه للأهل في الجزائر ويعيشون هم على ما تبقى على هامش الحياة التي تدور في الشارع وفي غرف صغيرة باردة في بلزانس ونوى. هذا الجزء الذي يقتطعونه من معاشهم الحكومي، هو استرداد رمزي لما فقدوه في الأسبق، كأنه يعيد قطعة مسافرة من الوطن إلى مكانها الأصلي الذي خرجت منه. مكاتب البريد والبنوك تمتلئ بهؤلاء. لو لم أكن أعرف أني أسير في مارسيليا لظننت أني أسير في بلد عربي به حدائق، وهذه إحدى مفارقات مارسيليا الهامة؛ أن للمدينة عدة أوجه، منها الوجه الجزائري. كنت أشعر بمفارقة عندما أستمع لأحدهم وهو يتكلم بفرنسية منطلقة، لم أركب هذا اللسان مع هذا الجسد،مع هذه الملابس، لا أعرف لماذا، ربما لأن

اللسان الصحراوي يجب ألا يكون فرنسيا؟ لسان فرنسي وقلب صحراوي! وربما هو خطأ في التوقع من قبلي، كوني أبحث عن تجانس شكلي لم يعد موجودا، بينما الأعماق لأي شعب منقسمة، كوني أرى التجانس بحد ذاته مقياسا لشيء جيد. هنا المعادلة مختلفة تماما.

لم يسألني عن جنسيتي

كنت أسير في حي بلزانس، أحد الأحياء التي يعيش بها المهاجرون. صادفت هناك أحد الفناءات المتكونة بين مجموعة من المباني السكنية، كان لها جو لطيف ومنعش في هذه الظهيرة الصيفية الحارة. كان هناك مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة ومجموعة من المحال المغلقة، فقد كان اليوم يصادف أحد الأعياد الدينية. كان هناك رجل يجلس على عتبة أحد هذه المحال ومستندا بظهره على باب المحل المغلق، اقتربت منه وجلست على عتبة محل مجاور مغلق. كان يرتدي بنطالا رماديا متسخا بعض الشيء وجاكيتًا قديما ويلبس حذاء بدون جورب وعيناه زائغتين. بدأت معه الحديث، سألته عن جنسيته قال: جزائري. لم يسألني عن جنسيتي، ربما اطمأن لأني عربي مثله، وكان إحساسه هذا سببا لأن ينسحب الحديث إلى الهوة التي لن تردم بين الغرب والمسلمين. يبدو من مظهره وحالته المعنوية أنه يعمل عملا بسيطا للغاية وعنده وقت فراغ طويل يجعله يغوص أكثر في أعماق بئر حياته وينقب في هويته السائبة.

جاء إلى مارسيليا وهو في الثلاثين من عمره، الآن في الأربعين. عشر سنوات جعلته يعيش داخل هذا الإحساس الضاغط بالضياع والشرود. وهو يكلمني قلما كان ينظر إليَّ، وإنما يوجه عينيه وحديثه لأحد ما أمامه. كان مصابا بالمياه البيضاء في عينه اليسرى القريبة مني وربما لهذا السبب لم يكن يراني جيدا وإنما يسمع صوتي فقط. كان يضع على الأرض بجواره زجاجة مياه معدنية، يشرب منها طوال فترة جلوسه التي تمتد بالساعات، كل ربع ساعة على الأكثر يأخذ رشفة واحدة من الزجاجة، تلك الزجاجة التي لا تنتهي وبمجرد أن تفرغ يقوم بملئها من جديد. أحسست أن عطشه وسواس أكثر منه رغبة في الشرب، أو ربما يكون مصابا بمرض السكري الذي يُشعر المريض بأنه في حاجة دائمة إلى الماء. يأخذ رشفة ثم يبصق بصقة من طرف فمه، شيء كالتنفيس عما يدور في صدره. سألته عن حياته في مارسيليا قال إنها حياة وحيدة فهو لا يعمل كثيرا وفي أوقات الفراغ يجلس في هذا الفناء فهو لا يحب المقاهي أو الجلوس عليها. ثم أشار للأطفال الذين يلعبون بالقرب منا وقال إن هؤلاء الأطفال ليسوا أطفالا لفرنسيين «كلهم أولاد عرب»، كما قال فالفرنسيون لا يتركون أولادهم هكذا في الشارع.

تحدث عن الإسلام الذي تركناه، ربما يقصدنا كعرب أو يقصد المهاجرين أو يقصد نفسه، ولكنه في كل الحالات يتكلم عن هجران جماعي وجذري لمكان نشرب منه الهوية زلالًا. يتحدث عن الإسلام كأنه صديق عاش معه طويلا ثم تركه وحيدا في منتصف الطريق. وحدته الخاصة ويأسه بدآ ينسحبان على كل شيء حوله، كان يتكلم بصوت عميق وخافت، صوت المناجاة والاعتراف بالذنب. ولماذا لا ترجع للجزائر؟ سألته، فأكد أنه سيعود، سيعود لقسنطينة حيث تعيش زوجته وأولاده. قال: «مارسيليا بلد عربي». نعم مارسيليا لها وجوه عديدة أحدها الوجه العربي، ولكنها في النهاية ليست عربية، مزيج متنوع وحاد لا يمنح الطمأنينة بسهولة، هي أعلى من كل جنسية بها، وإلا كان قد استراح هناك وأتى بزوجته وأولاده وضم الطرفين المتباعدين. «سأعود، سأعود»، ثم يسرح ببصره بعيدا، ربما يلامس بخياله عتبة بيته في الجزائر، ويلامس طيف زوجته وأولاده، ثم يأخذ رشفة من الزجاجة، فالرحلة التي قام بها طويلة، وهو يلامس موطن حنينه، ويزداد إحساسه بالعطش كلما جاءت ذكرى الجزائر وصحرائها الواسعة. و أنا أودعه

سألني أخيرا، كنوع من المجاملة ربما، عن جنسيتي فقلت له: «مصري»، قال: «مصر بلد الإسلام». تركته جالسا أمام الأبواب المغلقة وبجانبه زجاجة المياه المعدنية، ربما تخفف هذه المياه حدة العزلة التي يعيشها.

حي «لو بانييه»

ذهبنا لزيارة حي «لو بانييه»، وهو أحد أحياء المهاجرين التي تقع داخل كردون المدينة، القريبة جدا من البحر، وربما كان في الماضي بوابة المدينة أمام المهاجرين. يشبه حي كوم الدكة في الإسكندرية ومقام مثله على ربوة عالية، وله عدة مطالع تحوطه في شكل دائري، ويتماس مع الحي عدة أحياء أخرى ذات مستوى اجتماعي أعلى. فكرة «الربوة» أو «الجبل الصغير» أحد الأفكار الأساسية في نسيج مارسيليا الجغرافي، ربما الطبيعة الجبلية للمدينة هي السبب، شوارع صاعدة وأخرى منحدرة. السير في الشارع مصاحب دائما بالتغير في الإيقاع بين الهبوط والصعود. في الأزمنة القديمة كان الجبل هو إحدى الوسائل للتقرب من السماء، كان رمز الإحساس القدسي، في أعلى قمة جبل أندوم وضعوا تمثال العذراء الحارسة.والآن هذه التلة الصغيرة التي أقيم عليها الحي هي رمز لتآخٍ بين هذا المزيج البشري المعقد من جنسيات وأديان عدة، أفارقة، جزائريين، مغاربة، أرمن، فرنسيين...

البيوت في حي «لو بانييه» لا تزيد على ثلاثة أو أربعة طوابق، قديمة وشديدة الالتصاق ببعضها البعض، وخلال تلك البيوت تتخلق حالة إنسانية حميمة بين فضاءات الحواري المتوازية والمتقاطعة. قليلة هي الشوارع التي ترى آخرها. باستمرار هناك تقاطعات وزوايا مخبأة تحمل مفاجأة. شيء أقرب للمتاهة التي تجتهد لأن تحفظ مسالكها، ولكن كل مرة ولخطأ بسيط لا تدركه قدماك، تفقد الاتجاه. دائما ما ألاحظ أي مدينة من هذه الزاوية، زاوية المتاهة، وأفسرها هكذا، كأني أبحث عن المتاهة، هذا الجزء الجغرافي المفقود من حياتنا. لا أعرف السبب في أن الحواري الضيقة، أو الأشياء الدقيقة والصغيرة بشكل عام، دائما ما تكون مبعث حميمية، ربما لأنها لا تحتاج لجهد مضاعف في الإحاطة بها. وربما لأنها تعطينا نفسها بدون ضغط في الشعور من ناحيتنا. نفس الإحساس الذي أشعر به وأنا في حي كوم الدكة بالإسكندرية. عندما أصعد للحي أحس تماما بالانفصال عن الخريطة التي جئت بها من الأحياء المحيطة به، وشيء من الهدوء في نفسي. أشعر بأني في مكان جديد لا أعرفه، والخطأ الذي ترتكبه قدماي كل مرة في التعرف على مسارات الحي، هو الذي يعطي للحي براءته المتجددة في نفسي.

في زوايا وتقاطعات حي «لو بانييه» ستصادف دوما ظهر امرأة جالسة على عتبة بيتها، ألوانا مبهجة من الملابس. تتكاثر تلك الزوايا الملونة في الحي وتمنحه إحساسا مضاعفا بالثراء، وبالفلكلورية، فهذه الألوان الحية للملابس لا توجد في الأحياء الأخرى المرتفعة نسبيا. على أحد السلالم الداخلية الصاعدة لقمة الحي جلست مجموعة من النساء الآتيات من «جزر القمر»، وهي آخر المستعمرات الفرنسية التي تحررت وبدأت الهجرات منها بداية من عام ١٩٧٣. يجلسن على السلالم المدرجة أمام البيوت وعلى العتبات ومن حولهن الأطفال يلعبون. كن يتسايرن كأنهن يُعدن صورة القرية القديمة التي جئن منها حيث يجلسن في تجمعات أمام البيوت، فالغرف صغيرة والخارج دوما هو الغرفة الكبيرة التي يجتمع فيها الأصدقاء. كان صوتهن منخفضا ولكن له نغمة وإيقاع خاصان، تماما مثل إيقاع اللون في الملابس، به شيء من الطزاجة. وتوزعهن الموسيقى على درجات السلم، كأنك تعبر بنوتة موسيقية صامتة من الأجساد والألوان، بالإضافة إلى الأصوات.

بعض أبواب البيوت التي تتكون من ضلفة واحدة كانت تشبه أبواب القباء القديمة، كتلة صماء من الخشب تصنع حدًّا بين الداخل والخارج، ولكنها في الوقت نفسه كتلة شفافة لا تمنع الأصوات الصادرة من عمق هذه البيوت. أصوات ملاعق وصحون وأغانٍ عربية وإفريقية. هناك جمال أخاذ في هذه الأبواب، ربما الزمن الذي غير الألوان وترك بها شقوقًا وشحوبا من عدد الجنسيات التي علقت أكفها عليه. خلف الشبابيك الحديدية ستلمح المطابخ البسيطة، وربما صور لأحد أفراد العائلة في الموطن الأصلي، وصورة «بوب مارلي» بجانبها، والتي تعتبر إحدى أيقونات الحي، بجانب صوته وأسلوبه في الحياة وتصفيفة شعره، وألوان ديانته المتمثلة في الطاقية وجدائل الشعر المنسدل منها.

ما معنى أن ينشأ حي وله فكرة تقوده مثل الهجرة؟ معنى هذا أن الكثافة التي تتجمع حول هذه الفكرة ستؤكدها أكثر، ستجعل كل من يعيش تحتها يفكر من خلالها. لذا تصبح الهجرة أو الخروج من الوطن أو عدم التواؤم مع الوطن الجديد هي الأدوات والمعاني الجزئية التي تملأ الفكرة الكبيرة، هي الممرات لإقامة علاقة جديدة مع الحياة الجديدة. كأن صدفة الالتقاء مع الحياة على قدم المساواة هي صدفة مستبعدة، فالهجرة حذف لزمن ونقطة جديدة في مسار الحياة. ولكن ربما يكون هذا التعدد والتنوع في الجنسيات هو الذي يعوض قليلا هذا الزمن المحذوف، لا تتحول معها الهجرة لفكرة شخصية تخص شخصا أو بلدا بعينه ولكن تخص إنسانية في وضع مأزوم، إنسانية تريد أن تهاجر وتبحث عن مكان آخر.

إحساس مفقود بالتفوق

لم تعد مارسيليا الميناء الهام، لتَغير أنماط التجارة في المتوسط، بالإضافة لامتلاء المدينة بالمهاجرين. تشعر بانكسار ما، بغياب لزمن كان أفضل ماديا ومعنويا. لذا أي نجاح يتحقق لأحد أبناء مارسيليا يتحول إلى فرح عام. مثلا لأن زين الدين زيدان أحد أبناء مارسيليا، والمولود في حي كاستلان أحد أحياء المهاجرين، يتحول نجاحه إلى عيد قومي، ليس فقط لأنه رمز للتعايش واندماج ونجاح المهاجرين في المجتمع الفرنسي، ولكن لأنه من مارسيليا، صاحبة المرجع القديم في التفوق كميناء ومدينة ذات طابع خاص. نجاحه يبعث الإحساس المفقود بالتفوق، بجانب صوره المنتشرة في الأحياء على الإعلانات الكبيرة، هناك صورة له بحجم كبير مثبتة على إحدى الصخور على البحر مباشرة تستقبل القادمين مع تمثال العذراء الذي يعلوها. زين الدين زيدان والعذراء الحارسة اجتمعا داخل حيز البحر. كذلك حصول لاعب تنس من مارسيليا على بطولة «رولان جاروس»، وأي فوز لفريق كرة القدم بالمدينة «أوليمبيك مارسيليا» على أي فريق آخر، كلها تتحول إلى احتفالات عامة في المقاهي والبارات والمطاعم، وتبعث حسًّا قوميا. هذا الحس القومي جاهز لأن يبرز عند أي إحساس بالتفوق، لأن ما يزكيه هذا التفوق. ما زال هناك التعلق برموز تكمن فيها الطاقة لتبعث زمنا أو إحساسا بالتفوق.

المنارة الذهبية

عندما زار بيرم التونسي مارسيليا في عشرينيات القرن الماضي وكان منفيا من مصر نتيجة لكتاباته السياسية، كتب في مذكراته عن إحدى الكنائس التي سيراها من البحر وهو قادم من الشرق: «كنيستان مهمتان «الكاتيدرال» القائمة على الشاطئ ثم كنيسة «نوتردام» المنصوبة على قمة رابية «أندوم» وتشرف على المدينة كلها ومن أعلاها وقف تمثال العذراء مغشى بالذهب». تمثال العذراء هذا في الكنيسة التي تحمل اسمها «كنيسة العذراء الحارسة»، هو أول شيء سيشاهده بيرم في مارسيليا وهو ما زال في البحر. اللون الذهبي للتمثال مع أشعة الشمس أو مع

أضواء السفن الليلية بمثابة المنارة التي تهدي القادمين من البحر، وأول وجه يقع بصرهم عليه هو وجه العذراء، ربما لتُطَمئن القادمين بوصولهم عبر رحلة البحر الطويلة، وبأنهم بمجرد رؤيتها أصبحوا تحت رعايتها.
داخل كنيسة العذراء كانت هناك العشرات من النماذج المتقنة لمراكب صغيرة معلقة في أحد أسقف الكنيسة. المراكب الصغيرة هي النذور التي تقدم للعذراء من أجل عودة الغائب في البحر، وكذلك هناك على الحوائط آلاف المربعات الرخامية، وعلى كل منها شكر للرب لأنه أعاد فلانا من السفر. أغلب الحوائط مقامة بهذه الابتهالات. كما للبحر علاقة بالهجرة فله علاقة أعمق بغائب ما، بمسافر، بتوقع لعودة، بمفاجأة، وكلها تتعلق بهذا العالم الغيبي واللامرئي الذي يحيط بنا. ربما لهذا السبب أصبح البحر رمزا لاستثارة الحنين أو لزمن ما، وخلف هذا الزمن يظهر هذا المسافر أو الغائب الأبدي. إنها رحلة عوليس الجديدة والقديمة في آن، السفر والغياب ثم العودة. العودة هي التي تربط بين المكانين، ولولاها لانفرط عقد العالم إلى مركز واحد طارد أو جاذب. أيًّا كان دافع السفر، فوراؤه اكتشاف ما، وتعبيد مسار جديد. البحر وثيق الصلة بالإيمان كونه أحد مسارات اكتشاف الذات والعالم. والإيمان البحري يأخذ المركب سلمًا إلى الله. فالمركب هو الرمز الذي يعبر عن شيء جوهري في حياتهم، بل هو مركز الحياة. الصيد والعودة من السفر والانتقال لمكان آخر. إيمان جذري يرتبط مباشرة بالحياة والموت، وليس بأمور الحياة الصغيرة، إما أن يعود الغائب وإما لا يعود.
عندما بحثت عن الصيادين في مارسيليا وجدت بعض قوارب صغيرة منسية، بعض الشِّباك لا تنبعث منها رائحة اليود القوية، بعض بيوت مهجورة لصيادين، لا تشم رائحة المهنة بطول شواطئ الصيد. لم تعد مهنة الصيد في مارسيليا تؤدَّى بنفس تلقائية وشفافية القديمة. اختفى أيضا ذلك الصياد الفقير «إدموند دانتس» بطل رواية «الكونت دي مونت كريستو» لـ«ألكسندر ديماس»، الذي يصيد بالقرب من الشاطئ بمركب صغير ثم يعود في المساء ليرتق شبكته. حلت محله المراكب الكبيرة التي لا تعبأ بصيد الشاطئ وإنما بالأعماق البعيدة. اختفت حكاية الصيد داخل مصانع وشركات ونقابات تدير المهنة. اختفى نوع من العمل اليدوي واختفت معه تفاصيل وحكايات لمجموعة من البشر. ما زالت ضاحية «لامادراج»، التي تبعد نصف ساعة عن مارسيليا، والمشهورة تاريخيا بصيد سمك التونة ذات الزعانف الزرقاء، تحتوي على صيادين يخرجون بالمراكب البسيطة التقليدية التي تعمل بالشراع. أيضا ضاحية «كالي لونج»، حيث البيوت الخشبية للصيادين وممر للمركب الخشبي المرفوع أمام البيت. هناك العشرات من هذه المراكب التي يتوسل صيادوها الله ويضعون له التمائم، وما زالت الحبال مضفرة مع شِباك الصيد، مع سلاسل الحديد الصدئة، التي تربط في القواديم الحديدية للشاطئ، هذه السبيكة الثلاثية التي تمنح المعنى لأرصفة الشواطئ.
في الإسكندرية أيضا جاء أولياء كثيرون واستقروا على شاطئ البحر وعاشوا وعلّموا الناس، وبعد موتهم صارت مقابرهم مزارات أقيمت حولها مساجد، وأنشئت حولها أحياء كاملة كانت بذرتها الأولى حياة هؤلاء الأولياء. تلك العلاقة القديمة التي تربط البحر بالتأمل والتصوف. أبو العباس المرسي (١٢١٩ - ١٢٨٧م)، وابن عطاء الله السكندري، والذي عاش بالإسكندرية ودُفن بالقاهرة، وياقوت العرشي وغيرهم. كلهم أسسوا مدارسهم الصوفية بالقرب من البحر، وكلهم جاءوا الإسكندرية عبر رحلة في البحر. تلك الرحلة الصعبة كانت كافية لكي يعرفوا معنى الحياة

ويزهدوا فيها، لينظروا إلى ما وراء الحياة، إلى العالم الخفي الذي يحوطها، رحلة تطهر وميلاد جديدين. كانوا بشكل ما أحد أوجه رحلة عوليس، ولكن بدون رجعة.

«الطفلة دي بتاعتي أنا...»

أحمد، شاب جزائري مهاجر إلى مارسيليا، في الثلاثينيات من عمره، له وجه صافٍ وقوي. درس الكيمياء الحيوية في الجزائر ثم سافر إلى ألمانيا لمدة خمس سنوات ثم استقر أخيرا في مارسيليا. حكى لي عن صدمة أول يوم وصل فيه مارسيليا، دخلها ليلا عن طريق البحر فرأى كل شيء مظلما للأبد، لأنه جاء ليقيم فرأى كل ما حوله بمقياس الزمن الممتد والمستقبل الذي يحمله. مع الأيام تبدد هذا الظلام شيئا فشيئا، استغل شيئًا في غاية البساطة يمتلكه، وهو ثقته في الله وفي إيمانه الذي يقوم على عنصر أصيل وهو أن يقدم المساعدة للناس بقدر ما يستطيع.

لأحمد قصة حب مأساوية عاشها في الجزائر منذ سنوات طويلة قبل أن يأخذ طريق السفر، ولكنها ما زالت تسيطر على حياته هنا في مارسيليا. أحبَّ فتاة وكان عمره وقتها في السادسة عشرة، أما هي فكانت في الحادية عشرة، حتى قبل أن تنضج فتاته، كأن الحب شيء قدري أشمل من الإحساس الجنسي. كان أبوه يعمل «خضّارًا». بعد عدة سنوات من حبهما تقدم قريب للفتاة لخطبتها، في ذلك الوقت كان أحمد يعمل في دهان البيوت ليساعد عائلته الكبيرة. عندما علم بأن آخر تقدم لخطبة الفتاة ترك العمل وذهب بالملابس الملطخة بالدهان إلى بيت الفتاة وصعد إلى الدور الرابع، حيث تسكن، وطرق الباب بقوة. لم يعط أحمد تفاصيل كثيرة عن الوضع الاجتماعي لفتاته، ولكن يبدو من صعوده للدور الرابع في إحدى العمارات دلالة على الفارق الطبقي بينهما. وهناك دليل آخر على هذا الفارق الطبقي، حبه الشديد للأفلام المصرية التي تتناول هذا الفارق بين المحب ومحبوبته. طرق الباب بقوة، وربما تركت يده التي بها بعض آثار الدهان الذي لم يجف؛ أثرًا على باب شقتها لم يُمحَ بعد ذلك. فتح أبوها الباب. قال له أحمد، مشيرا إلى فتاته التي كانت تقف في صالة البيت: «الطفلة دي بتاعتي أنا». يقصد أن فتاته أصبحت ملكه بقوة الحب الذي يُكنه لها. أعجبتني لفظة «الطفلة» لأنها تشير للزمن الممتد بينهما عندما كانت طفلة وكان هو بمثابة الأب الراعي لها، فعلاقتهما لها جذر أبوي، وفقدانه لها فَقْد لعضو وثيق الصلة بجسمه كعلاقة الأب بابنته. كاد الأب أن يقذفه من الدور الرابع، وقام بطرده من البيت. أشار عليه أصحابه حينئذ بأن يهرب خوفا من انتقام أبيها المتنفذ.

هناك فترات زمنية وتطورات في الحكاية لم يحكها لي أحمد، آثر أن يصمت عنها. المهم أن الفتاة امتنعت عن هذه الخطبة وقاومت بشدة، حتى أصيبت بحالة نفسية حادة. وأشار الناس على أبيها بأن يأخذها إلى طبيب نفسي بباريس. حتى تصل إلى هذه الحالة النفسية المتردية أخذت سنوات كان فيها أحمد مسافرا يحاول أن يرمم حياته المجروحة. في نهاية المطاف جمعهما بلد واحد، هي في باريس وهو في مارسيليا. إذن أين المشكلة؟ لماذا لا يذهب ويتزوجها بعد أن حافظت على حبه لها؟ ألم يفسر وصولها باريس علامة على شيء ما له علاقة بحبه لها؟ كلها أسئلة لا أعرف لها إجابة، ولكن ما قاله إنها قبل انتقالها للعيش في باريس كانت تحدثه تلفونيا من إحدى الكبائن العامة لمدة تزيد على عشرين دقيقة كل أسبوع بما يعني مئات الفرنكات. والشيء الآخر الذي حكاه أنه أرسل لها خطابا في باريس طوله عشرون صفحة كاملة يتمنى لها التوفيق مع من يختاره قلبها. أن يكتب لها خطابا من عشرين صفحة. خطاب أو رواية صغيرة؟ يتخيل نفسه عبر الكتابة أحد الأبطال الدراميين، وأن هذه الأوراق ستضاف يوما ما إلى سجل المحبين الكبار. ارتضى بدور العاشق المضحي من أجل سعادة حبيبته والآخرين، فذاكرته تحمل تفاصيل عديدة عن تضحيته

وتوقيتاتها، عن زوجين ترك لهما غرفته ليعيشا فيها وخرج هو للنوم في عربة، عن...، وعن...، وتفاصيل أخرى تؤكد مدى تطابقه مع فكرة العاشق المضحي، أو البطل الأسطوري الذي ينهزم في الحب ويفوز بصورته عن نفسه. أو يفقد شيئا عزيزا ما تكفيرا عن إحساسه بالبطولة.
لقد آلمني أحمد كثيرا، لم أشك في أي كلمة مما قالها، واحترمت أكثر فترات الصمت التي تخللت حديثه، لقد جعلني قريبا من الحلم الذي يعيش فيه وأيقظ فيَّ إحساس البراءة التي لا ترضى أن تُمس. هل لحلمه هذا علاقة بحياته وإقامته في مارسيليا؟ ربما هذا الحلم، أو هذا الاختلاف الذي يؤسسه لحياته، هو الذي يصنع له عالما خاصا يحميه، وكلما أفرط في التضحية زادت كثافة هذا العالم من حوله، وأي شعور لديه يمر بين طابورَي الشرف النفسي، تبجيلا واحتراما.
كان للقائنا بأحمد قصة، ربما هي الدافع الرئيسي لأن أتتبعه، فقد تعرفت عليه في الشارع وهو يعمل في محل لبيع الخضر والفاكهة. كنا نتسكع بأحد أسواق مارسيليا بحي «نُوَى»، هناك ستجد كل شيء بأسعار أقل من الأحياء الأخرى، لذا يكثر به المهاجرون كبائعين ومشترين. نساء ورجال كل منهم يرعى بضاعة لا تزيد على بضع مئات من الفرنكات، ولكنها كافية له. وهناك دائما مطاردات من الشرطة لهذه التجارة التي تفترش الأرض. أثناء مرورنا بهذا السوق رأيت شابا يقف في مدخل أحد المحال المخصصة للخضر والفاكهة، وفي اللحظة نفسها عبرت سيدة مسنة لها ملامح عربية، بمجرد أن رآها الشاب حتى اقترب منها وطبع قُبلة على جبينها. أثَّرت فيَّ قُبلته الأمومية الحانية. تحدثنا للحظات ثم انصرفَت السيدة وعاد الشاب إلى موقعه في مدخل المحل.
كان هذا الشاب هو أحمد، كل يوم كنت أمر من أمام محله منتظرا تلك المصادفات. حتى تحدثت معه في أحد الأيام وبدأت علاقتنا تتوطد. عندما سألته بعد ذلك عن هذه السيدة التي قبَّلها في جبينها، قال إنها مثل أمه، وهي جزائرية وأول سيدة آوته في مارسيليا، وبددت بعض الظلام الذي شعر به عند أول قدوم له. أتت لتدعوه إلى الغداء معها، بمناسبة «مولد النبي» فهي تعيش بمفردها وتريد أن تحتفل معه بهذه الذكرى. أخبرني كذلك بأنها ستُجري عملية بعد عدة أيام وتريد منه أن يقف بجانبها أثناء إجراء العملية، في تلك اللحظة الفارقة بين الحياة والموت.
لكي يعيش أحمد في مارسيليا صنع لنفسه مكانا آخر داخل المكان الكبير الذي يعيش فيه. صنع عالما شخصيا من الأخلاق والتضحيات والمثاليات لكي تحميه وسط مناخ مختلف إلى حد كبير. وبرغم حدة الصدام المتوقع والمستمر بين عالمه الخاص والعالم الكبير الذي يحوطه، إلا أن هذا يزيده إصرارا على التمسك بخيوط حياته الأساسية. أعتقد أن وجود هذا التناقض بين العالمين يجعل ذات أحمد في اشتباك حقيقي وحيوي، اشتباك في الأعماق حول الوجود والهوية والاستمرار. كل ذات لها شكلها المثالي، ووسائلها للدفاع، لها عالمها الكثيف الذي تطمئن داخله. تناقض أحمد حقيقي لأنه بسيط وعفوي، لأن ثقافته والثقافة الأخرى التي يعيش داخلها ممثلتان داخل تناقضه. كل جزائري أو مهاجر بشكل عام مساهم في حوار خفي وصامت ومدفوع الثمن، من أجل الوصول لصياغة جديدة تقلل الفجوة بين الثقافات، أو تملأ هذه الفجوة بالتجارب الإنسانية الحقيقية، إنها السبيل الوحيد لاستمرار الحوار، بشكله المسئول والفردي، بعد أن غاب القانون الكلي ولم يعد مقرّبا بين الثقافات.

حوائط مارسيليا

عبر حوائط المدينة في مارسيليا في أحيائها الغنية، والأغلبية في أحيائها الفقيرة، هناك دائما كتابات، حكمة، احتجاج، تأملات. الحروف وهي مثبتة على الحائط تعطي إحساسًا بالقِدم، إنسان الكهوف وإنسان المعابد المصرية، عندما كانت الحوائط هي كتابه الأثير. كتابات الحوائط ربما

دافعها رغبة بأن تكتب نصا يقرؤه الجميع، أن تعلن ما بداخلك بوضوح. فليس هناك كاتب أو توقيع. الكاتب مجهول، لأنه لا يعبر عن رغبة شخصية، وإنما يعبر عن قضية عامة. هذه العلاقة الجديدة بين الكاتب والقارئ تحول حوائط المدينة إلى نص طويل، وتحول كل عابر إلى قارئ. تعيد العلاقة القديمة حيث ما بداخل الإنسان موجود خارجه، كأن كل شخص عابر يقرأ نفسه ويتحول إلى كاتب، وربما يضيف على النص المكتوب. شفافية لفكرة الكتابة نفسها، نص مفتوح لعبور دائم، فالسير أمام الحوائط لن يتوقف والوقوف أمام النفس/ الحائط لن يتوقف أيضا.

هذا الشكل من الهجاء الذي وصل للحوائط كان من قبل في عصور قديمة موجها لله. كما كانت هناك رجاءات واسترحامات وتوبات تقدم له لعودة الغائب من الصيد ولاسترحام البحر، كان هناك أيضا الفعل النقيض، وهو قذف وسباب السماء التي أخذت الكثيرين. يبرر الأنثروبولوجي الكرواتي «بريدراج ماتفجيفتش» مؤلف كتاب «تراتيل متوسطية» هذا بأن «سماء المتوسط الشفافة والمشمسة تغري بأن يصل عبرها الهجاء لله، بعكس السماوات المعتمة». هناك اقتناع بأن سماء المتوسط أكثر شفافية وأكثر انفتاحا من سماوات أخرى تساهم في أن يصير التعبير القذفي مباشرا أكثر. لقد كانت الكتابة المقدسة والقوانين القديمة تقضي بعقاب صارم للذنوب والجرائم من هذا النوع، وكان اليهود الورعون يمزقون ثيابهم في حضور أو أولئك الذين يشتمون الله»(5).

طبعا تحولت مسارات الهجاء وتنوعت والهدف منها، بعد أن دخلت عوامل جديدة وتذمرات جديدة في الحياة في مارسيليا كالفقر والهجرات الطويلة، والفوارق الطبقية، والعنصرية، إلى آخرها من المواد الملهبة للجرح القديم. وبدلا من أن توجه لله، صارت توجه أكثر للمجتمع، للمستعمر القديم الذي أخذ دور الله في استقبال النقد.

في مارسيليا قابلت الباحث «جيل سوزان» المتخصص في موسيقى الأحياء. صحبنا في جولة نتتبع فيها تطورات الحي الذي نشأت به عائلته، وأرانا البيت الذي سكن فيه أجداده عند أول قدوم لهم من البرتغال، والمنازل التي فارقوها، والأماكن الجديدة التي حلت محلها. كان يشرح التحول الذي طرأ على مارسيليا من خلال هذا السرد العائلي.

بالإضافة إلى أنه كان يستخدم الرسومات الجرافيتية على الحوائط والعبارات المستخدمة فيها ليشرح علاقتها بنوع الموسيقى المهاجرة التي نشأت في كل حي على حدة. علاقة الاحتجاج بالموسيقى، وجميعها أحياء محتجة بلا منازع. هذه الرسومات والعبارات تعتبر أحد سجلات أرشيف الأحياء لهذه الفنون وللعائلات ولقياس موجات ذبذبات هذه الاحتجاجات. لقد كونت المدينة مجموعة من الهجرات، من إفريقيا وأوربا، وأمريكا اللاتينية، وبدأت تتكون الأحياء حول تجمعات الجنسيات المهاجرة، وانتقالها من حي لآخر مما جعل هناك تداخلًا عابرًا للأحياء في الجنسيات. فأي أثر هناك يعني الأثر العابر الخفيف الذي حملته معها العائلة المهاجرة واحتفظت به طوال رحلتها في البحر. الصور القديمة، عبارات الاحتجاج، التمائم، الصُّلبان الذهبية، المشغولات اليدوية، أدوات التدخين، أدوات المائدة، الساعات الكبيرة، الأقنعة الإفريقية، وكلها تظهر من جديد في سوق الأحد للأشياء القديمة.

لاحظت أن «جيل سوزان» كان متأثرا جدا عند مروره بأحياء الطفولة. للمرة الأولى أرى هذا النوع من التأثر، الحاضر والماضي داخل إحساس الشجن، وليس التأسف أو الكراهية كما لمسته عند كثيرين. وصحبنا بعدها لضاحية إستاك الواقعة أيضا على البحر حيث تتبع تحولات مارسيليا من خلال أطرافها، حيث توقفت عجلة المدينة الصناعية تماما عن الدوران، وسيتم تحويلها لمنطقة سكنية. صعدنا معه جبالًا وسلالم ووقفنا في النهاية أمام حاجز أسلاك شائكة مشبوك به ورود

مصبرة بتأثير التعرض للشمس، وفي البعيد أشار لمصنع أسمنت شهير مغلق. كأننا نقف على حدود وهناك بلاد فقدناها للأبد ندس أصابعنا داخل فجوات أسلاكها الشائكة. وفي نهاية اليوم صحبنا «جيل» لليل مارسيليا وسط أصدقائه الموسيقين، كي نرى الجزء العملي من خريطة الموسيقى في المدينة، من بار لآخر بين كئوس الباستيس، والذي كدت أختنق عندما صببته للمرة الأولى في كوب مثل كوب العصير، ثم أصبحت محترفا هذه الكأس الصغيرة (اشنابس) ألقيه دفعة واحدة في جوفي. لا يقل عن عشرة بارات ليلية تنقلنا فيها، نسمع موسيقى ونشاهد الحياة من مكان مظلم قليلا، وفي إحدى جولاتنا سنتعرف على أمينة وقايد في بار «بلتازار» في حي «كور جوليان». وستكون لي قصة صغيرة مع أمينة.

الذاكرة المبتورة

مارسيليا مدينة عبور، الموطئ الأول للمهاجرين إليها من الخارج أو من المدن المحيطة بها. قد يستقرون، قد يرحلون، لذا لا يعمقون وجودهم داخل المكان، لا يعطون الفرصة لكي تتكون مراكز للذكرى. قد تبتدئ الحكاية هنا، ولكن نهايتها في مكان آخر، في حي آخر، لذا فالحكاية دائما مبتورة. إن الموجات المتتالية من المهاجرين، كل جيل، وكل جنسية تضع طبقة من الذاكرة فوق الطبقات السابقة، أكثر من طبقة وأكثر من ذاكرة للمكان الواحد. كل هذا يخفي نقطة البدء للحكاية. كل جنسية تحمل بداية خاصة بها، وذاكرة خاصة بها. ربما هو السبب في أن الحنين سؤال لم يطرح من الأصل، ربما هناك تفاصيل عن ذكريات ولكنها غير محملة باستعادة هذا الزمن العاطفي للتفاصيل. فالبداية شاقة، ومغتربة وطاردة لما في النفس من مشاعر. الشقاء لا يولد الذكرى، قد يولد النجاح، قد يجذب المشاعر لتخيل المستقبل، وليس تخيل الماضي، ذلك الماضي الذي يتشكل بهناءة العيش الأبدي داخل الجنة. هناك ذاكرة فقدت سخونة الحكاية وأحلامها لأن ماضيها ليس ملكا لها وحدها، بل مشتركا بين ذاكرات عدة. ذاكرة مشتركة بين ذاكرات عدة، لم يعد لها ممثل واحد لها، ولا يمكن أن تتجسد في جسد واحد مجازي.الجميع يشكل ذاكرة الهجرة. كل مجتمع، على حدة، يخطو خطوة بعيدا عن الطفل الأول، المكان الأول، الذاكرة الأولى، المرجع لأي براءة. هناك مكان مفقود، متروك، ولكنه بلا تفاصيل عاطفية. أصبح خارج جسم الخيال واللاوعي.

اليوتوبيا الحزينة

أول ما دخلت سوق الأحد بمارسيليا بضاحية «لاكروت» سمعت صوت القرآن صادرا من أحد الكاسيتات التي ترافق الباعة العرب. نسيت أين أنا، ظهر بقوة وبوضوح الوجه العربي للمدينة الذي يمتلئ به السوق. السوق عبارة عن مساحة واسعة من الأرض في مركزها بناء مستطيل ومغطى وتتوزع خلاله محال ثابتة للخضر والفاكهة والأفران وكل مستلزمات البيت. وهناك محال متغيرة كل أحد، ليست محالا بالمعنى المعروف وإنما نصبات ومناضد وفرشات على الأرض بأبسط الوسائل. أي فرد يمكن أن يأتي السوق ليبيع، أفارقة ومغاربة وأرمن وروس وفرنسيون. السوق مكان انتقال ليس فقط للسلع وإنما أيضا للثقافات. التعدد والتجاور بين السلع والجنسيات المختلفة وسط زحام كثيف يضغط في اتجاه المزيد من القرب فلا تعرف حدود بضاعة فلان عن بضاعة جاره، تتداخل البضائع، ولكن كل بائع يعرف حدود ملكيته. وأحيانا يغيب أحدهم لأمر ما، فيقوم جاره بالبيع، مقدرا سعره الخاص، فالأسعار آخر شيء تراه في السوق، نادرا ما تراها، والبيع يتم بسعر آخر داخل عقل البائع والشاري. الوضع الاقتصادي، الجنسية، كل هذا يتقاطع ليحدد السعر.

كل شيء يمكن أن يتحول إلى بضاعة، الأشياء القديمة، والأشياء الجديدة: ملابس هندية، أقنعة إفريقية، عرائس روسية، طواجن مغربية. سوق عالمي بعدد الجنسيات التي تشترك فيه، حيث تعاد دورة الحياة من جديد للأشياء القديمة، تنتقل من بيت إلى آخر، من يد إلى يد، من قدم إلى قدم. كان هناك رجل عربي يجرب لزوجته حذاء قديما يناسبها، وعندما استقر عليه حمله في يده. البيع والشراء بلا مقدمات ولا ماركات عالمية، بيع من أجل الحاجة ويتم في بساطة. تتفرق آثار الهجرات القديمة في كل البيوت وبين كل الجنسيات، كتبادل الأنخاب في حفل عام.
التعدد يصنع زمنا جديدا، ربما هو الشكل الحديث لليوتوبيا، ولكنها في سوق الأحد يوتوبيا حزينة كلها من الهامشيين. هم محشورون داخل عالم بهذا الشكل لأن هناك فراغا يعيش فيه آخرون غير محشورين. ربما التعدد والتجاور بين البضائع والجنسيات يعيد العالم كوحدة واحدة، حتى ولو كانت هذه اليوتوبيا مقامة داخل هذه الرقعة الصغيرة / الفسيحة من الأرض. كل البلاد تختلق أسواقا من هذا النوع، كأن أحشاء المدينة وبيوتها تأخذ فرصتها لتظهر في النور. كل ما يرتبط بالبسطاء من الناس تجد فيه هذه الشفافية، هذه الحرارة الداخلية للبيوت. نعم كل شيء من أجل البيع والشراء، ولكن البيع والشراء علاقة متدرجة الوضوح. والفصال أيضا قائم لزمن وهو جزء مهم، حتى إنك لا تذهب لمثل هذه الأسواق إلا لتمارس هذه المهنة النزالية القديمة والمغرية، «يكون البيع في أسواق المتوسط أحيانا أقل أهمية من المساومة، حيث تفسح الأعمال المجال لولع التجارة»(6). كرسي، كنبة، كاميرا، مروحة، كاسيت، فازة، كلها خرجت من بيوت لتتجمع هنا، وكل قطعة لها حكاية سابقة، ربما لن تعرف هذه الحكاية، ولكنك ستستشعرها كامنة خلف السلعة.

كراسة الأحلام

كان هو أيضا يبحث عن عالم خاص يعيد له التوازن مع ما حوله. عمل لسنوات طويلة في مسرح الشارع، وهو نوع من المسرح تقدم فيه العروض في الشارع، في المقاهي، في محطات المترو. أي مكان يصلح للعرض، لذا أي جمهور يصلح للفرجة. جمهور غير انتقائي، أي جماعة عابرة تصلح لأن تفجر شرارة التواصل. ربما وراء هذا الاختيار حس سياسي ما ولكنه يمر عبر الفن. من الجيل الذي لحق بحركة الطلبة في ١٩٦٨ في فرنسا. حكى لي عن فترات اضطراب طويلة مرت بحياته، أن يعيش ويتزوج ويكوّن أسرة وبيتا، ليست أشياء مستحيلة، ولكن الصعوبة في أن هذه الأشياء مرت على شخص مختلف يرى في الحياة أحلاما أخرى كثيرة بجانب الزواج. وهو يتحدث معي كنت أشعر بأن وراء كلامه الهادئ أحلاما مكسورة، ليس لأنه تخلى عنها، ولكن ربما لأن هذه الأحلام كانت أكبر مما يجب، ولم يصنعها بمفرده وإنما شاركت فيها أجيال متعاقبة من الشباب والمفكرين والفلاسفة. لذا كان التزامه أمامها مرهقا، وفراره منها مستحيلا، فكيف ستغفر لنفسك؟ وكيف ستقف أمام كل من شاركك هذا الحلم وخذلته؟
له فترات صمت طويلة وابتسامة متفهمة لا تفارقه تعوض حاجز اللغة بيننا. لم أستغرب عندما حكى لي عن الكراسة التي يضعها بجانب سريره، وأول شيء يفعله في الصباح أن يدون حلم الليلة السابقة. كل يوم يطول سجل الأحلام هذا، ثم يعيد قراءته كأنه يقرأ سيرة أحلام شخص آخر. كل يوم يكتشف في هذا الشخص الآخر أشياء تجعله مبهورا أمامه. ولكن الأحلام دائما رمزية، والرمز هو الذي له القدرة على الربط بين عالم النفس الداخلي وعالم الفن، وهو طموحه أن يوثق الصلة بين عالمين ليستعيد بعض الاتساق المفقود.
في الماضي كان يبحث عن اتساقه من خلال حلم سياسي كبير له القدرة على أن يصنع اتساقا، وإن كان وهميا. أما الآن فإنه يبحث عن اتساقه من خلال نفسه، باكتشافه للشخص الآخر الذي يعيش

داخله. أليست كل محاولاتنا في الحياة هي أن نحب شيئا بقوة وبإخلاص، ليصنع لنا هذا الشيء عالما شفافا حولنا، لا يفصلنا عن داخلنا أو خارجنا. وهو يودعني قال: «سنتقابل مرة أخرى»، أحسست بأنه سيظل محفورا في ذاكرتي، وربما يكون قد رآني في أحد أحلامه، وقد تحقق هذا الحلم بلقائي، فأعطاه هذا ثقة في المستقبل، في صدق الاتجاه الذي يسيّر فيه حياته.

«أكتب إليكِ من بلد بعيد»

خلال أي سفر دائما ما يشغل ذاكرتي عنوان قصيدة طويلة للشاعر «هنري ميشو» «أكتب إليكِ من بلد بعيد». يتحدث فيها الشاعر، أو المسافر، إلى أنثى حميمة له أو إلى آخر، يخبرها بما رآه في البلد الآخر الذي سافر إليه. القصيدة لها حس الرسالة، الشكل القديم لتفريغ المشاعر التي يسببها السفر. يبدأ كل فقرة بـ«الحياة هنا» ثم يصف بعض مظاهر الحياة التي يراها. عندما يقول «الحياة هنا» يقفز إلى الذهن مباشرة «الحياة هناك»، حيث تعيش صديقته، وحيث رحل، ولم يعد يربطه ببلده سوى الحب، سوى هذه الصديقة التي يكتب إليها. ما يصفه في هذا «البلد البعيد» هو ما يحس به في بلده ولكنه يراه هنا مختلفا وبعين مختلفة: كالشمس والبحر والشجر، وكل ما هو طبيعي وفطري. تشعر من وراء رسالته هذه أنه كان يبحث عن اتساق يشمل حياته، واتساقه هذا لن يتحقق إلا بالرحلة، المسافة البعيدة التي قطعها جعلته يرى من جديد كل المفقودة في بلده. كلمة «بعيد» لا تشير فقط إلى المسافة وإنما إلى التغير في النظرة التي يرى بها الأشياء، وطبيعة الحياة في المكان الجديد ومدى مفارقتها عن الحياة في بلده. أي رحلة اكتشاف مرتبطة بالبعد والمسافة. وداخل كل رحلة «هنا» و«هناك»، وسيظل التناقض قائما بينهما، وربما الاختلاف هو الذي يولد دائما الرغبة في الاكتشاف، هو الذي يولد الحب. يقول: «في غياب الشمس تعلَّم أن تنضج في الجليد». لقد ترك الشمس «هناك»، وعاش في البلد الذي لن تزوره الشمس حتى ولو ذكرها، البلد البارد الذي سيحول النضج لجهد واعٍ بالذات وإنمائها، حتى من العوامل المضادة لها. ربما المهاجر هو من يُنضِج وجوده في الجليد.

الضوء الأثير

يطول النهار في مارسيليا حتى التاسعة أو العاشرة مساء. كلمة «مساء»، كلمة مجازية، فالليل قصير جدا، الليل بما يحمله في مصر من إحساس حلمي بالحياة وبالنفس وبالأريحية. دورة الضوء تسير مع دورة النفس. بدأ الليل معي هنا مبكرا مع تدريج الليل على روحي التي جئت بها من مصر. ساعة أو ساعتان هما الفرق، بين مصر ومارسيليا، ولكنهما يجعلانك تصل لخط النهاية قبل الآخر الذي يحمل تدريجا آخر. هناك من يشد روحي كي تستطيل مع هذا النهار الطويل. تشربت روحي حيزا أكبر من الضوء المقدر لها، ترى كل شيء بوضوح صارم. العتمة هامة أحيانا لتجول الروح في عالمها الآخر. هناك كتاب اسمه «مدح الظل» للكاتب الياباني «جنشيرو تانيزاكي» يرى فيه أهمية الظل عند الشعب الياباني، وأن الأشياء لا تُرى بوضوح تحت الضوء الساطع، سواء كان هو ضوء النهار أو الضوء الصناعي، وإنما في المنطقة الفاصلة ما بين النور والظلام. لذا كنت أحب مداخل العمارات القديمة في حي «لو بانييه» وسلالمها الحلزونية حيث ينكسر الضوء عبر الزجاج الملون. هذه العتمة عاشت فيها شعوب كثيرة، وتحت ضوئها كتبت أناشيدها ونظرت لنفسها. ربما لم تكتشف كل شيء، لأنها تنتظر الحياة الأخرى التي ستكمل فيها رؤية المتبقي من هذه النفس.

«الكونت دي مونت كريستو»

ويمكن أيضا أن يتحول البحر الواسع إلى سجن كبير، وهو أحد تناقضات البحر، هذا الاتساع العدمي، مثل الصحراء اللانهائية. تتحول المياه إلى حاجز وليس فقط مادة تواصل مع الأرض. وهو ما فعله الروائي «ألكسندر ديماس» عندما اختار قلعة جزيرة «إيف» (التي تؤلف، مع ثلاث جزر أخرى، أرخبيل سان فريول الواقع في خليج مارسيليا) لتكون سجنا «للكونت دي مونت كريستو» بطل روايته. فهذا الفضاء الواسع المملوء بالمياه أصبح فجوة بين السجن وبين الأرض. تحولت المياه إلى سديم وحاجز شديد الكثافة، أشبه بلغة غير مفهومة ولا يمكن فك شفرتها.نفس الفكرة حول المياه تتكرر في حالات أخرى عندما تتحول إلى جسر لاحتلال بلاد أخرى. في هذه الحالات هناك تقييد للحرية، وتحويل تلك اللغة إلى رموز تحمل وجها واحدا كريها، ليس به ذهاب وعودة، ولكنْ ذهاب بلا عودة كالمنفِي تماما.

تحولت قلعة «إيف» بسجنها الشهير إلى مزار سياحي. لقد خلد «ألكسندر ديماس» هذه القلعة، عندما ربطها بمفهوم حرية الإنسان، وكذلك عندما أوجدها داخل البحر. كان من الممكن أن يختار سجنا آخر لبطله البحَّار الفقير، ولكنه في الرواية عزز من قيمة الحرية عندما ربطها بالبحر. يؤكد البحر إحدى الثنائيات الهامة في الحياة «السجن/الحرية»، وثنائية أخرى هي «الموت/الحياة»؛ عندما يهرب البحار من السجن بدخوله في الجوال مكان جثة زميله القس «فاريا» المتوفَّى في السجن. لقد نجح البحار الفقير في اجتياز هذا الحاجز المائي لأنه يعرف البحر أكثر، يعرف رموز تلك اللغة العميقة. ولكن هذا الهروب والنجاح والحصول على الحرية لم يحدث إلا عبر الموت، عبر تقمصه لجثه القس الميت، عبر هذا التقمص حصل «الكونت دي مونت كريستو» على الحياة. يجتمع النقيضان داخل الجوال الملقي في البحر، الجثة الرمزية للقس مع جسد البحار. هذا هو تركيب البحر، الحياة التي تخفي وراءها وجها لا مرئيا للموت. والموت الذي يخفي داخله طرقا للحياة.

غرفة الأصوات المتنقلة

الأصوات هي الشيء المادي الذي سرعان ما يختفي، له مادية سريعة التلاشي، حالة شبحية بين الوجود والاختفاء. في أتوبيسات مارسيليا وخاصة في المساء أثناء عودة الناس من العمل، تسمع حوارات خافتة وبلغات متعددة، فالأتوبيس مكان رمزي لرصد هذا التعدد الصوتي بدرجات إنهاكه. حركة الأتوبيس وصور المدينة تتعاقب، مع تلاشي الصوت، ثم استعادة قوته مرة أخرى، مع شفافية الزجاج الذي يحيط بهذه الأصوات. كل هذا يحيل الأتوبيس إلى أفق شعري، إلى المستقبل. فالصوت لا يحمل لونا أو جنسية وإنما يحمل إيقاعا، والإيقاع له مرونة التواصل والتداخل مع إيقاع آخر من بلد آخر. تتكون الجملة الشعرية من هذه المسافات القديمة التي تفصل هذه الأصوات المهاجرة عن بعضها البعض.

الإيقاع هو الشيء اللامرئي الذي يتوارى وراء الحب والتعب والفرح. أحيانا عدم رؤيتنا للإيقاع الذي يضبط حياتنا شيء هام، يعني هذا أن المستقبل يحمل مفاجأة الرؤية والاكتشاف لهذا الإيقاع. وعلينا أن نرصد ونتحين تلك الحالات الشبحية التي تتراوح ما بين الوجود والاختفاء التي تتخلل حياتنا، حيث تتبدى وللحظات قليلة بعض سمات هذا الإيقاع الوجودي، كعودتي في المساء داخل هذا الأتوبيس الزجاجي الذي يتحول إلى مكان رمزي للتواصل عبر الزمن بين الأصوات المتعددة. مثل وقوفنا أمام أسمائنا عندما ينطقها آخر غريب عنا، أو عندما نرددها نحن على أنفسنا، فنندهش لإيقاع أسمائنا. أحيانا أشك في وجودي، ولا أعرف معناه، أرى نفسي مثل هذا الأتوبيس الزجاجي المتحرك، خليطا من أحاسيس ورغبات وأصوات. ربما تجد الفرصة لتظهر

في المستقبل وربما تختفي تلك الأصوات إلى الأبد. حتى هذا «الأبد» لن أصل إليه ولا أعرفه ولكنه بشكل أو بآخر مشارك بقوة في تشكيل حياتي.

النفوس المزدوجة

كما يحدث في حي «لو بانييه» و «لو فلامان» و غيرهما من أحياء المهاجرين، يمكن لأي مهاجر أن يعيش داخل محيطه من الأهل، قد ينخرط جسديا في المجتمع ولكن تظل روحه تعيش في مكان آخر عائش داخل اللغة. سيتعلم اللغة الجديدة ولكن بتقاليد لغته القديمة. أليست اللغة طريقة للتفكير، فكيف يتم الانتقال من لغة إلى لغة إلا عبر دموية رمزية تبرهن على هذا الانقسام؟ تتجمع هذه الأرواح المهاجرة لتكون جيتوهات نفسية تتخلل المدينة وتحيط بها، هي مركز الضعف الظاهري، ولكنها في الوقت نفسه مصدر القوة. فالتناقضات التي توجدها هذه الجيتوهات تجعل الميزان دائما قلقا، وتعيد من جديد طرح سؤال العدالة. قد تتخلق داخل هذه الجيتوهات النفسية أفكار ضد المجتمع الذي يعيشون فيه، وضد أنساق التفكير في مجتمعاتهم القديمة، قد تتخلق مشاعر الإحباط والانسحاق، ولكن قد تتخلق أيضا مشاعر وأحاسيس إبداعية خلاقة لتلك النفوس المزدوجة، من الهوة التي تنمو داخلهم. عبر هذه النفوس التي تحاول أن تقرب الطرفين المتباعدين تنتج ثقافة جديدة تحوي صدام الأنا والآخر. صدام حقيقي ومرعب، ولكنها طبيعة الصدام، أن يحل تناقضا أو يعمق هذا التناقض بين الأنا والآخر، حتى يصل إلى فهم جديد للثنائية التي تحكم العالم. أعتقد أن وعي المهاجر وعي ثوري بشكل من الأشكال. ربما هو الشكل الجديد للثورة التي لا تعبر عن صدام مباشر مع المجتمع المحيط، وإنما صدام صامت عبر النفس وعبر اللغة.

وجه هندسي للمدينة

هناك وجه هندسي صارم وراء كل هذه العشوائية التي تتخلل حياة المدينة ووقتها الضائع. ففي النهاية نحن في بلد أوربي مهما كانت علاقته بالهجرة. هناك مبانٍ وسلالم عددها يزيد على المائة عند محطة القطار الرئيس في سان شارل تشبه سلالم برج بابل التي تم صنعها لتصل للسماء ليكتشفوا المخبأ فيها. تشبه أيضا السلالم التي انتحر عليها بطل فيلم المخرج الروسي «تاركوفسكي» «الأضحية»؛ بعد أن أشعل في نفسه النار وأخذ يجري على هذه السلالم الكبيرة درجة درجة كأنها مسرح لنهاية الحياة.هناك أيضا المخازن الباردة، ذات الجدران السميكة، حول الميناء والبنايات الضخمة لشركات الملاحة والتجارة، أحجام هائلة من المباني تغطي على بطء الشارع ولهوه، وتكشف الحسابات اليومية للربح وللخسارة التي تتم من وراء ظهر المدينة. وهناك أيضا مبانٍ صلدة راسخة وكنائس العصور الوسطى في شارع كانبيير، المفضي للميناء، وشارع الروبابليك، المتقاطع معه. هذا الحصار الذي يفرضه هذان الشارعان على حي «لوبانييه» المتواضع، وهو جالس مقرفص بينهما في ركن منزوٍ. حتى هذا الحي لم تترك بلدية المدينة الفرصة لأهله البسطاء لكي يفرحوا بمكانه المتميز في واجة المدينة على البحر مباشرة، فقررت تحويله لحي غالي الثمن يسكنه الفنانون وغيرهم من الطبقات المتوسطة والعليا. بدأت في تهجير سكانه المهاجرين مرة أخرى، بعد هجرتهم الأولى، إلى ضواحي المدينة، ربما لأنهم سكنوه بطريق الخطأ لقربه من الميناء عند قدومهم من البحر، في لحظة سائبة قبل أن تتغير رغبات المدينة وفرنسا بأسرها. كان بالنسبة لهم خط الدفاع الأول.

هناك أيضا لعبة الـ«بي تانك» التي تخصص لها ملاعب رملية في الشوارع والحدائق. يلعبونها بكور معدنية مفرغة من الداخل يرمونها بحرفية بقصد الاقتراب من كرة خشبية تسمى «الخنزير الصغير». ويجب على اللاعب أن يقف بقدمين ثابتتين داخل دائرة، وهو يرمي الكرة. اللعبة

مشهورة جدا، ولها جمهور واسع عادة من كبار السن، الذين يضفون حكمة ووقارا وبُطئًا على اللعبة. مثل لعبة الكروكيه التي أجدها عبارة عن فكرة فلسفية أكثر منها لعبة. فليست هناك إثارة إلا لو أسبغ عليها هذا التأمل الطويل والتفكير المصاحب لأي لعبة، قبلها وبعدها؛ هذه الإثارة.
هناك أيضا وجه آخر لعقل مارسيليا متمثل في هذا المبنى الذهني المتقشف في جمالياته ومساحاته،الذي صممه المهندس السويسري الشهير «لوكوربوزييه» (١٨٨٧- ١٠٦٥) الذي كان يستخدم الخرسانة المسلحة في البناء. البيت عبارة عن مدينة مكتفية بنفسها، بناديها وبحمام سباحتها على سطح المبنى بجوار روضة الأطفال، حيث يقضي الأهالي وأطفالهم إجازاتهم هناك، وسط هذا اللون المحايد للخرسانة. وبمطاعمها أيضا، فقد اشتمل المبنى على طابق وسط المحال التجارية، عبارة عن سوق داخلي. وبممراتها المظلمة التي تشعرك بأنك تسير في شارع مظلم إلا من الأنوار الضعيفة التي تضيء أسماء الشقق المتوالية وراء بعضها البعض. تحتوي «وحدة السكن» كما يسميها «لوكوربوزييه» على ٣٣٧ وحدة سكنية يسكنها حوالي ألف وستمائة شخص. استغرق في بنائها ست سنوات ما بين ١٩٤٦- ١٩٥٢. وتراوحت ما بين ٢٣ نموذجا سكنيا تتفاوت سعة النموذج الواحد من غرفة واحدة، إلى ما يسع عائلة تتكون من ثمانية أفراد. لم يقتصر تدخل «لوكوربوزييه» فقط على المساحات الداخلية وطريقة استخدامه المثالية لها، بل امتد لتصميمه الأثاث الداخلي وأدوات المطبخ والآلات الموسيقية مما يتناسب مع التصميم الداخلي للوحدة، من أجل الوصول إلى الكمال والمثالية في كل شيء: المساحة والاستخدام وترشيد الطاقة، فلا مجال لأي خطأ.
حول «وحدة السكن» هناك حدائق خضراء، وهي جزء من فكرته عن العمارة، انتقال الطبيعة بحيث تحوط هذه المدينة. كان مضيفنا أحد سكان هذه المدينة المميزة، وبرغم ضيق الوحدة التي يسكنها والمقسمة على طابقين أعلى وأسفل، إلا أنه كان يفتخر بسكنه في هذا البيت، فالبيت يمثل ما هو أكثر من مساحته، بيت «بإمضاء» «لوكوربوزييه»، يمثل معناه واندراجه في حياة معاصرة، وهذا له ثمنه الكبير. أثناء ساعات مكوثنا في وحدته الخاصة، كنت أتعثر بالأشياء من حولي وأنا أسير، أو أبحث عن المكان الذي أضع عليه حقيبتي، أو خشيتي من أن أكسر هذا الكرسي الفني والملخص في خطوطه والذي يبدو ضعيفا قابلا للكسر بسهولة في نظري، بعكس الوقت الذي قضيناه على براح السطح بجوار حمام السباحة أمام البحر المكشوف وقمم القرميد الحمر لأسطح المدينة. وعندما طلبت من مضيفنا أن يرشدني لمكان التدخين في البيت، نزلنا للطابق السفلي وسرنا في ممر ضيق للغاية ورأيت الحمام في طريقي، لا تدخله إلا بموارية جسدك، وفتح شباكا صغيرا يطل على بلكونة صغيرة في الخارج، ووقفنا مناصفة نسرب دخان السجائر من خلال فتحة ضيقة للغاية.

انقسامات جديدة

كما أن هناك جزائريين عاشوا في فرنسا وتزوجوا وأنجبوا وتعمقت السلالة وأصبح هناك ما يسمى الجيل الأول والثاني والثالث؛ هناك أيضا فرنسيون عاشوا حياتهم في الجزائر وكونوا أجيالا مماثلة. بعد تحرير الجزائر وانفصالها عن فرنسا سنة ١٩٦٢ عاد لفرنسا الفرنسيون الذين أمضوا حياتهم هناك، عاشوا وتزوجوا وتناسلوا، وكونوا أجيالا تعمقت علاقتها بالجزائر. كانوا يرونها بمثابة فرنسا الأخرى. أطلق على هؤلاء العائدين أصحاب «الأقدام السوداء»: نعت لكل أوربي الأصل (وبخاصة الفرنسيون) عاش في الجزائر أثناء فترة الحكم الفرنسي، ورحل عنها عند استقلالها»(7)، أما عن صفة الأقدام السوداء «فالنظريات تُرجع الأمر إلى سواد الأحذية التي كان

يرتديها الجنود الفرنسيون، بالمقارنة مع أقدام الجزائريين الحفاة أصحاب الأرض. وهناك نظرية أخرى تُرجع التسمية إلى وسخ ملابسهم وعصرهم لعناقيد العنب بالأرجل لإنتاج النبيذ»(8).

ربما كان هذا منشأ التسمية ولكنها حملت معها بعض التمييز سواء لهؤلاء الذين عاشوا في الجزائر أو للجزائريين أنفسهم. إنه تعريف عابر يقذف عصفورين بطلقة واحدة. أقدام سوداء تعني أن هناك أقدامًا بيضاء؛ هؤلاء القاطنون هناك ولم يذهبوا للجزائر، ولم يقيموا فيها كل تلك المدة، فالإقامة الطويلة علامة علاقة،وتستوجب الإدانة، كأنهم فقدوا علامة أوربيتهم بهذه الهجرة العكسية الطويلة. وأيضا ليست فقط للتمييز عن الأقدام الحافية للجزائريين كما يقول قاموس أكسفورد، وهو فصل عنصري يعتمد على سمة إنسانية ومكانية وهي اللون.

لماذا استخدام «القدم» في التسمية؟ لماذا لا تكون «اليد» أو «الوجه»؟ ربما لأن القدم هي أول ما تطأ الأرض، هي التي تحمل تراب المكان وتسافر به، وهي التي توثقت علاقتها جدا بالأرض الغريبة التي جاءت منها. هي رمز الارتباط. هل «الأقدام السوداء» مجاز للأقدام التي عاشت في إفريقيا، وهو لون القارة المتعارف عليه باختلاف أجناسها؟ كل هذا جائز ولكن هناك شيئا أكيدا، وهو أن هذه التسمية وُجِدت من طرف ثقافة أعلى لتصف بها ثقافة أدنى. وهنا ينفتح زمن آخر في فرنسا بشكل عام، وفي مارسيليا بشكل خاص بعد الانفصال عن الجزائر. زمن تنقسم فيه الذات الواحدة الفرنسية إلى أنا و آخر، وهذا الآخر في المكان الأدنى لأنه جاء من مكان بعيد. الفكرة العنصرية لا تعمل فقط على غيرها، بل تعمل أيضا على نفسها. هذا «المكان البعيد» الذي يحوي دائما شيئا مختلفا ومفاجأة وتهديدا ووعدًا!

كانت مارسيليا النقطة الأولى لاستقبال هؤلاء العائدين من الجزائر من رحلة طويلة يحملون في حقائبهم ذاكرة مائة وثلاثين عاما من الاحتلال؛ والذي يبلغ عددهم في فرنسا الآن حوالي المليون.

هناك أيضا انقسام حدث في الذات الجزائرية الواحدة بسبب علاقتها بالمستعمر، خرج ما يسمى «الحركي» أو «الحركيين». «وهم نوعان: الفئة الأولى وهم من الجزائريين الذين كانوا مجندين في صفوف الجيش الفرنسي إبان الثورة الجزائرية، نوفمبر ١٩٥٤- ٥ يوليو ١٩٦٢، والذين استعملتهم فرنسا من أجل قمع المجاهدين الجزائريين والتجسس عليهم. وعند انطلاق ثورة التحرير كانوا ملزمين بإتمام الخدمة الوطنية في الجيش الفرنسي. أما الفئة الثانية فهم مجموعة من الجزائريين اختاروا الانضمام إلى الجيش الفرنسي طواعية، أي دون إكراه، وكان معظمهم قد شارك في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو حرب الهند الصينية إلى جانب فرنسا. لكن تعريف الحركي اليوم عند العامة من الشعب الجزائري هو «الشخص الذي خان» بلاده وتآمر ضدها(9).

وفي إحدى جولاتنا في المدينة في حي المهاجرين في «لا فلامان» سنتعرف على «زهرة» التي كان والدها من «الحركيين»، وستحكي عن حياتها المسجونة داخل هذا التعريف بالخيانة.

أمينة

تعرفنا بأمينة في حي «كور جوليان» الذي يمتلئ بالبارات والمطاعم. يقع الحي على ربوة عالية. الشارع له أكثر من مستوى.كأنها لوحة كبيرة، هناك من يشغل المقدمة ومن يشغل منتصف اللوحة، ومن يشغل خط الأفق. بين كل مستوى وآخر هناك تماهيات لونية تجمع بين حدَّي المستويين معا. قضينا الليلة بصحبة «جيل سوزان» الذي تحدثت عنه من عدة صفحات سابقة، نتنقل من بار إلى بار، وأفواج من الشباب لا تظهر بهذه الكثافة وهذه الخفة إلا بالليل. تشعر عندها بأنك في مدينة أخرى غير التي رأيتها في الصباح. في منتصف إحدى الحدائق كانت هناك مجموعة من الشباب سود البشرة يحمل أحدهم مسجلا يصدر موسيقى يرقصون عليها. الكل

يرقص داخل دائرة صغيرة من الأرض، ولا يصطدمون ببعضهم البعض، فتلك الرقصة وتلك الدائرة قد تشكلت كثيرا فيما بينهم، حتى أصبح كل منهم يعرف حدوده جيدا. مررت بينهم، أردت أن أرى إلى أي مدى يخشون على حدود دائرتهم أن لا يقترب منها أحد، لم يحدث شيء، ببساطة يمكن لهذه الدائرة الشابة أن تسعني وتسع غيري.
تدفُّق الشباب، وتجمعاتهم، يضفي على الليل إحساسا بالحيوية العارمة. تجد نفسك مدفوعة خارجك، تتسابق لتجد مكانا داخل هذا الإيقاع. في أي بار بجانب كوب كبير من البيرة يمكنك أن ترقص وتدندن بأغنيتك الخاصة. سمع جاري الفرنسي اللحن الذي أدندن به لأغنية عبد الحليم حافظ «أنا لك على طول»، ابتسم لي. لا أعرف هل ابتسم حقيقة أم لا، ولكني كنت مستعدا لتقبل الابتسامة. في أحد البارات عرَّفني «جيل سوزان» بـ«قايد»: عمره في الثلاثينيات تقريبًا، من أب وأم جزائريَّين، ويعمل في بار «بلتازار»، ويحتفظ وراء البار الخشبي بكل أنواع الموسيقى التي يديرها للشباب الذين يتوافدون على البار. حاولت أن أتحدث معه باللغة العربية. بادرت بالحديث وانتظرت، لم يرد. اعتقدت أنه لم يسمع وسط هذا الضجيج، وربما اللغة العربية لم تمر على أذنه منذ زمن طويل، وبالتقادم أصبحت تلك اللغة بالنسبة له عبارة عن صوت مفرغ من الرموز والأحاسيس. أعدت عليه سؤالي بالإنجليزية، بدأ يستعيد ذاكرته. سألته عن حياته في مارسيليا وعن حياته السابقة في الجزائر. كان ظريفا وجادًّا في الوقت نفسه، لا يحمل لبلده الأصلي أي ذكرى طيبة، وعنده قائمة من الاتهامات سيخرجها عندما يواجهه أحد بمولده. يريد أن يتبرأ منه. ربما عاش في مارسيليا يجمع التهم حول هذا المتهم الغائب، حتى ينام وهو قرير العين من هذا الذنب. عضلات وجهه وحركة يديه، كلها تؤدي وظيفتها بكامل طاقتها أثناء الكلام، حتى خيل لي أني أجلس مع أحد الشباب في أحد الأحياء الشعبية في مصر. عبر الجنسية الجديدة التي اكتسبها «قايد» لم تقطع تماما الخيوط اللامرئية لتلك الطبقات التي تعيش في الأحياء الشعبية، التي تحرك الإحساس والعضلات.
قابلت مصريين كثيرين في مارسيليا لهم نفس الإحساس الساخط على بلدهم، وعندهم أيضا قائمة طويلة من الاتهامات. تحول الوطن عندهم إلى رمز مجسد كالأب. وأصبح النيل منه هو الهدف، حتى يشعروا بالتحرر وبأنهم لم يعودوا تحت سلطته. أعتقد أن ضريبة هذا النوع من السخط أنه يخلط بين رمز الأب ورمز الوطن، ولا يمهد لأي مصالحة بينهما في المستقبل. فهذا السخط لن ينتهي، لأن إحساسهم بالذنب من تركهم لأوطانهم لن ينتهي أيضا، وتنازلاتهم في أوطانهم الجديدة لن تنتهي أيضا؛ إلا لو بدءوا حياة جديدة قادرة على أن تنسيهم حياتهم السابقة. وربما هو إحساس فارغ بالذنب ومجوف ككرة الـ«بي تانك» المعدنية، فقط يصدر صوتا قويا عند أي احتكاك بالأرض. نوع من الرومانسية الهشة، التي تحول الحنين والإحساس بالذنب إلى اتهامات وسخط ضد أوطانهم وضد أنفسهم. وربما لو انتظرت حتى يقرءوا كاملا سجل اتهاماتهم لأنهوه ببكاء حار لينكشف الوجه الآخر للكره.
كان «قايد» مشغولا جدا أثناء كلامي معه، والشباب فتيات وفتيانًا من كل حدب وصوب ينادونه: «كايد...كايد»، فحرف القاف الذي يبتدئ به اسمه حرف فارق بين اللغة العربية وأي لغة أخرى. كل من يدخل يُعتبر صديقا شخصيا له، فالموسيقى تخلق صداقات قوية لها جانبها الإدماني المتعلق بحب الموسيقى. ثقة ممنوحة مقدما لهذا الشخص الذي يقف وراء البار مستعدا للاستماع والتأثير في الوقت نفسه. كان إله هذه الساعات من حياة البار. توقفت عن الحديث لانشغاله المستمر. أشار إلى فتاة تجلس تحت إحدى الإضاءات الخافتة للبار. كانت فتاة بملامح عربية، وهو الشيء المكرر

في مارسيليا، تجلس مسترخية أولا مبالية على أحد الكراسي. تهز الكرسي قليلا إلى الأمام ثم إلى الخلف. كانت تلبس فستانا أسود عاري الذراعين يكشف جزءا من أعلى الصدر. نادى عليها: «أمينة...أمينة». قامت أمينة من تحت الإضاءة المسرحية بتكاسل ولامبالاة. كانت في حالة أولية من السُّكْر اللذيذ الذي لا يعبأ بما حوله. بتعرُّفي على أمينة فتحت صفحة في كتاب هذا الليل الطويل.

ربما لم يكن الوقت المناسب لأتحدث مع أمينة، أو هو الوقت المناسب جدا لكي يتخلل حديثنا امتلاء صوتها وعينيها بالدموع. في الثالثة والعشرين من عمرها، ومضى عليها في مارسيليا حوالي ثلاث سنوات. ما كان يشغلني في كل المهاجرين الذين قابلتهم في مارسيليا هو محاولة تلمس المكان الداخلي الذي حدثت عنده الهدنة بين الوطن والمكان الجديد، كيف تتحمل الذات مثل هذا التناقض لو كان موجودا؟ كيف يتحول التناقض إلى أداة وعي بالحياة؟ أو كيف يتحول إلى أداة مدمرة للذات التي تحمله؟ كلها أسئلة كانت تدور داخلي. وأيضا كيف تحملوا ألم الهجرة إذا كان هناك ألم؟ بالتأكيد لم أكن أبحث عن المهاجرين، ولكن عن الذين يحملون ألما، أي قضيتهم ما زالت حية. لو جردنا الهجرة فهي انتقال من مكان إلى مكان آخر، هل يمكن استبدال المكان بالوعي، أن ينتقل الوعي من طرف إلى طرف آخر، وهي حالتي التي عشتها في السنوات الماضية من حياتي. لذا أعتقد بأنى أمتلك وعيا مهاجرا مع أني لم أترك مصر. عندما كنت ألتقي بأي مهاجر أشعر مباشرة بمسافة ما قطعت داخلي، مسافة أنزاح فيها عن نفسي، يشعرني المهاجر باغتراب إيجابي، بأنه ليس هناك مركز واضح للحياة، هناك عدة روابط نعم ولكنها لا تشكل مركزًا. وهذا هو التناقض الجديد الذي يؤرقني وأحاول أن أغذيه بالمسافة، بالسفر، بالترحال، بالبُعد عن موطني، بيتي.

كان وجه أمينة قريبا جدا من وجهي، لم يمنعنا الضجيج من الاسترسال في الكلام، فقد كان الدافع أقوى. صنع الوطن الغائب دائرة حولنا حصَّنتنا ضد الضجيج. كثيرة هي الكلمات التي كانت تبحث أمينة لها عن معنى بالعربية، تخبط البار الخشبي عند اصطدامها بمعنى لا تقدر على التعبير عنه بالعربية، وأيضا تخبط جبهتها بباطن أصابعها، وهي إحدى لحظات الطفولة عندما نخبط على جباهنا لتستيقظ الكلمات النائمة.

تحدثت أمينة عن طفولتها في الجزائر، عن أبيها الرجل البسيط الذي يأتي لزيارتها في مارسيليا هو وأمها فلا يبرحان الشقة حتى يعودا مرة أخرى إلى بلدهما، عن النافذة الزجاجية التي كانت تجلس بجوارها في كل مراحل التعليم، ثم أخذت تسرد الأسماء الثلاثية لصديقاتها على تخت الدراسة. أثناء سرد تلك الذكريات كانت تقوم بتقطيع القاعدات الورقية التي توضع تحت أكواب البيرة، بحركة لا شعورية. أصبح أمامها كومة من الأوراق الصغيرة. سألتها هل هي عادة من أيام المدرسة؟ خجلت، وشعرت ببعض الحرج. لقد استعادت سريعا زمن طفولتها. بدا صوتها دافئًا وتريد أن تستند على أي شيء، فاستأذنت وعادت بعد دقائق، وهي ترتدي جاكتة صوفية خفيفة فوق الفستان المكشوف. كنا في شهر يونيو والجو لا يحتاج لأي غطاء، وكل مَن بالبار متنازل عن جزء من ملابسه. شيء ما استيقظ داخلها وكان يحتاج لغطاء، ربما الطفلة في طريقها الصباحي البارد للمدرسة. لقد تحول جسمها المكشوف في لحظة إلى رمز، إلى مكان، إلى وطن، إلى شيء ما زال يحتاج إلى حماية.

تركنا أمينة لنكمل تجوالنا الليلي في بارات أخرى، ثم عدنا مرة أخرى إليها بعد ساعتين. عدنا، كانت شبه غافية على الكرسي الذي كانت تجلس عليه أول مرة، وتحاشت الاقتراب مني. كان في

جو البار شيء مكهرب. اقتربت من زميلتها في العمل التي سألت «جيل سوزان»: «أنتو عملتوا إيه في أمينة؟». يبدو أنها بعد خروجنا انفجرت في البكاء. تركتها في تلك الحالة وحييتها من بعيد، بدون أن ألمس هذا الاحتراق الذاتي، وأنا أغادر البار.
لم تنتهِ القصة عند هذا الحد فقد عدت لمارسيليا بعد تسعة أشهر، وأول ما فكرت فيه هو أن أزور أمينة. كنت غير متيقن من وجودها. لقد تغيرت الأحوال معها وأصبحت هي مديرة البار وخرج «قايد» إلى الشارع. فهمت من أصدقائي الفرنسيين بأنها السبب في خروج قايد إلى الشارع! أصبحت أكثر خشونة، بادرتني بالسؤال، فهمت أنها تسألني: «هل عدت مرة أخرى؟». لم تنسني. دعتني للدخول أنا وأصدقائي مجانًا للحفل الموسيقي المقام داخل البار. شكرتها ودخلنا. لم أقدر على الاستمرار في الحفل أكثر من ساعة. أثناء خروجي لم أجدها في مكانها، لم أسأل عنها، وتسللت بهدوء عبر الباب. الهواء في الخارج كان شديد البرودة. لففت الكوفية حول أنفي وأذنيَّ كعادة الفرنسيين، ووضعت يدي في جيبي، وفي نفسي شيء صغير مصدوم.

حكاية زُهرة

ولدت زُهرة في الجزائر في مدينة قسنطينة عام١٩٤٣. كان أبوها من «الحركيين». قالت زهرة إن أباها دخل الجيش الفرنسي رغمًا عنه، فإما أن يتعرض للضرب والإهانة من قِبل الفرنسيين وإما ينخرط في الجيش.
في المعسكر الفرنسي، حيث يخدم، سيتعرف الأب على شاب عمره ستة عشر عامًا، وسيصبح هذا الشاب زوجًا لزهرة في المستقبل. لهذا الشاب حكاية تحكي سبب انخراطه في الجيش الفرنسي بالرغم من كنية الخائن التي ستلحق به عند التحاقه. فقد طرده أبوه من البيت لأنْ لا عمل له. غادر البيت صغيرًا، ولكنه ما لبث أن عاد وحن للأب مرة أخرى، فذهب إليه في السوق حيث يبيع الأب الخِراف. اقترب الابن من خِراف أبيه وسأله عن سعر أحد الخِراف فأعطى له الأب سعرا. فاصل الابن في السعر، فأصر الأب على السعر الأول. خلال تلك المحادثة لم يتعرف الأب على ابنه، نَسِيَه. نسيان الأب له جعله يترك المدينة كلها ويتدبر أمور حياته بمفرده. كانت اختياراته على الحافة.
تقابل الابن المنبوذ مع والد زهرة في المعسكر الفرنسي، كان الابن على وشك الزواج، ولكن في ليلة الزواج هربت العروس، فعرض والد زهرة ابنته ذات الخمسة عشر عامًا على ذلك الشاب المصدوم، فوافق. تم الزواج عام ١٩٥٨.
بخروج الفرنسيين من الجزائر عام ١٩٦٢ أصبح هناك خطر على «الحركيين» من انتقام الشعب. فتم تهريب زوج زهرة إلى مارسيليا بمساعدة تاجر أثاث يهودي. خرج من الجزائر وهو فاقد نصف رِجل لقاء الضرب الذي لقيه قبل مغادرته. ثم لحقته زهرة زوجته بعد ستة أشهر، بعد أن ظلت مختبئة في الجزائر، تتنقل من بلد إلى بلد، ومن بيت إلى بيت حتى لا تتعرض للانتقام.
وقامت بحلاقة شعر ابنها حتى لا يتعرف عليه أحد. ورغم ذلك تم التعرف على الصبي ذي السنوات الثلاث، وقالوا: «هذا هو ابن الحركي» بمعنى آخر «ابن الخائن»، وقاموا بضربه بكوريك عربة على رأسه. ظل جرح الابن ينزف طوال الرحلة من الجزائر إلى مارسيليا.
في مارسيليا تجمع شمل الأسرة، الزوج وزوجته والابن المجروح. اشتروا عشة للسكن بمساعدة آخرين، كان ثمنها ٤٠٠ فرنك. لم يكن بالعشة ماء ولا كهرباء ولا مرحاض. وتكاثرت الأسرَّة داخل العشة. غرفة واحدة ينامون ويأكلون ويتحممون فيها.

أنجبتْ زُهرة تسعة أبناء، مات اثنان منهم، أحدهما فتاة ماتت بسبب مرض صدري خطير من سوء التهوية في الغرفة التي يسكنونها.
أثناء خروج زُهرة مع زوجها في الشارع كانت تمر بجانب إحدى العمارات وتحلم معه بالسكن فيها. عمارة بها زجاج وماء وكهرباء. تحققت الأحلام عام ١٩٧٣، وانتقلت إلى حي «لو فلامان» (les flamands)، وهو الحي الذي ما زالت تسكن فيه حتى الآن. ساعدها في أخذ السكن أنصار الحزب الشيوعي الفرنسي.
كان أي احتكاك مع نساء جزائريات في مارسيليا يسبب مشكلة لزُهرة في البداية، بوصفها من الحركيين. ولكن المشكلة زالت عندما تزوجت بنات هؤلاء النسوة من فرنسيين، وأصبحن يملكن الهوية الفرنسية، فتم نسيان النزاع القديم، على الأقل داخل هذه الرقعة من بلد المهجر.
عندما أتوا إلى حي «لو فلامان» لم يكن بالحي مدارس لأطفالهن ولا نوادٍ، ولا خدمات، فقامت زُهرة مع مجموعة من النساء الجزائريات والفرنسيات بعمل مظاهرة للمطالبة بأوضاع اجتماعية أفضل، وأنشأت جمعية نساء حي «لو فلامان» وأصدرت جريدة ونظمت رحلة بمساعدة الحي إلى الجزائر، وقمن بدعوة نساء جزائريات لزيارة مارسيليا.
طوال فترة حياة زُهرة في مارسيليا لم تكف عن الانخراط في التنظيمات الاجتماعية والمظاهرات من أجل تحسين ظروف المعيشة، ولمزيد من الاندماج بينهن وبين المجتمع الفرنسي. وكما تقول إنها «تريد أن تثبت للمجتمع بأنهن لسن حيوانات أو وحوشًا»، وأيضا لكي تنفي عن نفسها أي تهمة قد يتسبب فيها آخرون من بني جلدتها: «اليد الواحدة بها خمس أصابع ولكنها غير متشابهة». تدرأ بهذا المثل وهذه الحكمة أي تعميم في الإدانة، وتفتح سبل النجاة لجميع الجنس البشري. لقد رفعت زُهرة أصابعها الخمس كثيرا هناك.
في عام ١٩٨١ حدثت حادثة فجَّرت في الحي حس التمرد المخلوط بالفن. فقد قُتل أحد المهاجرين من الشباب المغاربة بطريقة عبثية. كانت هناك حملة للتفتيش على أوراق الإقامة. أوقف الشرطي الشاب المغربي سائلًا إياه عن أوراقه. كانت هناك عادة عند الشاب أن يلمس أذنه، ولكن الشرطي أحس بأن هذه الحركة مشبوهة خصوصًا في هذا الوقت، فأطلق عليه الرصاص ومات في الحال.
تحولت هذه المأساة في عائلة زُهرة إلى مزيد من الإصرار على إثبات الذات، وقام ابنها الكبير موسى بإنشاء مسرح حي «لو فلامان». كانت أمه تحضر كل عروض الفرقة سواء في الحي أو خارجه. كانت فكرة المسرح أن يحكوا ما حدث سواء لهذا الشاب أو لحياتهم حتى لا تُنسى هذه الآلام.
تقول زُهرة:
«لم يعد لي أحد في الجزائر».
«لقد طُردنا من بلدنا، ورُفضنا من فرنسا».
«إننا مهاجرون هنا وهناك، إننا مهاجرون من الناحيتين».
«لقد خُدعنا من الطرفين، الجزائري والفرنسي، عشان كده هاروح المشوار لحد الآخر، عشان أنا مش خايفة من حاجة».
عندما وصلت حكاية زُهرة إلى نهايتها، غاصت عيناها بالدموع.

العودة

أثناء سيري في شوارع مارسيليا، بعد شهر من الإقامة، أندرج تماما في الحياة التي تدور من حولي، ولا أشعر بأي غرابة في اللغات المختلفة أو بنشاطات السير. وكثيرا ما كنت أغيب عن

نفسي وأسألها أين أنا؟ في مصر؟ في الإسكندرية؟ في مارسيليا؟ أم في مكان جديد هو خليط بين كل هذا؟ هذه الغفوة هي إحدى ملاحظاتي عن نفسي وأنا هناك. أرى الباب الخشبي لأحد البناءات يُفتح وتخرج منه أمي متكئة على ذراعي اليسرى. أو وأنا جالس على المقهى أشعر بأن صديقا، أنا على موعد معه، سيخرج من البحر أو من أحد الشوارع، ويجلس معي. هذا التوقع المشحون بالألفة، وليس الحنين، لأنْ لا أحد يأتي ولكن يستمر هذا الشعور بدون أي صدمة له. فهذا الصديق وهذه الأم موجودان باستمرار ولا يجب أن يتعينا. أنا لست بحاجة لتعينهما، راضٍ بأن يكونا شبحين، ما بين حالتَي الحضور والغياب. لقد منحني المكان إحساسًا شفافًا بنفسي.

الرغبة في السفر وراءها رغبة في تجاوز المكان، رغبة في الخلود، ولكنه خلود إنساني، أن لا نحيا ونموت في مكان واحد. تتعدد الحيوات بعدد الأماكن، وتتعدد معها طرق الموت. هذا التعدد يؤجل دائمًا الصدام بنقطة القدر التي نحملها داخلنا، حتى قبل لقائنا به. التعدد هو الإمكان الإنساني لأي تجاوز في الوعي، في الحب، في الألم. وكما أن السفر رحلة إلى الأمام ورغبة في الخلود، هو أيضًا رحلة إلى الخلف لاستعادة شيء ما، حساسية، براءة، أصل منسي، نسيان أصيل، هوية فارغة، فراغ هوية، مشهد، طفولة، هذه النقطة التائهة إلى الأبد. إذا كان السفر فقدًا لمكان، فهو استعادة لجوهر هذا المكان، كملخص وافٍ لثنائية الموت/ الحياة. ربما الموت قريب من هذه النقطة التائهة، من هذا الأصل المنسي، والنسيان الأصيل.

مايو ٢٠٠٠ – سبتمبر ٢٠٠١

الإسكندرية- مارسيليا

---

(2) «تراتيل متوسطية» (Breviaire mediterraneen) لـ«بيردراج ماتفيجيفتش» (Predrag Fayard-Matvejevic -1992) دار توبقال للنشر ١٩٩٩ - الطبعة الأولى. ت عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالي. ص ١٨.

(3) المرجع السابق. ص ٢١.

(4) الإنسكلوبيديا. شبكة الإنترنت.

(5) «تراتيل متوسطية» ص ٥١.

(6) «تراتيل متوسطية»، ص ٥٤.

(7) قاموس أكسفورد.

(8) شبكة الإنترنت.

(9) شبكة الإنترنت.

صمت وصخب
رحلة للجزائر

خلال أسبوع من إقامتي بالجزائر، شربت العشرات من فناجين القهوة السوداء، أحسست أني بهذه الطريقة أقترب من المذاق اليومي للجزائريين. مذاق مر مهما أضفت إليه العديد من مكعبات السكَّر، فكثافة طعم القهوة ومرارتها هما الأصل، وكذلك الرمز على قدرة الناس على التأقلم مع هذه المرارة.
تقدم القهوة، سواء في فناجين صغيرة أو أكواب بلاستيكية أو زجاجية؛ بكميات قليلة لا تصل أبدًا إلى الحافة، عدة رشفات وتنتهي المهمة. هي عادة روحية أكثر منها لضبط المزاج. يحتاج الجسم يوميًا لعدة جرعات من هذا السائل الأسود، من إكسير المرارة، لكي يستمر. يصبح اللعاب المر هو الجزء الحميم والمادي الذي أحمله طوال أسبوع وأشترك فيه مع الجميع، لم يترك أي مذاق آخر أثرًا داخلي مثل القهوة السوداء.
هناك منافس آخر، ليس في الطعم ولكن في الرائحة، وهو الشاي الأخضر مع أوراق النعناع. أيضًا يقدم في كوب صغير ينتهي بعد عدة رشفات، وقبل أن تنتهي السيجارة. مشروبات مقننة تأخذ منها المذاق والرائحة، قبل أن يصل السائل الأخضر إلى فمي، تكون رائحة النعناع قد استعمرت أنفي ورئتي. هناك شيء مقطر وجوهري، بين المذاق المر والرائحة النفاذة؛ يقضي الناس فيه أوقاتًا عديدة من يومهم الذي يبدأ في السابعة.
من السابعة صباحًا وصولًا حتى الثامنة، تبدأ الحياة في الشوارع، المقاهي، المخابز، يكون الشارع قد استقر نفسيًّا وبدأت معالمه في الاتضاح، ولن يضاف إليه شيء جوهري بعد ذلك على المشهد. في المقهى الحوارات قليلة، كلٌّ منكبٌّ على جريدته أو صامت، نوع من السر الداخلي والذي لا يُفشى أبدا. ليس هناك فضول للتلصص على جريدة الجار، كما فعلت وتلصصت على جريدة جاري، فاستغرب صاحب الجريدة من فعلي. هناك مسافة صامتة مع الحياة التي تدور، ومع الآخر، ولا يسهل تجاوز هذه المسافة في لقاء عابر، ولا يسهل كذلك إفشاء السر.
في أحد البارات التي تمتلئ بها العاصمة، كانت هناك مباراة كرة قدم تدور في التلفزيون المعلق في أحد الأركان. كنت أريد الاستفسار عن نتيجة المباراة، فتجرأت وناديت على جاري الذي لا يبعد عني مقدار نصف متر، لم يسمعني. عندها مددت يدي وتجاوزت مسافة نصف المتر، ونقرت على كتفه بأصبعي. لم يستجب جاري بسرعة، حتى إنني شككت في حركتي. ثم بعدها بثوانٍ أجابني ببطء وبنصف التفاتة عن النتيجة، ثم عاد ببطء أيضًا إلى كوب البيرة المثلج وعينه المرفوعة إلى التلفزيون. كان يتابع بملل، فالمسافة بينه وبين التلفزيون تتجاوز الأمتار السبعة. من مكانه يتابع اللاعبين كأشباح صغيرة، ربما كان يريد أن يضفي أنيسًا آليًّا لوحدته.
هذا الصمت والتوحد يمكن أن يكونا ظاهرة، من كبار السن والشباب، كل واحد يجلس وحوله دائرة من السكون، ولأن العاصمة جبلية تكثر بها السلالم والزوايا ونقاط العزلة. هناك من يجلسون صامتين وسط صخب الحياة في الميادين وفي الشوارع الجانبية، ولساعات طويلة، مكتفين بالفرجة، وكعلامة احتجاج حزينة لخروجهم من سوق الحياة.
ليس الصمت وحده هو ما يتخلل ثنايا العلاقات ويصنع فضاءً حول الفرد، ولكن هناك الصخب، والصخب العارم أيضًا. بعد وصولي الجزائر بيومين، كانت هناك مباراة نهائي الكأس في كرة القدم بين فريقَي المولودية واتحاد العاصمة. تكثر التجمعات في الشوارع والأعلام المرفوعة والعربات المارقة، جو من النشوة الجماعية مقسم بالتساوي بين الكبار والشباب والصغار، ليس هناك خاسر بعد، مما يجعل تلك النشوة تتمدد في فضاء لا حد له. تسير في الشوارع، ترى تلك النشوة بشكل مختلف، شيء أقرب للتحرش من بعيد، وأننا على أبواب صِدام وشيك. يفوز

المولودية بالمباراة لتستمر الأفراح ثلاثة أيام وأسراب العربات المزينة بالأعلام الكبيرة للفريق تخترق شوارع العاصمة. وسط هذا الجو الاحتفالي تقل بل تتلاشى المسافات بيننا، ربما تنشأ مسافة أخرى وهي اللغة، فاللغة العربية هنا أداة اتصال ناقصة، ولا يعول عليها كثيرًا في بناء حوار. حتى ولو كان هناك حوار، فيستكمل بالحدس والابتسام وإيماءات الموافقة من الرأس، فالكثير من الكلمات المتبادلة تسقط في الطريق.

جاءت مباريات كأس العالم لتحفظ للشارع بهجته، ولا أعرف أي وجه سيرتد إليه الشارع بعد انتهائها. هناك ساحات بها مدرجات مصغرة، كالمسارح الرومانية القديمة، يتراص فيها المشجعون وفي الأسفل شاشة تبث المباراة. تتعالى أصوات الحناجر، فالصوت عنيف، ابن هذه التدرجات الجبلية. نعزي كل شيء للحزن، كي يعطي مؤشرًا جغرافيًّا للفضاء الصلد الذي أتى منه الصوت. لكل شعب طبيعة حزن، وطبيعة يأس كذلك. غناء الفضاءات المفتوحة يختلف تمامًا عن غناء الأماكن المغلقة. في الأماكن المغلقة يتحول الصراخ إلى نغمة شجية تكرر باطنيًّا وزخرفيًّا، حتى تنكسر حدة الصراخ الداخلي للفرد والمغني. في الجزائر هناك صراخ لم ينكسر بعد، وبدائي، ويحتفظ بحرارة اللحظة الأولى للحزن، بالفضاء الواسع الذي أتى منه. ربما تكون الجُمَل الموسيقية في الأغاني مكررة وغير مركبة، لأن الرهان هنا على الصوت، الصوتُ أولًا هو ما يبني فضاء الأغنية.

الإيقاع أيضًا، كل الأغاني التي سمعتها في الشوارع، في البارات، في النوادي الليلية، جميعها كانت تدعوني لكي أحرك جسمي، ربما في حركة بندولية، صعودا من درجة خافتة للوجد حتى أعلى درجة، يتحول الجسد إلى حنجرة صوفية تصرخ، وتظل الوجوه كما هي جادة، بها شيء من الخشونة أو القسوة، وربما تكون هذه القسوة قناعًا أيضًا، كإيقاع من إيقاعات الحياة.

الخدمة التي تقدم من العاملين من الرجال سواء في الفنادق أو البارات أو المطاعم أو المقاهي، يحف بها شيء من الخشونة، مع شيء من عدم المهنية أحيانا. أي من هؤلاء النُّدل يريد أن يظهر شخصيته الحقيقية ولا يختفي تماما وراء قناع الوظيفة. يريد أن يُشعرك بأن له شخصية أخرى حرة ومتساوية معك تماما. من يضع لك فنجان القهوة، من يقدم لك طبق الطعام، تسمع صوت احتكاك الطبق بالمنضدة، كأنه تعب من حمله وألقاه سريعا. تنصل من هذا النوع من الوظائف الخدمية، التي يخدم فيها الرجل رجلا آخر أو سيدة. تأكيد فكرة المساواة والحرية وأن البشر كلهم واحد، قبل أن تكون هناك أدوار وطبقات اجتماعية.

في أحد المطاعم المخصصة لتقديم لحم الغزلان، كان يجلس بجوارنا رئيس وزراء جزائري سابق، مع حاشية من أصدقائه، كان ينتمي لجبهة التحرير. تشعر أن من خرج من السلطة لم يعد يمتلك شيئا، وعاد إلى دور الرعية. الرجل كان بسيطا بالفعل ومجاملا، هالة من الاحترام الهش كفقاعة الصابون تدور من حوله، وابتسامات مجانية معتادة كان يوزعها على رواد المطعم.

غرفتي في الفندق كانت تطل على الميناء، يوميًّا هناك جديد، من مكاني في الشرفة أكاد ألمس تفاصيل السفينة بعينيَّ، أشعر أن السفرَ قريب جدًّا. من غرفتي بدأت أعرف التوقيت من مقدار ارتفاع الشمس في السماء. أطل على شارع الميناء، تكون الحياة قد بدأت وأخذت النوارس تحوم في دوائر صعودًا وهبوطًا، وقريبة جدًّا من الشرفة التي أقف فيها، حتى إنني كنت أخشى أن يتسلل أحدها إلى الغرفة ويتخبط في متاهة المرايا الكثيرة بداخلها، ويفقد طريق الخروج.

في السابعة صباحًا، وطول فترة إقامتي التي امتدت لأسبوع، كان هناك رجل عجوز يأتي بالطعام للنوارس. يبدر الحَبَّ على الأرض، ثم يضع كمية احتياطية منه على جانب الرصيف، لنوارس

ستأتي بعد انصرافه، ثم يمضي بعد أن أنجز مهمته.
بمجرد انصراف الرجل، أنزل للمقهى القديم المواجه للفندق، في هذا الوقت المبكر والاستثنائي من الصباح. أصبح المقهى في هذا الوقت من إحدى لزماتي خلال أسبوع الإقامة. تكرار للجلوس عليه منحه علاقة أسبق من علاقتي الحديثة معه ومع رواده، كأني أعود بشريط الزمن لماضٍ لم أكن موجودا فيه. أيضا كان من عاداتي هناك أن أتناول طبق السردين المشوي. بالرغم من توافر السردين في الإسكندرية إلا أنه لم يتحول لطعام شعبي يقدم للجميع في المطاعم مثل الفول والطعمية. كما وجوده في الجزائر والمغرب.
يعود تاريخ إنشاء الفندق إلى عام ١٩٢٣، وقد حضر «شارلي شابلن» افتتاحه. وهي الفترة التي كان فيها الشعب الجزائري يقاوم الاستعمار الفرنسي، وما زالت أمامه سنوات طويلة لينال الاستقلال. بالتأكيد أنشئ الفندق في فترة يأس، والكراهية التي يكنها الجزائريون لتلك الفترة انعكست على علاقتهم بالفندق، كأنه أحد رموز اليأس. بالرغم من ضخامة الفندق وسعة غرفه وتعدد صالاته وقاعات الطعام والحفلات بداخله، إلا أنك تلحظ إهمالًا ما في الحفاظ على هذا الأثر التاريخي وكذلك المعماري. يبدو أن فكرة «الأثر» فكرة غير معترف بها لو أتت من داخل حقبة الاستعمار. الاعتراف بالأثر يعني التسامح مع التاريخ، وهذا التسامح لم يحدث بعد في الجزائر، ما زالت هناك جروح وندوب، ربما لا تسبب الألم، ولكنها أصبحت تشكل ثقافة يصعب الانفلات منها، وأحد مراجع الذات.
ولكن هناك أيضًا أجيالا جديدة لا تريد أن تكون فترة الاستعمار، بما حوته من دماء و ضحايا؛ هي المرجع الوحيد الذي تبدأ منه الذات رحلتها. أجيال تريد أن تبدأ من نقطة جديدة تحتوي على آلام الفرد الحالية و تدقق أكثر في عيوب وهموم المجتمع المحيط. لا يمكن للهوية المجروحة أن تكون نقطة بناءٍ، ولكن أيضًا يمكننا أن ندقق في طبيعة الاستعمار الفرنسي الذي أوجد هذا الجرح. لقد أراد هذا الاستعمار، الذي أتى بعد ثورة، أن يكون أي آخر صورة منه، بالقوة والقهر والقتل. لقد كانت الجزائر هي النموذج الأقوى في التمثيل في فرض صورة ولغة أخرى عليه. العنف واللغة اقتسمتا تلك الصورة التي فُرضت على الشعب الجزائري. الاستعمار الفرنسي كان من الصلف أن لا ينظر إلى الأرض فقط ولكن أن يخترق تلك الذات ويعيد صياغتها من جديد. الاستعمار الإنجليزي لمصر، ولأنه لم يكن ثوريًّا وإنما كان نفعيًّا، لم يعنه أن يغير من هوية الذات المصرية بالعنف، ولكن كان هدفه التبادل، في هوية الذات وكذلك في الموارد الطبيعية لمصر.
لقد ترك الاستعمار الفرنسي ميراثًا ثقيلًا. مليون شهيد، رقم إعجازي في الموت، ولا يمكن للذات أن تتخطاه بسهولة، تظل خاضعة له، وفي الوقت نفسه، أصبح هذا الرقم مصدر فخر ورمزًا على قوة هذه الذات وعدم الاستسلام، الذات التي لا تقهر. ربما هذا ما يفسر تلك الخشونة التي تتخلل الحياة، خشونة من ميراث الصحراء والمقاومة والهزيمة والانتصار.
في بداية التسعينيات، نشأ مرجع جديد في الذاكرة الجزائرية، ولكنه أيضًا دموي. أصبح هذا المرجع الجديد ينازع المرجع القديم، المتمثل في فترة الاستعمار الفرنسي؛ سطوته في الذاكرة الجمعية. ظهرت جماعات لها اتجاه ديني أصولي تحاول إشاعة الرعب في المجتمع، عبر تفجيرات وعمليات قتل جماعي، واغتيالات وتصفيات لرموز صحافية وثقافية وفنية. كانت محصلة الموت لتلك الفترة التي امتدت طوال عقد التسعينيات، ما بين مائة وخمسين ومائتي ألف قتيل. بالتأكيد رقم ضخم في ماراثون الموت هذا، رقم يجعل الجزائريين يسمون تلك الفترة

بالحرب الأهلية، لأن العدو هذه المرة جاء من الداخل، جاء ليؤكد وجود تناقض حاد في تكوين المجتمع.
أي محاولة لفرض اتجاه بالقوة، كما حدث مع هذه الجماعات، أدى إلى زيادة رصيد الموت على رصيد الحياة. كانوا يسمون تلك الجماعات بالأشباح، استعمار لامرئي، لا يرى وينفذ عملياته ثم يختفي عائدا إلى الجبال، لذا أصبح المُتهم يتعدى حدود جماعة معينة أو اتجاه ديني محدد ويمتد لأكثر من قوى تتحكم في المجتمع الجزائري، وإلى مصالح كبري تقف وراء هذه الجماعات اللامرئية. ونتج عن هذه الحرب أيضًا مئات وربما آلاف المفقودين، لا يعرف أهاليهم أين ذهبوا ومن قام بخطفهم، وهل ما زالوا أحياء حتى الآن، وأين يقيمون. حرب الأشباح هذه فجرت الاتهامات على كافة الاتجاهات والأصعدة.
في نهاية كل لقاء كانوا يودعون بعضهم البعض، فربما لا يلتقون بعد ذلك، ربما تصادف أحدهم عربة مفخخة في الطريق، أو رصاصة مجهولة. هذا الموت العبثي والمجاني واللامرئي، جعلهم يكثرون من لقاءاتهم، كأنهم بشكل جماعي، وبأجسادهم كمادة وكمعنى، يقفون ضد هذه الأشباح، ويبعثون لهم برسالة واضحة مؤداها «لن نخاف»، رجالًا ونساءً. حتى الحانات لم تتوقف في أوج منحنى القتل وازدهاره. الحانات هناك كانت رمز مقاومة. يبدو أن لحظات الخوف الجماعي، أو الانصهار الجماعي هي التي تحفر في الذاكرة، تصنع لها مرجعًا. ربما الجزائر العاصمة لم تعانِ كما عانت الأطراف والمدن الأخرى، ولكنها في النهاية رمز للمقاومة واستمرار الحياة، وأي انتقاص من مظاهر هذه الحياة كان يعني تآكلًا جزئيًّا لحياة هذا الرمز، بما تحتويه من حاناتٍ ومقاهٍ ومطاعم ونوادٍ ولقاءات وغناء ورقص وتسكع وأفراح، بكل تفاصيل المدنة. فالمدنة لا يمكن أن تكون مذنبة.
دائمًا الجبال كانت تحوطنا بشكلها الصريح أو المجازي، بعد أن استؤنست وتحولت إلى مصاطب وسلالم وبيوت ومطالع ومنازل وحنايا. تفاصيل مثل تفاصيل الذاكرة الصلدة. تلك الجبال التي قاومت الاستعمار عادت مرة أخرى لتغير من وظيفتها، وتصبح ملجأً وملاذًا لهؤلاء الأشباح. في الطريق إلى تيبازة، وهي مكان مدنة رومانية قديمة تبعد عن العاصمة حوالي سبعين كيلومترًا، شرح لي محمد سائق العربية وشبيه زين الدين زيدان، عندما أخبرته بملاحظتي أكد لي أن أصدقاءه يرون فيه نفس الشبه بزيدان؛ كيف كانت الجبال التي تحوطنا ينهمر منها الرصاص، وكيف كان الخوف يتصاعد عند الاقتراب منها أو السير بمحاذاتها. في مغاراتها كانت تختبئ نيات مبيتة ومحكمة ومنظمة للقتل.
أثناء مرورنا بالطريق إلى تيبازة، رأيت قرى ومساكن لفقراء ولأثرياء على طريق البحر، وجدنا أطفالًا يجلسون هادئين وأمامهم طاولة يبيعون عليها العيش البيتي والخضار، ينتظرون رزقهم في طريق العربات ويلوحون لنا بنظرات مستسلمة. كما في قرى مصر ومدنها، أصبح للأطفال دور ومهام أساسية في حياة الأسر العربية.
الحركة في الجزائر العاصمة لها إيقاع متعدد، الانتقال من مستوى إلى مستوى آخر مرتفع، وأحيانًا يعني هذا الانتقال انتقالًا من مستوى اجتماعي لمستوى اجتماعي أرقى حتى الوصول لحي «حيدرة» الأرستقراطي. لا تسير في طريق واحد مستقيم ومنبسط لمدة طويلة، هناك كسر دائم لحدود الرؤية، أشياء مخفية، تفاصيل وأزقة وزوايا، كأنها متاهة مدنة الطفولة المفقودة والتي لم نعشها أبدًا، ولم نتخط سوى عتباتها في أحلامنا.

من ساحة كنيسة السيدة الإفريقية، والتي تقع في منطقة مرتفعة من العاصمة، من هناك أحيط بالمدينة، أملك خارطتها، ومن حولي ثنائيات من المحبين، يدفعهم هذا التحليق فوق المدينة إلى المزيد من الاقتراب. من أعلى تظهر، وكما شرح لي دليلي في هذه الجولة؛ مقابر المسلمين واليهود والمسيحيين على إحدى مصاطب المدينة. هذا التجاور بين الأديان لا يتحقق بهذه الوداعة، فالمقابر الثلاث كانت تحوطها الأشجار؛ إلا بعد أن تُستنزف الحياة تمامًا وينتهي رصيدها. كوزموبوليتانية الموت. نتعاطف مع عالم الموت أكثر من الحياة. ربما كل عبارات الإخاء والمساواة والعدالة لم تدخل إلى حياتنا إلا من حيز الموت، من ثائر أو نبي أو شاعر، تلك الأرواح المثالية التي لم يكن عالمنا هو عالمها الحقيقي، بل كان لها عالم نفسي آخر.

لا يمكن أن تقوم ثقافة أو أدب على تعميق فكرة انقسام الهوية، بين لغتين، مكانين. أن تكون هي الفكرة المحورية لها، مهما كانت هذه الفكرة حساسة. أتذكر بشجن مالك حداد، الشاعر الجزائري الذي كان يكتب بالفرنسية، وهو يحاول في قصائده أن ينادي أمه بـ«ماما» بدلًا من «ma mere». الانقسام يطول الحنان والشعور والتشبع به. في عالمنا العربي هناك مأزق للذاكرة، باختلاف المكان والمرجع، ولكننا جميعًا نحتاج لأفكار جديدة من خارج صندوق الذاكرة. ربما تكون فكرة مبدعة، مجنونة، ولكنها قد تعيد للذاكرة بعض الأمل. أن لا يكون الانقسام، مهما كانت شعريته، هو قدرنا.

عدد كبير من الشوارع في العاصمة يحمل أسماء شهداء: كي لا ننسى ما حدث. تتألق ذاكرة الشهادة، الدم المعلق، المليون شهيد، وهناك إحصاء آخر: المليون ونصف المليون شهيد. رقم فادح في ذاكرة أي شعب، رقم تأبى الذاكرة أن تتحمله وتعيش متوازنة. كل ذاكرة متألمة تخلق ذاكرة مضادة حتى يخف الألم. أسمع أن هناك عدم دقة في إحصاء هذا الرقم. في لحظة الإحصاء التي امتدت مائة وثلاثين عامًا، كانت الذاكرة مجروحة ومستنزفة، فعمقت من جرحها وجعلت منه احتفالًا بالموت، بهذا الرقم الضخم الذي يصعب كسره، يصعب تجاوزه، إلا في الحروب الكبيرة، الحروب العالمية. الجزائر كانت رمزا لحرب عالمية ولكن بين طرفين، لذا حازت نصيبًا كبيرًا من الشهداء، وكذلك حازت كبرياء المنتصر الخارج من حرب كونية وفرحته بنفسه، فرحة الذات التي لم تقهر.

بالرغم من فداحة الاستعمار الفرنسي، إلا أن اللغة الفرنسية هي لغة الحياة اليومية في الجزائر. اللغة شيء كالأمومة، أمومة بعدة أوجه وأدوار، ومنها الإحساس الاستعماري للأمومة، كأن تختلط مشاعرك، تحب وتكره في الوقت نفسه. وأيضًا أن تستغل اللغة بعيدًا عن مصدرها، أن تتكلم باسمها ولكن بمشاعر مضادة.

يؤنثون «المخبز» ويسمونه «مخبزة». هذا الرصيد الأمومي في اللغة الفرنسية انتقل هنا كذلك بالرغم من ذكورية المجتمع وخشونته. ملاحظة لفت نظري إليها صديق فرنسي كان يجلس بجواري في الأتوبيس ونحن نعبر شوارع الجزائر العاصمة، لمحت في ملاحظته حسًّا خفيا بالسخرية.

الصراع الحقيقي للجزائريين ليس مع اللغة العربية، بل مع الفرنسية، لأنها تحمل داخلها الموقعة النفسية، تحمل صراع الهوية والرغبة في استقلالها، تحمل البُعد النفسي للأمومة. هي مكان الصراع والانتصار، لأنها كانت مكان القهر. بزوغ أي نص جديد ومغاير هو معركة مع هذه اللغة، مع مفهومها وأجروميتها ورموزها، بإدخال مشاعرك وحزنك ورموزك داخلها، حتى تُمثل

وتحتل أرضًا بداخلها، حتى تصبح هويتك الجزائرية جزءًا منها، حتى تسوي مظلمتك وتستعيد بعضا من عدالة مجردة ترتجيها، ولم تتحقق على أرض الواقع.
لا أجد أي غضاضة في أن تكون اللغة الفرنسية هي الأهم، لأن المرجع النفسي للجزائريين ما زال داخلها، أدوار الأمومة المتعددة والمتناقضة. لن تكون اللغة العربية هامة وملحة إلا بانتقال الحس الأمومي إليها، حس الاحتواء والمقاومة. بأن يكون بها موقعة نفسية، كالولادة، تشبه موقعة الاستعمار ولكن بدون استعمار. ربما ظهور الجماعات الأصولية هي محاولة متعسفة لتكوين ذاكرة مضادة للذاكرة الفرنسية، ولكن هل يكفي الدين وحده ليكوّن هذه الذاكرة المضادة؟
هنالك ذاكرة أخرى ما زالت حاضرة وهي ذاكرة الرقص، الرجال والأطفال والسيدات والفتيات، الجميع يشارك في الرقص، ويسيرون فيه وراء النساء القائدات له. الرقص هو النشيد الجماعي، كما في النوبة، الذي يولدون به، ويحفظونه عن طريق المشاهدة. المكان الذي تسترد فيه المرأة مساواتها بالرجل.
المرأة غير موجودة، أو بتعبير أدق، مقيدة، في صباح الشارع، ملحقة بمسيرة أخرى للرجل. أما في ليل الجزائر العاصمة، فهنا المكان الذي يتجلى فيه لا شعور المدينة، حيث العديد من الفتيات الجزائريات الجميلات جمالا استثنائيا يرقصن ويشربن ويتواعدن في منتجع يضم العديد من الملاهي الليلية. الموسيقى والغناء في كل مكان. في السوق المركزي للمدينة تسمع السي ديهات، رخيصة الثمن، للقابيلي، والراب خليط اللغة العربية والفرنسية، وأيضا الموسيقى التقليدية المشبعة بالحس العثماني.
أهدتني إحدى الصديقات هناك، والتي تمتلك هي وزوجها مكتبة خاصة تقام فيها ندوات ثقافية؛ مجموعة من السي ديهات التي اخترتها من مكتبتها الموسيقية في الدور الثاني. بعد جولتي في مكتبتها اخترت مجموعة من السي ديهات على سبيل الشراء، لم أدرِ بأنها تجهز لي مفاجأة وأصرت ألا تأخذ المقابل. أُحرجت من هذا العدد المُهدى من السي ديهات.
بعضها كانت للمغني القبائلي الشهير «إيدير» (حميد شريت)، وهو فنان «قابيلي» أو «قبائلي» ينتمي لقبائل الأمازيغ. ويعتبر سفيرالأغنية الأمازيغية في كل أنحاء العالم كما يُعرفه محرك البحث «جوجل». ولد في الجزائر عام ١٩٤٩ في قرية آيت لحسين في منطقة القبائل. أصبح من أحب المغنين بالنسبة لي ونافذة صوتية على هذا العالم القبائلي.
أستطعم في فمي وأذني لفظ «قابيلي» كما ينطقونها، عن «قبائلي» كما تنطقها اللغة العربية. هناك سهولة وغموض وسحر في لفظ «قابيلي».
في حي القصبة، الحي التركي القديم، وهو الحي الشعبي الذي يحتوي على كثافة سكانية عالية وطرازه خليط من المباني العثمانية والعمارة الفرنسية. سِرت هناك ولم أشعر لحظة بأني غريب، ولم يشعرني أحد بهذا بأن ينظر لي مرتين. حي مثل حي الجمالية في القاهرة والأنفوشي بالإسكندرية. أحياء نشد الرحال إليها، فقر وزحام وتاريخ، وربما هذه الأشياء هي ما تعطي للحي قداسته المدنية. متاهة حقيقية، أصعد من مستوى لآخر، عبر سلالم أو أنفاق لا ترى إلا طاقة ضوء في نهايتها. بيوت مهدمة وحمامات تركية كل عدة خطوات. تسللت إلى أكثر الممرات ضيقًا، و لم يتغير شعوري تجاه ألفة الناس، أو ألفتي تجاه نفسي. لم أكن بحاجة لأن أعرّف جنسيتي، فبمجرد أن أتكلم يعرفون بأني مصري «مصر أم الدنيا». أفرح لهذه الصورة التي ما زالت تحتفظ بها الشعوب عنّا.

وسط الحي وزحامه وضوضائه واتساخاته ينتصب العيش الباجيت الفرنسي في أقفاص كبيرة أو على طاولات محتفظا بمهابته وشموخه وبطعمه الأنيق، لا يختلف عن أناقة العيش في أي حي آخر أرستقراطي في العاصمة.
في البهو الواسع للفندق، أثناء فترة إقامتي، تم تصوير عدة مشاهد من فيلم جزائري ـ فرنسي مشترك، واختاروا هذا الفندق لأنه أنشئ في فترة الاستعمار التي تدور حولها أحداث الفيلم. شاهدت أحد المشاهد لسيدات يرفلن في فساتين واسعة بورود حمراء وزرقاء، ويلبسن قبعات كبيرة مائلة على رءوسهن، ويحركن مراوح بأيديهن بحركات عصبية وسط هذا الجو المشبع بالرطوبة، وهناك رجال ببذل كاملة وقبعات من الخوص وبابيونات كبيرة على أعناقهم. في الأيام التالية كان الممثلون والفنيون يشيعون جوا طريفا على مائدة الإفطار وفي بهو الفندق وحديقته، لأيام عاد الفندق إلى زمنه الاستعماري القديم.
في المدينة الرومانية بتيبازة، وعلى إحدى صخورها المطلة على البحر المتوسط، وأمام جبل شبَّهته مرشدتنا بأنه مثل جسد المرأة الحامل المضطجعة على ظهرها. هنا جاء «ألبير كامو»، المولود بالجزائر، وجلس على تلك الصخرة وكتب أحد أعماله. عدد كبير من الكُتاب الفرنسيين، كانت الجزائر بالنسبة لهم معبرًا للتخلص من الذنب.
الإسكندرية ـ يولية ٢٠٠٦

التيه في لوس أنجلوس

انتظرت في صالة الركاب لمطار لوس أنجلوس لمدة ساعتين إضافيتين بسبب تشابه اسمي مع اسم أحد المدرجين المجهولين في تلك القوائم السوداء المحشورة في حواسب المطارات. جلست في حجرة زجاجية مع مجموعة من شتى البلاد، من إيران وسوريا، والهند، وأمريكا اللاتينية. جميعهم كانوا يجلسون على حافة الاشتباه. تحولت الغرفة الزجاجية لغرفة للهويات المرتهنة. كل فرد منا يمثل هوية يجب أن تبرئ نفسها أولا حتى يسمح لها بالمرور للمدينة. كان هناك ثلاثة ضباط، سيدتان ورجل، يجلسون خلف مكتب كبير، وأمامهم شاشات وتلفونات يرسلون ويتلقون التعليمات منها. بجواري مسافر إيراني أخذوا يستجوبونه ويضيقون الحبل حول رقبته، حتى يقع في الخطأ، ويعيدون عليه كلاما قاله في أوراق أخرى عن أسباب سفره للوس أنجلوس. وأنا في انتظار تلك المكالمة التي ستأتي من واشنطن لتثبت أنني لست مطلوبا، تساءلت خلال ساعتَي الاحتجاز، ماذا لو جاءت المكالمة بالإيجاب وأنني بالفعل مطلوب؟ هل يمكن أن يطول ويتحور سوء الفهم البسيط والمسلي هذا ليتحول إلى مأساة. ساعتان قضيتهما ألهو مع قلقي، وأنا أنظر من وراء الزجاج لسلوى زوجتي التي مرت بدون مشاكل، وانتظرتني بالقرب من تلك الغرفة الشفافة بجوار الحقائب، وهي تبتسم من بعيد، ابتسامة الواثق من براءتي! حاولت خلال الساعتين أن أخطو خارج هذه الغرفة فجاءني ضابط مدجج بالسلاح ونهاني عن ذلك، فعرفت أني محتجز حتى إشعار آخر.

شارع أخدود أشجار الغار (Laurel Canyon)

سِرنا في شارع أخدود أشجار الغار (Laurel Canyon). اسم جميل لشارع طويل يخرج من حضن أسطورة إغريقية. نبات الغار، أو اللاورو، هو النبات النبيل لشجرة دائمة الخضرة طوال شهور العام تزرع في حوض البحر الأبيض المتوسط. يستخدم هذا النبات لصناعة أكاليل الغار التي كانت تاجًا على رءوس الآلهة الإغريقية والفائزين في الأوليمبياد. ويستخرج منه أيضا بعض الزيوت العطرية التي تدهن بها الملكات أجسادهن، ويقال إن الملكة كيلوباترا كانت إحداهن. ويستخدم كذلك كمُنكِّه للطعام. عادة ما كانت سلوى تستخدم ورق شجرة اللاورو في وجباتنا، وبعد برهة من المضغ المتعثر ألتقط تلك الورقة التي تسربت إلى فمي بالخطأ، كما تسرب يونس إلى بطن الحوت.

في إحدى تفريعات هذا الشارع الطويل «Westwood Drive»، الذي يقع في وست هوليوود (West Hollywood)، سأمكث أنا وسلوى لمدة شهرين في إحدى فيلّاته الأنيقة التي لا تغيب عنها الشمس بداية من الساعة الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء، بسبب التصميم الزجاجي الذي وضعه المهندس النمساوي الشهير «رودولف شندلر» ١٩٣٠. وقد تبرع أصحاب الفيلّا لتكون مكان إقامة للكُتاب والفنانين القادمين للوس أنجلوس. في أول ليلة قضيناها في هذا البيت الزجاجي، من فرط انبهاري بالمنظر الطبيعي من حولنا، رفعت الشيش حصيرة عن كل النوافذ أو الحوائط الزجاجية في غرفة النوم، ومن مكاني على السرير كنت أنام على قمم الجبال، كأننا في صندوق زجاجي نتجول وسط أمواج متحف الطبيعة المفتوح.

لطول الشارع قسمنا السير على يومين. هناك نقاط صمت طويلة، لا تصادف سوى العربات المسرعة، وطريق جانبي صغير مقتطع من الشارع خصص للسير، كأنه وصلة قماش زائدة. السير على الأقدام شيء صعب للغاية في لوس أنجلوس. أفرح قليلا عندما أجد نقطة ثابتة، متكأً، رصيفا، محلا، أو إحدى الفيلّات التي تعكس إضاءاتها على الشارع المظلم. في إحدى فيلّات هذا الشارع الطويل المعرشة بأشجارالجهنمية سكن فريق الدورز (Doors)، وغيره من الفرق التي غيرت مذاق الغناء في لوس أنجلوس والعالم بأسره في الستينيات.

من الصعوبة أن ترى ساكني تلك القصور والفيلّات، إنهم ليليون كالخفافيش، ومحاطون بدروع من الحدائق والأشجار غير المشذبة، وذات الأشواك، بالإضافة للبوابات العالية. خطوات وتصادف مدخلا صغيرا لطريق سريع (Freeway). مداخل الطرق السريعة لا تُلحظ أيضا، كغرزة بالخيط الخطأ. لا توحي بأنك ستمضي وتدخل تلك الشبكة الجهنمية من الطرق الواسعة، التي تربط أحياء ومقاطعات لوس أنجلوس ببعضها البعض. علامة صغيرة كباب هروب خلفي يفضي لصحراء.

ندور في شوارع جميعها دخلت تاريخ السينما، عبر أفلام حملت أسماءها: شارع أخدود أشجار الغار، ماهولاند دريف، سانتا مونيكا بوليفار، وسن سيت بوليفار، سهل سان فيرناندو، بيفرلي هيلز، ويست هوليوود، فينتورا، ستوديو سيتي حيث توجد استوديوهات السينما العالمية، هوليوود بوليفار، الشارع السادس، الشارع الثالث. هذه الشوارع الواسعة والطويلة التي يقطعها الأتوبيس أو المترو- كما يسمونه هنا- في عدة ساعات مملة كأنها أبدية مدبنية. شوارع خُططت لتكون علامة فارقة في تاريخ المدن، أو خُططت بمقياس رسم مفرط في اتساعه. إنها شرايين المدبنة التي ربطت تلك الصحارى الواسعة، وكونت مدبنة الملائكة، مركز الخيال الحديث، أو أن الخيال الحديث هو الذي كان يبحث عن شكل جديد له فوجده هنا في أمريكا.

يتوسط الشارع جبال وهضاب ومرتفعات، تتناثر عليها بيوت الأثرياء. في الماضي كان أخدود وسط هذه الجبال المكسوة بأشجار الكافور والصنوبر وغيرها من الأشجار الصحراوية، ثم مضى الزمن، وتحول هذا الشق العميق، الذي يبدو كالجرح الغائر في جغرافية أخطاء الطبيعة، إلى شارع. تركوه كما كان، بكل أخطائه، بنفس تعريجاته ومنحنياته الكثيرة وارتفاعاته وانخفاضاته. في كل منحنى يتفرع طريق يصل لأحد الفيلَّات. أعتقد أن شبكة الطرق صُممت برغبات أفراد بنوا بيوتا على تلك الهضاب، ثم تشكلت الشوارع تبعا لتوزيع تلك البيوت، وأزالوا ما صادفها من عوائق. الهضاب أولا ثم الملكيات الفردية هي السبب المباشر في هذه الالتواءات والمنحنيات الكثيرة التي تصادفها في أي شارع هنا في لوس أنجلوس، خاصة في منطقة غرب هوليوود حيث كنا نقيم. الرغبة الشخصية أو الملكية الخاصة (Privet Property) تلت الطبيعة في أولويات بناء المدن، التي ولدت وهي في تحدٍّ دائم مع الطبيعة.

مركز العالم

في لوس أنجلوس كنت أشعر بأنني في مركز العالم. المركز الفارغ، الذي لن تلحظ قوته إلا بمرور الوقت. المركز هو تاريخ للتحولات وليس الثبات. ربما النقطة الثابتة الوحيدة هناك هي الصحراء. فالمركز ليس نقطة ثابتة أو بلورة سحرية تحدق فيها، إنه الإحساس بالتيه والضياع، وإحساسك بأن المركز نفسه مفقود، وأن الأرض من تحتك غير ثابتة. ربما هو المفهوم الخاص الذي طرحته أمريكا لفكرة المركز. روح وقانون الصحراء لم يختفيا. كان من الصعب القضاء عليهما مع من تم القضاء عليه من أصحابها الأصليين من القبائل المكسيكية التي كانت تستوطن ولاية كاليفورنيا.

لم أجد في الشوارع أي دلالة على الخمسين عاما التي تتقدم بها أمريكا على أوربا. ربما هي محجوبة بين أرقام سرية في دهاليز المفاعلات النووية، أو في وكالة ناسا، أو في معسكرات تبنى على القمر أو تحت الأرض للهرب ساعةَ أنْ تحين الساعة. ربما في ميكنة أساليب العيش الحديثة، وأنظمة البنوك والصرف الخيالية. ولكن في حياة الشارع لا وجود لها إلا في هذا الإيقاع الذي لا يتحرك بمركز واحد، بل بسطح من العشوائية المحسوبة.

الشارع بسيط في حياته، منظم، له مواقيت، كأنهم يجتمعون في مكان آخر، وأنه أصبح رمزا قديما للاجتماع والتبادل اليومي. إنه أثر للشارع، بالرغم من ضخامته، كأنه خصص فقط للمواكب الكبيرة والاحتفالات الضخمة. الشارع بمعنى اللقاء هو العربة. العربة هي المركز الذي يتحرك من مكان لآخر، محطة المترو، المترو، أماكن وقوف العربات حيث المنادي يشير لك ليلا بعَلَمه الفسفوري وملابسه الفسفورية على منافذ الانتظار، وأمام الأبواب الخارجية للبارات والمطاعم حيث طابور المدخنين.

في أي مكان ثابت كالمطعم أو داخل المول، هناك شاشات عملاقة تنقل لك حركة تحدث في مكان آخر. لا يهنأ أي مكان بالهدوء وسط هذا القناع الهادئ للحياة. يهنأ فقط باختفاء المركز. فالهدوء يوحي باستقرار كتلة ما داخله. الهدوء هنا هو انتظام سرعة الدوران للكون المدبني كما تسير الأرض مع الشمس والقمر، فلا تُلحظ الحركة. ما زالت أمريكا تجربة دولة، ولوس أنجلوس تجربة مدبنة، إنها مدبنة احتمالية. ربما الجميع يعيشون، بدون أن يدروا، وهم مغمورون تحت هذا السطح الاحتمالي للبقاء. عندها تكون فكرة الثبات لا معنى لها وسط عالم يمكن أن يزول! كأن لسان حالهم يقول: احتمال أن تنجح تجربتنا. إنه الترقب اليومي. إنك مازلت داخل معمل تجارب، وليس دولة. معمل تجارب لتكون دولة/ أمثولة العصر الحديث.

ورقة الكوتشينة الضائعة

فقدنا الطريق إلى البيت عند عودتنا من اجتماع للجالية العربية في مقهى فرموزا بشارع «سانتا مونيكا». كان من أجل التحضير لمهرجان للسينما العربية. سرنا في شارع «سانتا مونيكا» ومنه لشارع «سن ست» الموازي، ومنه بدأنا الطريق الصاعد في شارع أخدود نبات الغار. استغرق السير ساعتين حتى وصلنا لبداية شارعنا الطويل. في إحدى لحظات القنوط من السير، بعد أن غصنا تماما في هذا الأخدود/الجرح العميق، وبدأنا نتشمم رائحة رطوبة طلائه؛ اقترحت على سلوى اختصار الطريق يسارا، حتى نبعد عن طريق العربات. فكرت بفكرة الاختصارات التي أتبع هداها في مصر، وأنني بهذا الاختصار العرضي، الذي يتلوه السير للأمام كأنك تسير موازيا الشارع العلامة. كان الاختصار كارثة. واجهتنا مجموعة من الانحناءات، سرنا وتوغلنا فيها كأننا نسير في متاهة بالفعل. أصبح التراجع صعبا بعد هذا التوغل، فكثرة الانحناءات التي عبرنا بها غيرت من موقع هذا الشارع في ذاكرتنا. تغريك المتاهة بالاستمرار فيها حتى الغرق، حتى تفقد أي أثر لخطواتك السابقة. من الصعب أن تجد أحدا لتسأله عن الطريق. شوارع ضيقة تفضي لشوارع واسعة لتفضي هي الأخرى لشوارع ضيقة والهضاب تحوطك ومن بعدها الجبال، وفي الأسفل بعض السهول ترسل أضواء بيوتها.

كان هذا الطريق المختصر الذي سلكناه، ومن المفترض أن يفضي بنا إلى البيت، أفضى بنا لطريق آخر يمر من وراء أحد الجبال. وجدنا أنفسنا في ظل هذا الاختصار قد تخطينا البيت، وكل علاماته، وخرجنا لمنطقة لا نعرفها، فزاد إحساسنا بالتيه. كان كل ما نعرفه في هذه المنطقة الجديدة هو هذا السهل المليء بالأشجار والتي تنبعث منه إضاءات خافتة. لم يكن سهلا واحدا، بل كانت هناك عدة سهول تتوسط تلك السلسلة من الهضاب.أصبح موقعنا الجغرافي، كأوراق كوتشينة اختلطت، فما عدت تعرف ورقة حظك التي تاهت وسط أوراق منافسيك. لم ينقذنا سوى رجل خرج من بيته في هذا الوقت المتأخر ليُفسِّح كلبيه القزمين. دلنا على الطريق. من هنا لهنا لهنا، أخيرا وجدنا شارعنا وسط هذا الظلام الحالك.

لا توجد خريطة منطقية للسير وللتخمين وللحدس في لوس أنجلوس. كان الزمن يتضاعف بقوة ونحن تائهان. تكبر مساحة المدينة في قلبينا حتى تبتلعهما، ونتحول بمرور الوقت لنقطتين عالقتين في بحر واسع، أو في محيط أكثر اتساعا، أو في صحراء كانت البذرة المخصبة لولاية كاليفورنيا. تخطيط المدينة لا يقوم على فكرة المركز أو العقل المدبر الذي يمكن الحدس بنظامه بمجرد الاستغراق في نظام عقلك المبني على المركزية، أو على النقطة الجوهرية التي تتفرع منها باقي النقاط، ومنها يمكن الرجوع أو الخروج أو الاستدلال. هناك نظام آخر، به مس من العشوائية، أو الامتداد للأمام وللخلف والتلوي والانحناء بدون مركز واضح. ربما هذه الحركات الكثيرة هي التي تصنع مركزا. ربما المركز بهذا الشكل هو رحلة الوصول والبحث والإحاطة، روح التجربة وليس ماديتها.

لا أقصد بالعشوائية غياب النظام، بل هو نظام جديد، مغموس برغبة دفينة. هناك علاقة بين الشوارع والجنس. في لوس أنجلوس تخرج تماما من فقاعة الأمومة، والغلاف المائي الذي سبحت فيه صغيرا. إنك عارٍ تماما وغير مدرب أمام هذه العشوائية. هناك خشونة براقة كخشونة الجنس الذي يُمارَس للمرة الأولى. الفرح والخوف من الفشل، وإسباغ المتعة حتى تغطي على أي إحساس. الدهشة والاندهاش.

«لاند سكيب»

الأشجار حيثما توجد، وهي بكثافة لافتة، لهما نفس اللمسة العشوائية. الحدائق غير منظمة بالشكل الأوربي، مساحات من العشب الهائم، ليس بها مركز أو مساحة خضراء مربعة أو دائرية أو مستطيلة تتوسطها. ليس بها محاكاة لفردوس قادم أو مفقود، إلا أن يكون هذا الفردوس اختراعا أمريكيا، فردوسا أرضيا. هذا الحس العشوائي المتكرر في كل الشوارع والمتنزهات (Parks)، يظهر تلك الرغبة في المحافظة والتأكيد على حضور الطبيعة كما هي. فالطبيعة ما زالت تحمل هنا بعض سجاياها، وبدون أن تنظم وتدخل تحت سيطرة العقل الفردوسي. الطبيعة هنا هي التي تعطي قِدمًا لتلك المدينة الحديثة. هذه العشوائية والهضاب والمرتفعات والسهول تُركت كما هي، لتمنح المدينة بعض القداسة الرعوية، أو بعض البذاءة اللازمة في حفلة كلاسيكية.

الطبيعة خشنة. الخشونة هي التي تحمي هذا الثراء أو العكس. كل القصور والفيلَّات والملكيات الخاصة تطل منها أشجار لها أشواك، وأشجار أخرى لها درجة من السُّمية. ربما هو شيء غير متعمد، ولكنه أحد أوجه الطبيعة المفضلة هنا. هذا الثراء ابن لهذه الطبيعة الخشنة ومتعددة الأوجه. الطبيعة، بكل تمثلاتها، هي مرجع الأثرياء بكل حواشيها وزوائدها النفسية، أما الشارع فهو مرجع الفقراء بامتياز.

الشارع يظهر كـ«لاند سكيب» قبل المرحلة التعبيرية، قبل أن يظهر به الإنسان أو الطيور الجارحة كما في لوحات «فان جوخ»، أو كاتدرائيات سيزان. ولكن خلف هذا الـ«لاند سكيب» السرمدي تشعر بأن هناك عالما على وشك الانفجار، عالما من المغامرين الأوائل، والآباء الأوائل، الذين هاجروا لهذه السواحل الممتدة ليثبتوا مبدأ المغامرة. فالمغامرة، وبدون التفكير مليًّا فيها، هي المحرك لكل هذا. المفاجأة، الطفرة، الصدفة، أو الحدس، هي المحركات لهذا العالم. تماما كالتضاريس التي تحتوي في ثناياها على هذا الكم من التنوع، والاختلاف، والزلازل، ولكنها في النهاية تنتظم وتصنع كونًا تحسبه منسجما. كل هذا الجمال الطبيعي يعيش فوق لغم طبيعي أيضا، يعيش داخل حزام الزلازل، ففي أي لحظة يمكن أن يزول.

في القصور الشاسعة، أو بمعنى أصح في المقاطعات التي يملكها أفراد، هناك تنبيه في الخارج أنها «ملكية خاصة»، حتى لا يختلط الأمر عليك وتعتقد أنها حديقة عامة. الأسوار مكهربة ولها نظام أمني محكم وإعلان بأن هناك كاميرات تسجل عليك أي شيء عند مرورك بهذه المساحة العامة. أولًا لكي لا يجرح عليك أيضا ملكيتك الخاصة أو حريتك في التنزه في أي مكان، وفي الوقت نفسه يضعك أمام الأمر الواقع: أن هذه الحرية الشخصية أيضا مراقبة، وتقف أمام هذه الأبواب المكهربة مذعورة ومرتبكة وحذرة، فهذا الثراء عليه أن يحمي نفسه.
أعتقد أن كل مدينة تورث طريقة تفكيرها لساكنيها، تمنحهم تلك الخريطة الخفية والمتوارثة عبر أجيال وأجيال، وعبر مراحل تطورها، وعبر شقائها وعُقدها النفسية لتكون على ما هي عليه.

الشارع الثالث

في اجتماع الجالية العربية، التقينا هناك بفتيات مصريات من صعيد مصر. في مكياجهن وملابسهن شيء منفر، كأنهن فتيات ليل مرهقات. هناك شيء لم يأتلف بعد مع مجتمعهن الجديد ليمتلكن رقمه تأنقه السري. الجسد هو الموطن أو المكان الشخصي الذي يستحق الإفراط والتدليل وسط هذا السياق الضاغط بقوته وثرائه وتناقضاته. فالذروة، أو البطولة، أنت مدفوع إليها بقوة جاذبية طبيعية أكبر من قوة الفرد على تجاهلها أو التعالي عليها. سواء كانت ذروة المتعة أو ذروة التأنق أو حتى ذروة الإحباط. ربما يغيب هنا هذا المكان المتوسط، أو هو غير مؤكد، الذي بنينا حياتنا في مصر على الوصول إليه، والمكوث داخله حتى الموت.
في استراحة بين رقصتين التقيت بالدكتور حسن ساسي. هاجر من ليبيا منذ ٤٥ سنة، وله زوجة سكندرية، تعرف إليها أثناء تحضيره للدكتوراه في الهندسة الإنشائية في سان فرانسيسكو. يعتبر عميد الجالية هنا، وجدته يرقص ويغني ويشرب بنفسية ساطعة. لم يخيب ظني في أي من المرات العديدة التي التقيته فيها خلال فترة مكوثنا، وكان السبب في شبكة العلاقات التي سيفتحها لنا في رحلتنا للقاء المهاجرين. اتفقنا على اللقاء في الغد بجوار مكان عمله كما كتب على ورقة صغيرة «٩١٥ ويلشاير بوليفار».
استغرقت رحلتنا لمدينة لوس أنجلوس حوالي شهرين، كان الغرض منها الكتابة عن هذه المدينة، وبالأخص عن وضع المهاجرين العرب فيها، عن تلك الهويات التي يحملونها ومدى مرونتها في استيعاب أي هوية جديدة في تلك المعادلة الحياتية الأصعب في العصر الحديث: الهجرة.
ركبنا مترو ٢١٨، الذي سيصبح المترو الصديق القريب من بيتنا، في تقاطع شارع أخدود نبات الغار مع ماهولاند دريف. يشبه أتوبيسات المدارس في الستينيات. وصلنا لمحطة فير فاكس. أغلب المحال التي تقدم الأطعمة اليهودية توجد هناك. سحابة من القلانس السوداء للشباب والكبار على السواء. هذا الرمز الصغير الذي يشغل مؤخرة الرأس له قوة حضور في الشارع، ألتقطها من على بُعد، ككلب يتحسس دليلا. من هناك وصلنا الشارع الثالث، أنيق في بعض أجزائه. تداخل بين عدة مستويات اجتماعية، كأنه موجز مبسط لتاريخ الطبقات والهجرات. مررنا على الحي الصيني، صعدتْ للمترو بعض السيدات المسنات ذوات الملامح الصينية. مررنا على عربات يد خشبية تبيع العصير بطرق بدائية يقف عليها مهاجرون من أمريكا اللاتينية. في حي اللاتين، القريب للغاية من الداون تاون، هناك العشرات من العاطلين الذين يجلسون أمام عتبات بيوتهم أو على النواصي. شظايا غرف مرهقة منثورة في الشوارع، مراتب ملقاة في عرض الطريق، وأثاث قديم حُمل برائحة وضوضاء عدة بيوت تنقل فيها. سلالم حديدية كسلالم الخدم يقف عليها ساكنو تلك البنايات الاقتصادية من النساء ليتبادلن حديث العصاري. مدارس حكومية لها أسوار من السلك. يتشبث به،

كما في الأفلام الأمريكية، زوج أتى ليرى ابنه من بعيد، لأن المحكمة أصدرت حكما بعدم اقتراب الأب من ابنه. عيادات خشبية للأسنان، ومسيح مصلوب على الجدران له ملامح مكسيكية، وعلامات وشعارات ماركسية تفرش الحوائط. محال للبقالة تبيع السلع الرخيصة. أخيرًا ظهرت في السماء ناطحات السحاب المميزة لمنطقة وسط البلد.
وصلنا الشارع السادس مع تقاطع شارع هوب. نزلنا هناك.

الداون تاون

الداون تاون منظم، شوارع طولية وعرضية واسعة بدون أي انحناءات أو التواءات كما في غرب هوليوود. هنا سوق العمل والبيزنس وناطحات السحاب والفنادق المشهورة والمسارح وصالات الغناء، ورجال الأعمال، والمطاعم الملآنة حتى نهاية ساعات الدوام. هنا عقل المدينة المخطط، ومكان التسكع الحقيقي.
هذا العقل يعمل أيضا لفترة واحدة، كأي موظف أو صاحب عمل. بعدها يخلد للراحة. كل هذه العمارات والمكاتب والمطاعم والشوارع تتحول بعد الساعة الخامسة إلى مكان مقفر، كما في فيلم «الملك الصياد» لـ«تيري جليام»، لا يبقى فيه سوى حراس البنايات ونفايات الصباح من الأوراق والأكواب الكرتونية للقهوة المثلجة. يبدأ الصمت من جديد يفرش حدوده على الداون تاون. هناك لحظات صمت وخلاء طويلة تتخلل السلم الموسيقي للمدينة.
سِرْنا حيث كان «مايكل جاكسون» يغني في إحدى الساحات. إحدى المكتبات الموسيقية كانت تذيع أغانيه. مجموعة من ساكني الشوارع (homeless) يفترشون الأرض مستندين على حوائط أسمنتية، وهو مشهد سيتكرر كثيرا. في بعض الأحياء القريبة من وسط البلد سنصادف حيا كاملا من هؤلاء الهائمين، يعيشون في خيام ووسائل إعاشة خاصة وبسيطة. كأنها مدينة تحررت من المدينة الأم، ورفعوا عليها راياتهم «Little Homeless».أثناء مرورنا بالسيارة هناك، زادت مرافِقتنا من سرعة السيارة، وقالت لنا لا تنظروا لأي أحد منهم في عينيه. النظر في العين مباشرة يعتبر في عرف الهائمين إهانة أو تحديًا، أو هكذا تتصور مرافِقتنا الأمريكية. مررنا بسرعة ككاميرا مثبتة أمام عدائين! ينظرون لك باستجداء ساخر كما في الأفلام تماما. أنتظر سماع تلك الجملة «مام آي آم هنجري مام».

الهوية هي علاقات الدم

وجدنا الدكتور حسن ينتظرنا في الصالون الأنيق للبناية العملاقة التي يعمل بها.اصطحبنا بضع خطوات للمطعم القريب حيث يتناول غداءه اليومي. كان المطعم مزدحما في ساعة الراحة هذه. انتظرنا نصف ساعة حتى فرغت إحدى المناضد. المطاعم هنا أخذت صفة التعملق من المدينة، جميعها واسعة بشكل ملحوظ كأنها مطاعم وردية عمال أو مساجين، تقدم الخدمة للمئات. قليلة هي المطاعم ذات النكهة الشخصية والزبائن الدائمين. تصنيع كثيف للإنتاج.
حكى لي دكتور حسن عن المرة الأولى التي جاء فيها إلى لوس أنجلوس: «يوم ٢٥ يوليو ١٩٦٧ لما وصلت هنا طلعت من طرابلس على شركة «تي دبليو إيه» لروما، ومنها لسان فرانسيسكو. وصلت الساعة ٥ صباحا. كنت بدويًّا طالعًا من المطار، ومن بلد تبعد حوالي ٧٠٠٠ ميل. تصور وأنا نازل من الأتوبيس شايل شُنطي عشان أروح على الداون تاون بتاع سان فرانسيسكو، لقيت واحدة ست الساعة ٥ الصبح ماشية لوحديها وبتغني. تصور! قفزت في الهوا من الفرحة وقلت: «هذا المكان هو المكان الذي أنتمي إليه» (This is where I belong.)».

وعندما سألته عن مفهومه للهوية وعلاقتها بمكان الميلاد، قال: «الهوية بالنسبة لي هي علاقات الدم. الوطن هو علاقات الدم. هنا وطني، هنا أولادي وأحفادي وزوجتي. ولما أموت هطلب أدفن في الحتة اللي مت فيها، مش هشترط إني أدفن في مقبرة إسلامية».
لقد أمسك الدكتور حسن بالهوية من مؤخرتها بدلا من رأسها، من لحظة الموت، وليس من لحظة الميلاد، كأن الهوية إجابة لاحقة، عندما يتحول الجسد إلى رماد!
«أول ماجيت هنا حسيت إني منتمي للمجتمع الأمريكي، دخلت فيه وأصبحت ناشطا سياسيا وفنيا، واشتركت في الحركة الأمريكية ضد الحرب في فيتنام. وشعرت كأني مولود في أمريكا. المنطقة التي عشت بها في بداية حياتي في سان فرانسيسكو كانت منطقة متحررة، والناس كان عندهم قبول لطالب أجنبي، ماكنتش أعتبر نفسي طالب أجنبي. الأمريكان أخدوني بالأحضان. أنا كطالب كنت متقبل أي حاجة تحصل. كان عمري وقتها ٢٤ سنة. المجتمع الطلابي دايما مجتمع متفتح تقدمي بيقبل حاجات تانية، وده اللي ساعدني لما جيت هنا. لم أشعر أبدًا طوال ٤٢ سنة قضيتها في لوس أنجلوس بأي تمييز عنصري».

قداس الأحد في كوفينا

في السابعة صباحا وصلنا بصحبة مريام- دليلنا في لوس أنجلوس، في منتصف الثلاثينيات، ولِدَت هناك، ولها أصول فارسية - إلى ضاحية كوفينا لحضور قداس الأحد. فقد ألمح لي الدكتور حسن بوجود كنيسة قبطية هناك، تلتف حولها جالية مصرية من الأقباط. المكان هادئ للغاية ويعتبر نموذجا للريف الأمريكي الستيني. البيوت الخشبية ذات الطابق الواحد أو الطابقين، والشرفات التي ترتفع درجتين، وتطل على حديقة صغيرة، على أطرافها شجرة الصبار الخالدة رمز الغرب الأمريكي، ومن خلفها شباك زجاجي له ستائر مزركشة لوحدة تراقب الطريق العام. كل بيت نسخة من البيت الآخر، ولا توجد به الخصوصية أو الخشونة الراقية كالتي توجد في المدينة نفسها.
حكى لي فوزي، وهو أحد المتطوعين لتنظيم القداس، أن خمس عائلات مسيحية جاءت من مصر في الستينيات، واستوطنت هذا المكان، ثم أجَّرت بيتا لإقامة الصلاة. بعدها بنوا كنيسة مكان هذا البيت المؤجر الذي استوعب تلك الصلوات الملهوفة للمهاجرين الجدد. بزيادة أعداد المهاجرين تم بناء كنيسة جديدة، عن طريق أخذ قرض من البنك وبعض التبرعات، مع الاحتفاظ بالكنيسة القديمة التي استقبلت أول صلاة. في الكنيسة القديمة ما زال القداس يقام باللغة العربية، أما في الجديدة فيقام باللغة الإنجليزية. هناك فرق واضح في مستوى المترددين على القداسَيْن، حيث يحتفظ القداس الإنجليزي بطبقة راقية من الأقباط، كأنك في إحدى المدارس الخاصة الجديدة في مصر، بينما القداس الآخر تشعر داخله أنك في مدرسة حكومية بلا أسوار في أحراش الصعيد.
حضرنا، أنا وسلوى، القداس العربي، بينما ذهبت مريام لحضور القداس الإنجليزي. في البداية شاركتنا شطرا من القداس العربي. كانت تلبس فستانا أسود قصيرا جدا وبدون أكمام، وصدرها مكشوفا. يبدو أن فوزي المسئول عن القداس وجد أنه من غير المناسب أن تتواجد وسط هذا التجمع الصعيدي المحافظ، فأسرَّ لها في أذنها وقامت معه للذهاب للناحية الأخرى حيث القداس الإنجليزي.
كان أغلب السيدات والرجال المتواجدين بالقداس من الطبقات الشقيانة في صعيد مصر. لم يتخلوا عن ملابسهم التي تعود لحقبة الستينيات والسبعينيات. ربما هي الملابس التي صاحبتهم في رحلة الهجرة عندما وطأت أقدامهم أول مرة هذا المكان. من ساعتها توقف الزمن. حتى أطفالهم الصغار

عاشوا في أسر الأذواق القديمة لآبائهم، ينتعلون في أقدامهم صنادل بيضاء رخيصة، ويلبسون ملابس ذات ألوان فاقعة وتتدلى شرائط ملونة من الضفائر المدهونة بزيت الزيتون، والتي اجتهدت الأمهات في تمشيطها في الصباح الباكر. أما السيدات فيرتدين الملابس الحشمة التي تصل لتحت الركبة، وفوق رءوسهن يضعن الطرحة السوداء الشفافة، ولهن أجساد مدكوكة نزعت منها منطقة الوسط، ولم تتأثر بإعلانات الرشاقة والتمرينات الرياضية التي تملأ شاشات التلفزيون وتمارَس عمليا يوميا في الشوارع. أما الرجال فهم كالموظفين القدامى، المحالين حديثا إلى المعاش، الحزام المشدود بقوة على الوسط، والجريدة المطوية في اليد، والجيوب الخلفية الساقطة من جراء المحفظة المنتفخة بالأوراق والعناوين والوصفات الطبية. منهم من يرتدي البدلة الصيفي، التي تشبة بدلة الجيش.

الخجل عند الدخول، والخشوع الزائد عن الحد، والالتفات يمينا ويسارا قبل الجلوس، والإحساس الدائم بأن هناك من ينظر إليك من بعيد. لقد حملوا معهم في حقائبهم كل العلامات اللامرئية التي كانت تحيط بأجسادهم ونفوسهم في مصر.

استغرق القداس حوالي ٣ ساعات كاملة.

الجيل الجديد من أبناء هؤلاء المهاجرين، لهم نفس خفة دم نظرائهم في مصر، بعكس أجيال آبائهم وأجدادهم. ربما لأنهم لا يواجهون بديانة أخرى تضغط على وجودهم وتحملهم مشاعر الدونية أو القهر أو أي مشاعر سلبية، تسحب منهم خفة دمهم، أو تجعلها ماسخة لا طعم لها كما عند الأجيال القبطية القديمة. لذا هم يعيشون في فضاء غير ضاغط أكسبهم الثقة وخفة الدم. تماما كالشباب المسلم في مصر، يكتسب خفة دمه من ثقة مكتسبة، بدون أن يدري أو يكون مؤهلا لها، لأن ديانته هي الديانة الأكثر انتشارا. فالسخرية، وخفة الدم، قد تكون موجهة ضد المجتمع ولكنها متشربة بثقة تمثيل واسع لثقافة هذا المجتمع. تمثيل له القدرة على إنتاج رأي أو مشهد أو تعليق دال وساخر في آن.

بعد القداس عرَّفنا فوزي على الدكتور بهنام. من شبرا، هاجر عام ٨٨ وعمره ٥٠ سنة. اصطحبنا الدكتور لكافتيريا تقع أسفل الكنيسة، بها مقهى كبير، تجمع فيه ما لا يقل عن ٣٠٠ فرد من زوار يوم الأحد. انتشرت الضوضاء المصرية، التي من أهم سماتها أن يتكلم الجميع في نَفَس واحد. بالإضافة لصراخ الأطفال، وروشنة فتيات في سن المراهقة، وشباب في نفس السن يدورون حولهن ثم يصعدون بعيدا عن عين العائلة، إلى الفناء الواسع للكنيسة، ليسيروا في حلقات، أو يتباروا في إلقاء النكات ذات الإيحاءات الجنسية المهذبة جدا، أو يذهبوا في مشاوير محسوبة بعربات آبائهم للدوران حول الكنيسة عدة دورات لتسخين العربة ليس إلا. ولكن الجميع متواجدون داخل الكنيسة القبطية في ضاحية كوفينا بمدينة لوس أنجلوس، التي تقع في ولاية كاليفورنيا، ومن حولهم سور عالٍ يفصلهم عن أي زمن آخر. تلمح شجرة العائلة التي تضم عدة أجيال وأعمار وطموحات والجميع متعلق بها كثمار أبدية، ولا مجال للنضج والسقوط منها.

لم يكن قبطيا ولم أكن مسلما

قراءة القداس باللغة العربية به أخطاء نحوية فادحة. تسمع لغة جديدة أقرب للعامية، ولكنها عامية خاصة. لم تعد أمامهم خيارات، فاللغة القبطية ولَّى زمن تعلمها، والفصحى هُم بشكل ما ضدها لأنها لغة النظام الرسمي، أو لغة السلطة التي يودون الخروج، بل هم الخارجون عنها بالفعل. لم يبق أمامهم سوى العامية. عندما كنت أستمع للبابا شنودة في أحاديثه، أو لأحد الأساقفة، أشعر أن لغتهم منزوع منها ذكورتها، ناعمة، كمربع ممسوح الزوايا، حنينة، كحكاية قبل النوم.

في السفر تتسع فكرة الوطن، ولا يبقى منه سوى هذا البناء العقائدي، واللغة المهجنة. الوطن يتحرك مع الإنسان أينما ذهب، حتى ولو كان في صورة الحنين. الحنين هو صورة من صور استدعاء الوطن بعد غيابه. فغيابه هو الأهم، لأنه يحررنا من مشاعر مغلقة ومن تلك الدوائر الدوامية من الضغوط. ربما يكون الوطن هو الموت أو النجاح أو الخوف، وليس المكان الذي ولدت فيه. ربما يكون هو علاقات الدم، الحب، أو أينما تجده، وليس المكان الذي ولدت فيه. ربما كل هذا هو ما دفع هؤلاء الأقباط أن يرحلوا بعائلاتهم ويبنوا مكانا جديدا هنا متحررا من ضغوط المكان الأول الذي جاءوا منه. نعم يعيشون في جيتو كما يبدون، وهو نوع من التمثيل والمحافظة على المجال النفسي لفكرة الوطن الذي جاءوا منه، حماية روحية لا أكثر ولا أقل. وهو سلوك كل الأقليات هنا، تعيش في جيتو، ولكنه جيتو متسع من الداخل، جيتو بدون أسوار. ولكن الوطن نفسه غير موجود إلا في الذاكرة.

أثناء جلوسي مع دكتور بهنام، شعرت، ولأول مرة، بأنه ليس قبطيا. إنه مثلي، فلست أنا في هذه الحالة مسلمًا. في مصر تشعر بالفوارق، أما هنا فلا تشعر بها. والسبب يعود إليه، أو للمكان الذي جمعنا معًا. لقد نفض تلك السمات القديمة المميزة لشخصية القبطي في مصر، واختفت الضغوط والخطوط التي تخلق العنصرية والاختلاف، سلبا أم إيجابا.

قال لي دكتور بهنام عندما سألته عن ما حمله معه من مصر:

« ذكرياتي في مصر هي الحب. ماكنش فيه حاجة اسمها مسلم ومسيحي، أعز أصدقائي همَّ المسلمين في مصر، والدكاترة الكبار اللي علموني. مصر دي عايشة فينا، ومش ممكن ننسى البلد. التلفزيون بتاعي شغال طوال النهار على القنوات المصرية، مابشوفش غير الأفلام المصرية.أنا هنا مش حاسس إني بعيد عن مصر، مابحسش بأي غربة، وأي ذكريات ليا في مصر بتساعدني إني أعيش هنا، كلها ذكريات حلوة وجميلة. إحنا من جيل اتربَّى واتعلم بشكل كويس، وعشان كده ممكن إننا ننجح في أي مكان نروحه، ومانحسش إننا أغراب. لما جيت هنا ماحستش بأي قطع في الذاكرة».

هوية جديدة

هذه الهوية الجديدة التي اكتسبها أقباط المهجر لم تتحقق بالصراع، كما كانوا يعيشون في مصر. أي هوية خاصة في مصر تتحقق بالصراع مع شيء أكبر وساحق. أيًّا كان هذا الشيء: الدين، الأغلبية، التقاليد. إنهم يملكون هوية جماعية وليست فردية، يتكلمون باسم الوطن الغائب ولكن ليس في حضوره، إنهم ممثلون لشيء لن يستعاد وليس من المهم أن يستعاد. فهم يدفنون هنا حيث نهاية الرحلة.

قديما كان هناك صراع بين هوية قديمة وهوية جديدة، وربما ما فرض هذا الصراع الظروف السياسية لمصر والعالم، التي شكلت الناس بالضغط على هوياتهم من خلال سلب فرديتهم بطرق كثيرة. الفردية، هذا النصل الحاد المدفون في أي إيمان جماعي. الهوية مرتبطة بفردية تبحث عن نفسها وعن محتوى لها. أصبحت الفردية ملتبسة بفكرة جماعية سواء دفاعا عن عقيدة أو كتلبس لعقيدة جديدة. في ظل أي فكرة شمولية ستضيع الهوية الشخصية أو تتخبط في تساؤلات ومشاعر لا تعنيها، وإنما تعني أكثر هذه الفكرة الشمولية.

ليست هناك/ هنا هوية جديدة بالمعنى الإبداعي للكلمة، وإنما تماسات خفيفة مع الذاكرة، وغشاء من الدموع عندما يُذكر اسم مصر أو صوت أم كلثوم، كما في ذاكرة الدكتور بهنام. فالوطن مفهومه تغير، وبالتالي الإحساس به تغير. أصبح وطنا مرحا تستقبله في ذاكرتك كما تستقبل نسائم

الربيع. الحنين كان يخص أجيالا معينة تربت داخل إطار شمولي وجمعي، وأصبحت هويتها مسحوقة. أخشى أن يكون الحنين بالمعنى الذي أعرفه في مصر هو أحد منتوجات غياب الحرية والكبت والاستسلام للجماعة، لتلك الذات التي أحملها، معتقدا بأن كل ما تشعر به هو أحد عناصر فرادتها، بالرغم من أنها في هذه الحالة، الحنين، تبني بهذه المشاعر جدارا طويلا سيحول بينها وبين رؤية نفسها في المستقبل. الحب شيء آخر، إنه علاقة متبادلة، حتى ولو كان من طرف واحد، الحب إرادة شخصية، أما الحنين فهو إرادة جماعية.

صندوق الهويات المتحرك

عربة المترو أحد أماكن التواصل الاجتماعي الخافت والتي لا تتاح داخل فضاء المدينة. تختلط اللغات والهويات، داخل هذا الصندوق المتحرك ببطء وكثير التوقف.لا يركبه سوى البسطاء والطلبة والعجائز من كل الجنسيات، كل من لديه وقت طويل من عمره أو من شبابه لينفقه بسخاء وسط هذا النظام الذي يثمن الوقت. نادرا ما تُستعمل فيه اللغة الإنجليزية، كأنه فيلم بلغته الأصلية غير المترجمة. تسمع الإسبانية، الصينية، الروسية، ولكن الإنجليزية هي أقل اللغات. تتصاعد حدود وحواجز اللغة، فالمترو تمثيل أيضا للمسافة ولكن عبر أحد مجازاتها وهي اللغة.

تشاهد بداخله حالات متطرفة من العزلة، ربما لا تلحظها بنفس الشفافية في الشارع. أشخاص مصابون بفصام حاد، من يكلم نفسه، من يكلم ماضيه، من سقط سهوا من ذاكرة المدينة، من يتجرع من زجاجة الخمر مباشرة ثم يدسها تحت ملابسه، ينظر إليك ويضحك، لأنك شاهد على مخالفته للنظام، وفرحه لمخالفته النظام. بالرغم من ازدحامه إلا أنه لا يخلق حوارا إلا في النادر. أو أن الحوار هو هذا التلامس العفوي بين الأجساد، واصطدام العيون، والتي لا تتاح في أي مكان آخر بهذه السهولة. شباب يضع السماعات على أذنه ويتموج بإيقاع سريع هاربا من هذا الإيقاع البطيء. وفتيات يستخدمن طلاء الأظافر لليد والأقدام بدرجات قانية، وتجده متآكلا من الحواف، ربما بسبب تسليتهن بقضم وحك أظافرهن أثناء ساعات الركوب الطويلة لتقليل التوتر. وأحيانا يمددن سيقانهن العارية بفظاظة على الكرسي المجاور، كي يمنعن أي راكب من الجلوس. المترو إحدى الوسائل لتتبع تلك الحيوات المرهقة التي تمتلئ بها المدينة.

لطول الزمن الذي يقطعه المترو، تجد الكثير من الركاب يدخلون في حالة من السبات. أصبحت مثلهم، تعودت على إيقاع المدينة، استسلمت لهدهدة المترو الذي تحول إلى عربة أطفال. لحظة آمنة أرتد فيها إلى أحلامي الخاصة وعاداتي الخاصة. يصبح الحلم الشخصي هو التذكار الذي لا تلتقطه من الطريق، ولكن من مدارات بعيدة، من تلك الروابط الدقيقة التي تربطك بالآخرين الذين تحبهم.

السير في لوس أنجلوس

السير في لوس أنجلوس شيء مستحيل. السير بمعنى التسكع في الشوارع، والتقاط التذكارات، والذوبان في حالة من التيه والنسيان. إنه سير منظم، وسط الشوارع المتسعة والتي تفضي لشوارع أخرى أكثر اتساعا، سلسلة من الشوارع كبيرة الحجم، والتي تمتد إلى ما لا نهاية بحسابي الخاص للمسافة وللملل. شوارع تقرأ بها رقم ١٠٠٠٠على أحد البيوت، ويظل التناقص ٩٠٨٠، ٩٠٧٨. الرقم الذي ربما لا تصادفه إلا في البنوك. مسيرة الأعداد التي تخترق المدينة طولا وعرضا. شوارع يشعر داخلها الفرد بالذوبان، ليس في شأنه الخاص، ولكن في النظام الذي يقف وراء هذه العملقة البادية في كل شيء. الأشياء الصغيرة هي التي تصمد لبناء ذكريات، أما الأشياء الكبيرة فتقوم بصياغة الفرد نفسه وتحوله إلى تذكار كتلك النصب المجهولة في كل مكان، كتلك التماثيل

المصبوبة لآخرين مروا، وكانت مأثرتهم أمام ضخامة المدينة أن يقوموا بفعل خارق، أيًّا كان هذا الفعل، عاقلا أم مجنونا. إنها مدينة، برغم هدوئها، تدفع الفرد لأن يتمدد خارج حدود نفسه بحثا عن عمل خارق يرد له اعتباره.
تقرأ المدينة عبر الشاشات والخرائط و«الجي بي إس». كل موبايل أو عربة بها جهاز توجيه من القمر الصناعي «جي بي إس». الخرائط شيء طبيعي كرواية لها إحداثيات وخطوط متداخلة ورموز ومفاتيح لفك الشفرات. بدون الخريطة أنت تائه أبدي، تدور في دائرة مفرغة، ولكن بدون يأس التائهين. تستقبل إيميلًا من صاحب الدعوة مرفقا به خريطة توضح كيفية الوصول إليه. تكثر كلمة شمالي كذا أو جنوبي كذا، غربي كذا. عندما كانت صحراء، كانت الاتجاهات تعني الآخر الجغرافي. الاتساع والمرجع هما ما منحا هذه الاتجاهات الصماء حسا تاريخيا كأنها بلدان لها سمات ومشاعر. كلما اتسعت المدينة أو الولاية يجب أن تحملها في ذاكرتك أو على مظروف الخطاب بأقل الرموز، كاليفورنيا تصبح «CA» ولوس أنجلوس تتحول إلى «LA». إنها فاتحات الكتاب/ المدينة. ربما هي أيضا إحدى مفارقات المدينة. فكما تدخل من شارع ضيق لتفاجأ بشبكة من الطرق الصحراوية، تفتح باب الرموز لتجد مدينة ونظامًا يسكنان خلفه.
تتسع حدود المدينة، كلما توسعنا في الرؤية ودخلنا في عالم الرموز والاحتمالات والخرائط. تكثر لحظات الانفصال وتطول فترات الصمت والشوارع المهجورة من الدفء البشري. لو اعتبرنا أي مدينة هي سردية متصلة. سردية المدينة هنا تقوم على الانفصال المتواتر، والمترو هو القارئ المحايد لهذه السردية، الذي يقرأ نص المدينة ويغوص في متاهاتها كالكولونيل «أورليانو بوينديا» في رواية «ماركيز» «مائة عام من العزلة».

الصحراء هي المركز

في ساعات الذروة، وهي ممتدة، يتحول الـ«فري واي» إلى شارع داخلي في «الداون تاون». الكل داخل العربات ينظر للأمام، لا يخلق الـ«فري واي»، بالرغم من ازدحامه، أي علاقات اجتماعية بين الركاب. قلما أن ينظر أحد للآخر في العربة المجاورة، ليلتقط صورة أو حتى يتخيلها عن هذا الجار. من النادر أن تجد راكبا في المقعد المجاور لكرسي القيادة. لا توجد عائلة في العربة الواحدة، فكل أفرادها متفرقون يقودون عربات مشابهة في أماكن أخرى أو على نفس الطريق. ربما فقط تجد عربة الأطفال المثبتة في الكنبة الخلفية، هي المشترك الأعظم بين العربات. يشعرك الـ«فري واي» بحس السفر وأنت مازلت داخل المدينة. فمن حولك لا تجد سوى الجبال أو النباتات الصحراوية أو الأشجار تحف بمسيرتك، أو قمم تلك المباني لشركات ومحطات تلفزيونية، ذات الواجهات الزجاجية الضخمة التي تعكس صور السرعة على واجهاتها.
السفر مزروع داخل تكوين المدينة، وربما في نشأة أمريكا نفسها، فالمساحات الشاسعة من الأراضي، والصحاري، والجبال هي التي خلقت تلك الفكرة. فالمدينة هنا كما تتشكل روحها عبر تضاريس جغرافية كالجبال والسهول والهضاب، تتشكل أيضا عبر تضاريس أخرى كالاستقرار والسفر، الإقامة والترحال، خط الأفق البعيد، ونقطة الزوال التي لن تقترب منها.
دائما ما تصطدم بالجبال، أو تجدها تسير بجانبك، أو تلف حولها. إن كان البحر في الإسكندرية أو النيل في القاهرة، هما مركزَي المدينتين، فهنا في لوس أنجلوس، الجبال هي المركز، ومن تحتها تمتد المدينة كواحة ترقد على فوهة بركان. المركز هنا خارج المدينة وليس في منتصفها، أو محاذيا لها، إنه تماس يحدث على الحواف حيث تقع الجبال ومن حولها تتمدد الصحراء بلا نهاية.

الصحراء هي التي ولدت منها لوس أنجلوس، المركز الذي منح هذه المدينة وأغلب مدن كاليفورنيا حياتها.

فرقة «ميستو»

صحبنا الدكتور حسن ساسي لحضور بروفة لفرقة «ميستو»؛ وهي فرقة يقودها مهاجر فلسطيني هاجر للوس أنجلوس في الثمانينيات، اسمه دكتور نبيل عزام، من عرب ٤٨، وحاصل على دكتوراه في موسيقى عبد الوهاب. كان ناجحا في إسرائيل ويعزف في أوركسترا تل أبيب، ولكنه أصر على الهجرة: «أنا اتربيت في بيت وطني، في بيت متحضر سياسيا واجتماعيا. أنا كنت مدلل في تل أبيب، بنات، نجاح، وكل حاجة، كنت مبسوط على الآخر. كان عندي صديقات إسرائيليات. بس لواحد فلسطيني عايش هناك، مش عايز أنسلخ عن شعبي، ماكنتش عايز النجاح والتدليل ده من جانب الإسرائيليين. عشان كده جيت هنا على لوس أنجلوس سنة ٨٢».

عندما سألته عن فكرة الحنين أو التمييز العنصري بالنسبة له كفلسطيني يعيش في أمريكا، فاجأتني إجاباته التي خرجت كطلقات الرصاص، كأنه يفصل بعصاه السحرية، التي يقود بها الأوركسترا، بين طبقة موسيقية وطبقة أخرى مختلفة تماما:

«مافيش غربة، مافيش حنين، ماعنديش المصطلحات دي. اللي بيحس بالغربة هو اللي بيخاف أو اللي كرامته بتتهان. حنين إيه؟ أنا كل يوم بتكلم مع خيَّاتي التلاتة. أنا باكل أكل من البلد: الزيتون من البلد، الخيار من البلد، الزعتر. أنا مبسوط أكتر من هناك. ماحدش هنا خوفني ولا كرامتي اتهانت. الحنين بحسه لما مراتي تغيب عني يوم. هنا بلدي وهناك بلدي، كله بلدي».

يوميا يتحدث دكتور نبيل مع أخواته البنات في فلسطين عبر الإسكايب، وينقلن له كل شيء يحدث من حولهن، أخبار الأفراح والموت، والولادة، حتى أصوات الكلاب «لما بيعوي كلب هناك بسمعه هنا».

أقيمت البروفة في مكان يقع في «الداون تاون» يبعد عن بيتنا حوالي ١١ ميلا. الفرقة يتجاوز عدد أفرادها ٤٠ عازفا، ثلاثة فقط هم من أصول عربية. استمعنا لألحان عبد الوهاب، وكم كان غريبا ومدهشا، أن في هذا المكان البعيد تستمع لتلك الألحان. أحسست بشيء داخلي يتحرك، وكما سيسميه جوزيف شمعة، أحد عازفي الفرقة، عندما سأحدثه فيما بعد «العقل الباطن». عقلي الباطن كحجر الطفولة منقوش عليه ألحان عبد الوهاب، فعندما استمعت لها من جديد استيقظ هذا العقل الباطن في ربوع كاليفورنيا.

في منتصف البروفة دخلت سيدة أمريكية تجاوزت السبعين من عمرها، من الباب الخلفي للصالة، وهي تجر عربة صغيرة، كعربة الخضار، تحمل عليها الكمنجة الخاصة بها. توقف العزف، وجاء د. نبيل بالسيدة لتجلس بجواره. أخبرني فيما بعد أن هذه السيدة وصلت للسابعة والسبعين، وقد تأخرت عن البروفة لأنها ذهبت لزيارة زوجها للمستشفى، ثم عادت لتحضر البروفة.

الموسيقى مكان جديد، مكان روحي، قد يكون حزينا أو سعيدا، ولكن أهميته أنه أخفى تماما المكان الأول، أخفى ماديته وتفاصيله، وبعثه كذبذبات في الهواء. كل هؤلاء العازفين الأمريكيين، توحدوا في تلك اللحظة لبناء هذا الوطن الموسيقي.

يفتخر د. عزام أنه صحب عبد الوهاب عند ذهابه لأحد الأطباء في لوس أنجلوس. دخل معه غرفة الكشف، وساعده في خلع ملابسه. هذه المساحة من الجسد والضعف التي سمح بهما عبد الوهاب لدكتور نبيل عزام تحولت معه لمساحة خصوصية مكنته من أن يرى بها جسد عبد الوهاب كما يرى بها ألحانه، التي يعتقد بأنها عبقرية، وأنه الأقدر على الغوص في متاهاتها، وحل أسرارها.

أثناء البروفة خرجت للتدخين في الخارج. وجدت شخصا يقف في الظلام وفي يده بعض الأكياس. يبدو أنه كان في طريقه للبيت واستوقفته ألحان عبد الوهاب. كان يستمع للألحان بشغف، تحدثنا قليلا، عرفت منه أنه مهاجر من إسرائيل وقد شدته أصوات الموسيقى الشرقية فأجَّل عودته للبيت. صدقت نظرية «جوزيف شمعة».

اللغة وطن بديل ولكنه مجرد ومختزل

الجميع هنا أجمعوا أن طوال إقامتهم هنا لم يسألهم أحد عن أصولهم أو ديانتهم، فمن الحمق أن أؤكد دائما أن فلانا أمريكيا ومن أصل كذا. إنه سؤال بعيد عن البال أو تفصيل زائد لا معنى له. فالبلد يكون لينسى الجميع الهوية الأولى. إنه بلد النسيان، حتى يتوحدوا تحت الهوية الجديدة. فنفي هذا السؤال من حوارات الحياة اليومية أحد أساليب المكان الجديد ليستوعب هوية بلا ذيول ظاهرة على الأقل. ليتم التعايش اليومي بدون ملحقات ظاهرة للوجود. ربما اللغة الأصل ما زالت موجودة، ولكنها موجودة ليس كما قال «هيدجر» «اللغة هي الوطن»، ولكنها «اللغة هي الوطن البديل»، بمعنى استرداد الكرامة باللغة، المشاعر باللغة، الحماية باللغة. أهمية اللغة أنها ترحل مع صاحبها، بعكس المكان فهو ثابت. اللغة وطن متحرك له خاصية أن يعيش في أي مكان، موفرا الحماية اللازمة للمنتمين له.

الجنسية العالمية

عندما قابلت «جوزيف شمعة»، أحد عازفي الكمان في فرقة «ميتسو»، ومن قبل كان يعمل في فرقة السيدة فيروز حتى عام ٨٤ عندما داهم البيت المجاور لهم في بيروت الشرقية صاروخ، عندها قرر الهجرة، قبل أن يصبح بيتهم هو أحد أقدار الصاروخ القادم. التقينا في بيته في حي شيرمانوكس، في شارع شندلر. حددنا مكان اللقاء عبر الهاتف، تقاطع شارع لورال كانيون مع فينتورا. رحت قبل ميعادي بعشر دقائق، فوجدته منتظرا قبلها بعشرين دقيقة. توقعت هذا في شخصيته الشكاكة. وبعد أن أجريت معه الحديث في البيت والتقطنا الصور، طلبت منه أن يوقع على أحد تذكارات حفلاته التي أخرجها لي من أحد الصناديق، فرد ردا عجيبا: «طبعا أنا مش همضي زي ما بمضي الشيك!». بهت من الرد، فأي معلومة شخصية هناك توقع بالاستفادة بها من الآخرين، وهي إحدى صور تعقد هذا المجتمع. هناك شفرة للتعايش فيه، لا يمكن أن تعيش بدونها ومن غير المستحسن أن تكون معلنة.

البيت بسيط يقع في بناية صغيرة في الحي الذي مات فيه المواطن الأسود «رودني كينج» سنة ٩٢ من جراء تعذيب ٤ ضباط بيض، وقد برأتهم المحكمة فتحول الحي إلى شعلة نار. على الباب مباشرة أيقونة السيدة العذراء، وهناك صورة أخرى للعشاء الأخير للسيد المسيح. زوجته أنتوانيت ولدت في القدس وهاجرت عائلتها وهي صغيرة للبنان، واستقرت هناك. تشعر في البيت بأنك في أحد بيوت الطبقة المتوسطة القديمة في مصر.الأثاث العتيق الذي يشغل مساحة كبيرة من البيت بحيث لا يترك فرصة لساكنيه من أن يتحركوا بحرية، بجانب خلع الأحذية بجوار باب الدخول. عندما سألت زوجته عن رأيها في جوزيف، قالت: «جوزيف رافع راسي ومخليني مفتخرة بيه، بيحب كل الناس ومسالم».

كتب جوزيف مخطوطا لكتاب سماه «الجنسية العالمية» دعا فيه أن يتعلم العرب العبرية ويتعلم اليهود العربية منذ الصغر. الأزمة بالنسبة له ليست تفاصيل هذا المجتمع الجديد ومشاكله وعلاقة الهويات، وإنما الصراع بين اليهود والعرب.

«مشكلة أي واحد جي هنا إنه يكون عايز يفرض فكرته على المكان، إنه يقول مثلا أنا مصري. في الحالة دي هتحصل المشكلة».
«إحساسي إن أنا عندي جنسية عالمية، اتولدت في مصر الجديدة، واشتغلت مع فرقة نيللي مظلوم، وسِبْت مصر في الستينيات ورحت على بيروت، وبعدين جيت على لوس أنجلوس، يعني صارت أفكاري بعد كل العمر اللي عشته بعدد البلاد اللي عشت فيها، صارت عندي أفكار شخصية وذكريات شخصية. الجنسية العالمية إنه تبقى كل الناس جنسية واحدة. مافيش اختلافات، الإنسان هو اللي بيخلق الاختلافات. فيه ناس بتستفيد من وجود الاختلافات دي».
« في لوس أنجلوس لقيت إنه الأمريكان هنا بيجننوا. بيحترموا الواحد شو مكان بيحترموه. وهذا الاحترام مابيخلهمش يتدخلوا في شئونك الخاصة. يعني فيه احترام وحياد. بيقفوا عند حد الاحترام. مابيتدخلوش مع الواحد أكثر».
وعندما سألته عن الموسيقى هل ساعدَته على نسيان صوت انفجار الصاروخ في البيت المجاور لبيتهم في بيروت، «الموسيقى ساعدتني على إحساسي بالجنسية العالمية، الموسيقى أصلا مالهاش وطن، وبتأثر في كل الناس باختلاف جنسياتهم. الموسيقى عملت لي الهوية الجديدة أو الهوية العالمية زي مابسميها».

الجنة ليست في التعدد

في لوس أنجلوس ليست الجنة هي التعدد والاختلاف، فأي تعدد مهما كان مثاليا يحمل تناقضات كثيرة مشحونة بالانفجار، ولكن هناك نوعا من التواطؤ المتاح بين كل هذه الاختلافات، نسبة مقبولة في سبيل أن يرضى بك المكان، لأنه عوَّضك عن هجرتك، عوضك عن بلدك، فأي واحد هنا هو «مهاجر» بمعنى ما. لماذا نُصر على أن نحتفظ بهويتنا، بالرغم من أننا تركنا بلداننا؟ هل لأنها شريط القطار الموازي لأعمارنا، ولو فقدناه فقدنا الطريق للرجوع؟ هل الهجرة هي الأخرى ما زالت تجربة يمكن التراجع عنها في أي لحظة، والاحتفاظ بالهوية الأصلية مثل صندوق الذكريات القديم المركون في صندرة البيت؟ أليست الهجرة تخليا واكتسابا في الوقت نفسه؟ الوجه الآخر للعملة هو القبول بهذا التواطؤ المشروع، تنسى هويتك، أو لا تجعلها طافية على سطح كلامك وآرائك، ومع الوقت تصبح هناك هوية جديدة، مزيجا أو كولاجا، أو تعصبا، أيًّا كان، ستتكون تبعا لشخصية كل واحد، ومدى تعامله مع الضغوط والعشوائية، ومدى نجاحه في هذا المجتمع الجديد. تعود «الفردية» لتطل برأسها. فرديتك لن تُسحق أمام هذا الاختلاف، الجماعة. وربما هي الفضيلة لهذا المجتمع، التي يجب ألا تُمس، لأنها لو انهارت ربما انهار الأساس الذي يقوم عليه نظام المجتمع. النظام لا يريد أن يحطمك، يضع حدودا ليمتصك بدون أن تنهار!

عنف المدينة الخفي

بعد أسبوعين من إقامتي هناك لم أشعر بعنف المدينة كما توقعت قبل قدومي، تلك الطاحونة اليومية التي تطحن المشاعر الكبيرة التي حملتها معي وتحولها إلى بودرة. كنت أقول لسلوى، بين الحين والآخر، إنها مدينة جميلة، كل شيء يسير على ما يرام. لم أشعر بتلك المواجهات النفسية الحادة التي تطبق وتضغط على نفسك التي تسافر معك، وتدفعها للتساؤل عن جدواها بل والشك فيها. ربما العنف قد تسرب تحت جلد هذه المدينة. أصبح هناك قدر يقتسمه الجميع وهم مسلِّمون به. ربما زمن الصراع واقتسام الغنائم وتوزيعها، قد تم سلفا، وجئنا في اللحظة التي تحوَّل فيها هذا الصراع الماضي إلى حكاية. حكاية تسلمك لحكاية. ربما هناك اختلافات حادة في مستوى

المقاطعات والأحياء، والمجموعات العِرْقية التي تعيش فيها، ولكن في النهاية هناك تسليم بالقَدْر المسموح به بالحركة.
عنف المدن الحديثة ربما ستختفي مظاهره الأعمق من الشارع، وسيتواجد في أماكن أخرى. باستثناء تلك الحكاية غير المكتملة، والتي ربما ستظل غير مكتملة حتى نهاية المدن، هؤلاء المشردون الذين لا يملكون مسكنا، ويعيشون حياتهم في الشارع، وكما قال أحد الأمريكيين لي: «يقتلك من أجل عشرة دولارات». هم أيضا أصبحوا حصة مقررة في كل بلد، حكايتها غير المكتملة. نعم هناك شفقة جماعية عليهم، ولكن لا توجد مدينة بدون شفقة وجوعى، أليست رحلة المدن من بداية تكونها، توازي رحلة الإنسان، تنحو لأن تكون بلا قلب، بلا رومانسية، سطحا من العلامات المتحركة التي تنتج نصا باردا لا يقبل التأويل؟
ربما العنف الحقيقي الذي شعرت به بمرور الوقت، أن المدينة أقنعتني بأنها مكاني وليس هناك اختلاف أو فواصل بيننا. تغريك أو تخدعك ببساطتها الظاهرة، ولكن تشعر بعدها بأن هذا التشابه الظاهري ليس إلا عتبة تخفي اختلافا أعمق لم ولن ألمسه، إلا كواقع ثقيل لأني لم أعش تجربة الهجرة، كسطح من الزجاج الذي تصطدم به يوميا لأنك لا تراه.

الحي الصيني

الهجرة هي الولادة لحياة جديدة، والولادة وإن كانت بحد ذاتها مكانا جديدا، ولكنها لو تزامنت مع رحلة لمكان آخر، فبالتأكيد سيكون هناك مولود له صفات خاصة، المسافة حبل مشيمته. فالرحلة التي قطعتها تلك العائلات المهاجرة هي التي جعلت للوس أنجلوس وأمريكا مولودا بهذه القوة وبهذه الصلادة. كما هي رحلة عائلات أرهقها السفر وطول المسافة وصعوبة العيش، هي أيضا رحلة جينات مغتربة، تحورت عبر انتقالها واكتسبت خواص جديدة. كل من أتى لأمريكا، لا بد وأن تكون هناك رحلة صعبة تسبقه، وحكاية تقف خلف ظهره. لقد استفادت أمريكا من تلك المواجهات التي عاشتها تلك الجنسيات والإثنيات والجينات المهاجرة. في النهاية أصبح كله في صالحها. لقد سمحت فقط بدخول العدائين الأقوياء الذين لم يتعثروا في الطريق.
فكرة الخصوصية المفروضة كسياج على أي فرد ربما يكون أصلها هو فكرة العصامية أو التواريخ الشخصية للبناء وتأسيس المكان، وبالمرة تأسيس الفردية. لم يكن هناك أحد يساعد أحدا، وإنما بُني كل شيء بالجهود الذاتية، حتى الذكريات. لذا من الصعب أن يشاركك أحد فيها، لأنها رأس مال رمزي. تعقدت هذه الخصوصية عندما دخلت في دوائر من التنافس والخصومات، وفي دورة أكبر من رأس المال، وتوسع معها المجتمع، وزادت المخاوف، وقل الإحساس بالأمان. الأمان هو ابن مكان أصيل، حدسي، كشعور فطري بالانتماء. أما الانتماء هنا فقد زرع بالعضلات. الهجرة مكان قلق، كما المكان الأصلي مكان قلق، ولكن قلقه خافٍ، ومستأنس. ولكن القلق هنا طافٍ بلا جذور عميقة يضرب فيها، ولا يمكن استئناسه. قلق مؤقت ودائم في آن، لا يمنع الشخصية من التقدم. قلق ينظر للمستقبل بعينين مفتوحتين وبقلب بارد أو خائف أو مرتجف. ولكنه في النهاية ينظر للمستقبل.
زرنا المتحف الصيني الذي أقيم مكان «شينا تاون» القديمة قبل أن تنتقل لمكان آخر. هناك شبه بين هذا المتحف والمتحف اليهودي في برلين. تاريخ هجرات أيضا. هنا تاريخ المكان يبدأ بتاريخ عائلة. لم تدرِ هذه العائلة بأن المكان سيؤرَّخ باسمها وبتاريخ هجرتها. تاريخ الهجرة هو التاريخ الأساسي هنا في لوس أنجلوس، المتعددة الهجرات، وليس تاريخ الميلاد أو تاريخ الوفاة. الهجرات وما يتبعها وما يحيط بها من تأسيس مكان آخر، وولادة حياة جديدة، ومتاعب وأعراض هذه

الحياة. وسط هذا التاريخ تصبح المتعلقات الشخصية واليومية هي المادة الأساسية في التأريخ: الحذاء، الصور، الملابس، دفاتر المذكرات، دفتر الوفيات، سلسلة المفاتيح، ماكينات الخياطة، الخطابات، العملات، المذكرات، التوابل التي كانت تستخدم في المطبخ، أدوات الطعام. عبر هذه التفاصيل تم تشييد المتحف. هناك شاشات تلفزيون تعرض صورا، وهناك من يحكي من ورائها حكايات هؤلاء الأشخاص. كبار وصغار، ماتوا بالطبع، ما زالوا يبحلقون في الكاميرا، ينظرون إلينا ونحن نستمع لحكاياتهم. الحكاية ابنة هجرة، وهي السياق الذي يمكن أن يلضم تلك التفاصيل والمتعلقات، بدون أي إحساس بالترهل.

عشرون ألف عامل صيني هاجروا للوس أنجلوس بداية من ١٨٤٠ من أجل العمل، ولم يصحبوا معهم سوى ١٧ امرأة. كان ممنوعا عليهم مصاحبة الزوجات أو الأولاد تبعا للقانون الأمريكي آنذاك. قبل التحاقهم بالعمل كانوا يُحجزون في مبنى لمراقبة حالتهم الصحية قبل السماح لهم بالعمل. طوال فترات الحجر، التي قد تطول، كان بعضهم يقضي وقته في كتابة الشعر. شعر الانتظار والترقب، أو تذكُّر الديار. على أكتاف هؤلاء الذين عانوا من الحرمان الجنسي طوال سنين، وخوفهم من أي جرثومة حملوها من بلدهم قد تحول بينهم وبين أحلامهم؛ تم تأسيس هذه المدينة، وتم فرش الأرض أمام الأجيال الجديدة الشابة الذين يمرحون الآن في الشوارع بثقة واضحة. ثقة من له جذر عميق داخل هذه الأرض، وهذا المكان.

الفكرة العصامية تقف وراء كثير من الأحداث والتفاصيل الهامة في لوس أنجلوس. الذكريات والتاريخ الشخصي هما جوهر ملكيات الفرد. التاريخ الشخصي غير وارد الغوص فيه، ليس لأن هناك سرًّا يُخشى عليه، بقدر ما هو أحد الممتلكات كالأرض والبيت التي لا يجب أن يقترب منهما أحد «private property». هذه اليافطة التي تجدها باستمرار كلما تحركت. كل ما تم التعب فيه، ولم يمنح نفسه بسهولة، يعتبر ملكية خاصة. فما بالك إذا كان هذا الشيء هو التاريخ الشخصي نفسه، هو الإطار المقدس ذو الشرائط الذي يحفظ كل ما حدث؟ إنه الحكاية الكبرى.

شارع برودواي - (مسارح تحولت لكنائس)

في رحلتنا للداون تاون مررنا على شارع برودواي، الجزء اللاتيني منه. شارع المسارح والأضواء والنجوم. كل هذا اختفى، أصبح مثل ميدان المنشية في الإسكندرية أو ميدان العتبة في القاهرة، يبيع البضائع المضروبة والأفكار المضروبة، ويجمع بين جوانحه الكسولة كل عاطلي المدينة. كل ما هو رخيص تجده هناك، ملابس أفراح، صاغة، محلات أجهزة كهربائية، مطاعم رخيصة. قابلنا هناك بعض الشباب الذين يعتقدون بأن المسيح كان أسود. جميعهم يمسكون بالتوراة في أيديهم. ويلبسون ملابس صوفية خشنة مصنعة يدويا، ولونها أصفر، تشبهًا بالمسيح، ومن تحتها يلبسون الجينز. دور يؤدونه لساعات. كانوا يعرضون على الأرض صور مذابح السود اللاتين وهم مشنوقون على الأشجار. عندما عرف أحدهم بأني مصري قال: «إن المصري باليوناني يعني العبد». وأكمل: «اذهب لبلدك سريعا، عُدْ ولا تنتظر للغد».

مسارح كبيرة تحولت لكنائس، في إحداها وسط المقاعد الذي تتسع لـ ٢٢٢٢ كرسيا، وسط الثريات والفخامة القديمة، أضيئت مقدمة المسرح حيث يشغل مقاعدها بعض المتفرجين. على الخشبة يقف مبشر وضع بجواره على إحدى المناضد صليبا وشمعدانا يهوديا جنبا إلى جنب. وقفنا في الخلفية نتفرج، وخرجنا سريعا. لحقَنا أحد أتباع هذه الطائفة لكي يدعونا للدخول مرة أخرى والاستماع للعظة. شاب أسمر من أمريكا اللاتينية، عمره حوالي في منتصف العشرينيات. كنا زبائن مهمين،

لأن أي زبون جديد في تلك الطائفة التي لا يزيد عددها عن العشرات، في هذا العرض المسرحي الخافت، سيكون له تأثير.

مشهد من سينما الستينيات

في طريقنا لشاطئ «سانتا مونيكا»، والذي يستغرق الذهاب إليه في المترو حوالي ساعتين، صادفت هذا الأمريكي الأسود. كان يلبس قبعة حمراء، وجاكت أحمر وقميصا أسود وبنطلونا أسود، مع ربطة عنق حمراء، وحذاء ببوز رفيع وغمازات معدنية كحذاء كلينت استوود في «الطيب والشرس والقبيح» لـ«سيرجيو ليوني»، ويضع على عينيه نظارة سوداء. كان معرضا للأحمر والأسود. وبجواره تجلس صديقته أو زوجته الأمريكية البيضاء، ذات الشعر الأحمر المجدول، مع قوام طويل، وحذاء بكعب عال، وترتدي جوربا أسود بخروم كبيرة كجوارب الغانيات في أفلام «سيرجيو ليوني» أيضا. لفت نظري أنا وسلوى هذا المشهد، أحسست أنني في زمن آخر. ولكن لم يكن وجودهم غريبا بالنسبة للباقين. كانت نزهة يوم الأحد لهذا الأمريكي، وكان يصحب معه أولاده، وبدلا من أن يجلسهم بجواره، أجلسهم في مقعد بعيد، وبين وقت وآخر يذهب إليهم ويتحدث معهم، ثم يعود ليجلس بجوار غانيته الشمطاء ويتبادلا الحديث بدون أن يخلع نظارته السوداء.

الاتساع المرعب

هذا الامتداد الأفقي المخيف للوس أنجلوس، كأنك تسير في مدينة لا تنتهي، وكان السبب في هذا العمران الأفقي، بدلا من الرأسي، هو الخوف من حزام الزلازل الذي يحوط بالمدينة. أعتقد أن أول رأس مال دخل المدينة وأمريكا بشكل عام، هو هذا الاتساع، هذه الوفرة في الأراضي، ومنها بدأت وفرات أخرى، وأشكال أخرى من الفردية والخصوصية، والاستسلام والمسافات، وغيرها من الأشياء التي وفرها الاتساع. إنها أرض الميعاد الحديثة التي أبيد أهلها الأصليون، ربما لأن حلمهم فوجئ بهذا الاتساع الخرافي الذي يملكونه، فقط عندما ظهر لهم هذا الآخر المستعمر!

«كانت المفاجأة عندما حضرت للوس أنجلوس هي اتساع المدينة. تشعر أنها أكبر من شخص أتى من بلد عربي، أن يستوعب هذا الكبر والاتساع بسهولة. استمر هذا الوضع لمدة ٣ سنوات حتى أدركت فقط النظام الذي يسيّر المدينة. النظام هو الذي شكل لي صدمة وليس الثقافة، كي تدرك أين تعيش وماذا تفعل. لوس أنجلوس أكثر من مدينة وليست مدينة واحدة. هنا تتعامل مع كل شعوب العالم وليس شعبا واحدا.»

عندما سألت سمير طوير الصحفي السوري، المهاجر منذ الثمانينيات، عن أكثر شيء صدمه عند حضوره للعيش في لوس أنجلوس، كانت إجابته السابقة.

الاتساع خلق مسافات طبيعية، حواجز، أتاحت لطبقات أو لجماعات أن تستغلها لاستعباد طبقات أو جماعات أو إثنيات أخرى. استطاعت مناطق كـ«بيفرلي هيلز»، و«وست هوليوود»، و«فينتورا»، أن تُحجب عن المناطق الفقيرة في الداون تاون التي يسكنها المهاجرون اللاتين. وكذلك روح الفرد الشخصية نفسها تأثرت بهذا الاتساع، وزادت من مساحة المجال العام النفسي الذي يتحرك فيه الفرد. الاتساع أضاف عمقا لفكرة الملكية الشخصية، سواء للذكريات أو للأرض.

كيف تنشأ أي فكرة تخص التمرد أو الصدام وسط هذا الاتساع؟ الامتداد الأفقي جعل هناك مراكز متعددة للحياة، كل مركز يفرغ/ يستمد طاقة المركز الذي يليه، حتى تصل لوضع متعادل من القوى. هناك غياب لمركز بعينه محمل بعلامات أو مشحون بذكرى سابقة للخروج عن الجماعة. ربما أي فكرة تمردية ستتوه وسط هذا الاتساع. لم تعد المدينة حاضنة للتمرد، أصبح رمزيا وله

تأثير أكبر في صورتها الأخرى، في مصفوفاتها الرمزية، في رواياتها، في سينماها، في تقسيم رأس مالها. أصبح الصدام/ التمرد المادي محالا أو غير مؤثر، وبدلا منه جاء التمرد الرمزي.
الاتساع خلق شيئا آخر وهو الصمت. كالعزل عبر تفريغ الهواء. لا تعبر الأصوات بسهولة. هناك حاجز آخر يقف أمامها. خلال شهر كامل لم أسمع صوت جيراننا في البيوت الملاصقة، سوى في صبيحة أحد كان هناك صوت أطفال، بكاء قصير وانقطع سريعا. قلما تسمع ضوضاء في هذا الحي الراقي، إلا صوت العربات، الذي ينقطع تماما في الليل، ويعود الليل إلى سيرته الأولى، كليلٍ بدائي مخيف تحضنه الجبال. داخل مجال الصمت هذا، الذات تنسحب لكهف ترى فيه الآخرين ويرونها، إنه صمت متوتر، أصبح عادة. هل يمكن أن يُستأنس الصمت بسهولة؟ أصبح صوتي واطئا رغما عني، وموسيقاي واطئة، وأحلامي واطئة. أحتاج لتربية من أول وجديد، لآنس لصوتي الجديد. ضوضاء بلادنا بها حياة، ولكنها حياة تعدت حدود الاتصال والتبادل ونثر الحميمية. ضوضاء مجانية وعشوائية لا ترى حواجز أمامها. إنها أيضا ضوضاء متوترة لا تنتج إلا ذوات لها طبقة وحيدة من الاستقبال حتى تنجو بنفسها من هذا التشوش. لقد وصلوا لحدود قصوى لمعيشة الفرد، لرفاه الصمت، الحدود التي تلتقي أيضا مع الموت، ليمتد عمر الإنسان، ليعيش في بهاء المدنية.
في العربات الخاصة المارقة أو المنتظرة في إشارات المرور، يكون للصوت شكل آخر. تسمع عبر زجاج العربة المغلق من يصرخ أو يغني، ترى حركات فمه وجسده فقط، ولكن الزجاج يعزل كل هذا. نادرا ما تمر عربة وتسمع صوت الأغنيات بها. الصراخ مكتوم، كمسدس يفرغ عنفه في ماسورته. استمناء للعنف، والذي هو طبيعيا وسط هذا الكم من الضغوط والتقاليد والخوف من المستقبل. في الاعتراض اليومي بين العربات يخرج الجميع إصبعه الوسطى كأنه يخرق شيئا ما، قانونا، عُرفًا، غشاء البكارة لهذا الآخر. إنه صوت الاحتجاج الوحيد الذي تراه في الشارع.

عصافير وكاميرات على قمم الأشجار

هناك إله يقف في الأعلى، على قمم الأشجار والعمارات، والمروحيات. الكاميرات تراقب كل شيء في الشارع. من النادر أن ترى رجل أو عربة بوليس. ولكن خلف هذه الكاميرات المحمولة على الأشجار التي تصطف لتزين جوانب الطرق، هناك عين تدقق في ملامحك، وفي أفعالك، وفي لحظة ستجد حولك هذا النظام الهادئ والوديع وقد تحول إلى إشارات حمراء وخضراء وعصي كهربائية وكلابشات. حتى في العمارات هناك نظام أمني معقد، متصل بأجهزة الأمن مباشرة.
عندما زرنا الأستاذ سمير طوير دخلنا البناية التي يعمل بها في جلانديل. كان اسمي أنا وسلوى مطبوعا في كشف عند حارس البناية. صعدنا للطابق حيث مكتبه. مررت في ممرات بعد نزولي من المصعد. وصلت للمكتب، أبواب مصفحة يصعب اختراقها من أعتى المجرمين. من الصعب أن تسمع ما يحدث وراء هذه الأبواب أو كيف تتعامل مع جدول الأرقام المضيء على جانب الباب. انتظرنا في الردهة. النظام الرقمي حوَّل الحياة إلى شفرات، أرقام، برغم سهولتها، إلا أنها نظام معقد جدا، لا يسمح إلا لصاحبها فقط بالتعرف عليها. حتى كانت المصادفة أنه جاء بعدنا، ووجدَنا منتظرين أمام باب المكتب. كان من الممكن أن أنتظر ساعات ولا يسأل أحد عنا. كنا ضائعين في هذا الحيز الضيق، المسافة الصغيرة المفرغة، كأني أقف أمام ماكينة صرافة ونسيت الرقم السري.

من ضمن ما ذكره الأستاذ سمير طوير هو فكرة السلطة الخفية التي لن تراها إلا في لحظات محددة وبكثافة غير متوقعة، كلحظات العقاب والتلبس والشك والاشتباه. فمن يحمي هذا النظام؟ وهو ما سنصادفه في إحدى الليالي كأنه لقطة من فيلم سينمائي.

طبائع الذاكرة

المكان الجديد باتساعه، للمهاجر بالطبع، خلق ذاكرة جديدة. هو لا يود ماضيا به خسارات، فالماضي نفسه أصبح كشبح يظهر ويختفي، لم يعد من أحد أبنية الذاكرة المركزية. هناك أكثر من ماضٍ، ماضٍ للنسيان وماضٍ للتذكر. هناك رحلة بعث في الهجرة، ربما تحجب أي ماضٍ، لا تلغيه، ولكنه غير ملموس، شبحي، ويصعب القبض عليه وتشخيصه. الذاكرة هنا ابنة مكان متغير، أما ذاكرتنا وحنيننا، فهما أبناء مكان ثابت. إفساح مكان شخصي داخل هذا المكان الواسع والممتد يحتاج للنسيان. أحد أدوار الإنسان أن يغير موقعه كما يغير مكانه، كما يغير ذاكرته. لا يمكن أن نعيش ونموت بذاكرة واحدة كخيط ممتد. إنها فجوات تتوارى خلف أي انتظام.

كما كانت رحلة الفرد هنا شاقة، فذاكرته عانت مثله هذا الشقاء، وسربت تجمعات الألم والوجع لتعيش. وأي معنى للذاكرة عندنا سوى الوجع والألم؟ أي ذاكرة سطحية أو غير باثولوجية سيكون عذابها طافيا كما مكانها طافيا. المكان هنا يسمح لأي امتياز فردي بالتواجد، مهما كانت العنصرية، أو الفوارق الطبقية أو الفوارق بين الإثنيات. هنا ذاكرة كبيرة تهضم الذاكرات الغريبة، تروضها، تسطحها كي لا تمسك بخيط الألم. ذاكرة أُم تضع امتياز الفرد وطاعته فوق أي ماضٍ، أو تاريخ. هنا اللعبة الأساسية، ومسخرة فكرة التاريخ، سواء الشخصي، أو العام. هناك نظام جديد للتاريخ أو للقديم : هنا خطب فلان، هنا مر فلان، هنا مات فلان، هنا عاش فلان سنواته الأخيرة، فلان، فلان. اتحاد عضوي بين مكان وفلان. يبدأ التاريخ من الفرد، وليس من الأمة. يبدأ من حدث فردي له دلالة. أحيانا الفرد يخفي وراءه التاريخ، كما الذاكرة الفردية تخفي وراءها مآسي أو جرائم الذاكرة الجماعية.

ذاكرة الاتساع والجغرافيا الواسعة، والمسافات، والانقطاعات، والتعدد، واللغات. الذاكرة ميالة أكثر نحو المستقبل. ذاكرة الفرد مثمنة، كما ذاكرة الأمة مثمنة. الأمة وليست القومية. الهزائم والإحباط هما اللذان يعمقان الإحساس بالوحدة والحنين، وينشطان الذاكرة تجاه الماضي.النجاح يخلق ذاكرة جديدة. ولكن لا شيء يخفي الموت أبدا، لا الذاكرة الحديثة أو القديمة. خرج نظام من هذا الاتساع الجغرافي، كأنك تعيش القديم والحديث في آن. والاثنان لهما نفس الجدارة، بدون أي إحساس بالزيف. برغم سهولة الحياة هنا، فأنت ترى المعجزة وراء ذلك بكل سهولة، كتركيب الماء الزلال. لأن المعجزة ليست فقط في التقدم، ولكن في خلط هذه النوازع الفردية والإثنية والطبقية في سبيكة واحدة. هي تجربة أمريكا التي مازلت أراها ويراها كثيرون كتجربة قابلة لكل الاحتمالات، من كثرة العناصر المكونة لها. المعجزة هي خروج نظام من كل هذه الاحتمالات، كأن هذا البلد يعيش قرن حظها على مائدة الروليت.

التقدم هو الذي صنع مسافة بين ذاكرة وذاكرة. فستجد بيوت الستينيات، وشباب الستينيات، ونموذج البيت ذي الصبارات. التقدم، هو الذي جعل كل هذه الأشياء هي الماضي، الماضي القريب، وهو المهم لنقده، وليس الماضي البعيد المجمد، الذي يصعب التحاور معه. إنها اللعبة الخطرة للذاكرة التي تلعبها الحياة هنا والنظام، أن تلغي الماضي البعيد، الذي هو أحد مقزمات الوعي البشري. الخطورة تكمن في حذف جزء مهم من نشاط هذا الوعي، ولكنها اللعبة الخطرة

الأخيرة التي لا بد منها للتحرر، ولموت هذا الوعي في النهاية كشاهد على التاريخ، إنه سيتحول إلى وعي متفرج، كالساموراي الأخير.
العجائز، الذاكرات الحية للمدينة، تجدهم فرادى ومتشظين كتواريخ منثورة، أو معزولين في تجمعات تخصهم. لا تجدهم في البيوت مع أولادهم وأحفادهم كذاكرة ممتدة في بيت واحد. هناك بيوت أو تجمعات لعزل تلك الذاكرات القديمة.

كوكب أزرق محوط بالغيوم

من أجمل التعليقات عن الهوية ما سمعته من سامي الأسمر، أردني من أصل فلسطيني هاجر والده للوس أنجلوس في الستينيات، ويعمل فيزيائيا في وكالة ناسا في باسادينا. لقد شبه هويته الجديدة التي اكتسبها في أمريكا بأنها هوية تتجاوز الحدود، فالحدود شيء وهمي على كوكب الأرض كما يراها كفيزيائي، خصوصا لو نظرنا لها من الفضاء. ربما الهوية الجديدة التي تحدث عنها سامي الأسمر، هي نتيجة النظر من هذا الفضاء.
«أنا أصبحت صاحب هوية مندمجة، هوية ثالثة، أنا بدأت أعتبر نفسي مواطنا كوكبيا أكثر مني مواطن حدود. لا حدود رسمها أشخاص، ليس هناك ما يجبرني أن أقف أو أحتمي وراء حدود معينة، هناك صورة لكوكب الأرض من الفضاء، ستراه كوكبا أزرق محاطا بالغيوم، من هناك يبدو كوكب الأرض كوكبا ضعيفا، ولن ترى أي حدود من هناك».
وعندما سألته عن سبب مبدأ الخصوصية المبالغ فيها في أمريكا.
«في أمريكا فيه تساوي، بس كل واحد عايش في خصوصيته، يقفل على نفسه كمبدأ أمريكي بحت. والسبب فيه أن الدولة اتبنَت على أراضي منتشرة، فحدث التوسع بسبب اتساع الأرض وزادت حدود الخصوصية للفرد. الناس هنا مش حاسين بالطبقية.. بس حاسين بالملكية».

مشهد في شارع سانتا مونيكا

فتاتان تجلسان على الكنبة المعدنية في انتظار الأتوبيس. تضع إحداهما فخذها على فخذ الفتاة الأخرى. تقتربان بميل من بعضهما البعض، ويروحان في قُبلة طويلة تحت أشجار الفيكس غزيرة الأوراق. كل أعضاء جسميهما متشابكة كأغصان الشجر، طبعا بقدر ما تتيح لهما تلك الجلسة الصعبة لتبادل الحب. النهار في منتصفه، والناس تسير من حولهما. ينتفضان مرة واحدة، تسبق إحداهما الأخرى، بينما التي في الخلف تلعب في أزرار الموبايل. يعود الكلام خشنا، والحركات عصبية، وتختفي تلك الأنفاس الحارة التي كانت مستعرة منذ قليل. يهدأ الحب، ويأتي المترو الذي كانتا تنتظراه، وتبادلتا الحب ليضيعا سأم دقائق انتظاره. تصعدان، يفرق بينهما مجموعة من السيدات المسنات، وتختفيان وسط الزحام.

«Little Arabia»

كل جنسية صنعت مدينة صغيرة خاصة بها في لوس أنجلوس، وسموها باسم المدينة التي جاءوا منها: «ليتل أرمينيا»، «ليتل أرابيا»، «ليتل سايجون»، «ليتل إنديا»، «ليتل كوريا». إنها المدينة/ النموذج المصغر في معرض الإثنيات الكونية في لوس أنجلوس. تجد بها كل ما تجده في مدنهم الأصلية بداية من الطعام حتى اللغة. نسخة تقترب من الأصل، وبالنسبة لمن لم ير الأصل، هي النسخة المعتمدة من الوطن، وستظل هكذا بتوالي الأجيال. ذهبنا لزيارة «أورانج كاونتي» و«أنهايم»، حيث توجد «مدينة العرب الصغيرة». حتى نصل استقللنا ٣ مواصلات. مررنا بجبال وصحراء، ومساحات خالية، حتى وصلنا لتلك الواحة العربية. بالتأكيد كل هذه المسافات التي اجتزناها لنصل، تشكل سورًا ماديا يحوط بهذه الواحة. كما يقال إن مغامرة أمريكا أنها البوتقة التي

ستصهر كل التفاوتات والاختلافات مهما كانت. البوتقة الكبيرة التي يزداد حجمها سنة بعد أخرى، والتي ستمنع الصدام، بجانب دقة حساب المسافة بين جنسية وأخرى، بين لغة وأخرى، بين فرد وآخر. هناك مسافة لن تغفل، ستغلف الفردية والجنسية والجيتو بسيلوفان سميك.
مررنا ببلازا تحتوي بعض المحلات العربية. الأسماء كلها مكتوبة بالعربية، محال لملابس المحجبات، ومكاتب السفر، مطاعم الفول والطعمية والشاورما، مقاهٍ تقدم الشيشة، مأذون، محام لقضايا الطلاق. دخلنا أحد البازارات، فوجدنا صاحبته المصرية تشاهد أحد المسلسلات المصرية. حدثتني أنها لم تجد في أمريكا الحلم الذي تريده، ولكنها بالرغم من هذا مستمرة في هجرتها. سيدة سورية صاحبة محل للتبغ، رجعت لأهلها فلم يستقبلوها في المطار بعد ١٤ سنة غربة، فقررت العودة. مليكة المغربية التي تعمل في محل للأزياء الإسلامية لصاحبه الأردني، جاءت هنا مع زوجها بالقرعة، وتحاول أن تكمل دراستها. حكايات مبتورة، ربما لأن حياتهم ما زالت محاصرة بقيود ما.
بينما نحن نهبط الدرج من مكتب الأستاذ أحمد علم الدين، وهو لبناني مهاجر من طرابلس، ويصدر جريدة بالعربية للمهاجرين، مررنا بالدور الأول، وجدت بعض الأحذية والشباشب الجلدية مرصوصة أمام أحد الأبواب. استرقت السمع لصوت قرآن يتلى، فما كان مني إلا أن دفعت الباب بشكل تلقائي، فانفتح بسهولة. شاهدت مجموعة من الأولاد والبنات المحجبات، يلبسون ملابس بيضاء، ويجلسون على أرضية مفروشة بموكيت أخضر، وهناك معلم أسود يرتدي أيضا جلبابا أبيض يجلس في مواجهتهم، ويقرأ القرآن من مصحف كبير مفتوح على حامل خشبي.
خلال تجوالنا في المدينة العربية الصغيرة شاهدت الكثير من النساء المنتقبات والرجال الذين يرتدون الجلابيب، ولهم ذقون طويلة. أرى المسلمين هنا بشكل آخر، وكذلك الأقباط. أي حالة للتشدد سواء كانت من المسلمين أو الأقباط لها أشباه في ديانات ومذاهب أخرى تعيش في نفس المكان وتتنفس نفس الهواء. التعدد والقبول الإجباري بالآخر الذي فرضه المجتمع الأمريكي سمح باستيعاب وامتصاص أي شكل متشدد وجعله غير مستهجن. أي تعصب له خطوط حمراء لن يتجاوزها.
وجود أقليات كثيرة في لوس أنجلوس ذوَّب قليلا من فكرة الأقلية الواحدة التي يمكن أن تراقب نفسها كأقلية غريبة. كثرة الأقليات صنع أقلية/ أغلبية كبيرة يمكن أن تعيش داخلها دون أن تتخلى عن لغتك أو طريقة حياتك. كذلك اختيار هذه الأقليات أو الذاكرات المهاجرة للعيش في أطراف لوس أنجلوس (كوفينا- أورنج كاونتي- جلانديا- أنهايم- باسادينا) بعيدا عن مركزية المدينة / الذاكرة الأم، ساعد على خلق مكان جديد عاصروا تأسيسه ونموه، وعاصروا ميلاد ذكريات جديدة لهم فيه. كذلك وجود الأقليات الأخرى أتاح لذاكرة كل أقلية أن تؤكد مكانها الفيزيقي والمجازي وسط طوفان الذاكرات المهاجرة الأخرى ورموزها وعلاماتها ولغاتها الخاصة التي تغطي المدينة بكاملها.
النجاح أيضا مكان جديد. الموهبة الفردية عند سامي الأسمر ونبيل عزام، وحسن ساسي، هي التي حملتهم ليكونوا طافين على سطح آلام الهجرة، وسهلت دخولهم في مجتمع يعبد النجاح والتفوق، وقلل من خسائر فك الارتباط الحاد مع أوطانهم. لقد فطمهم النجاح.
في نهاية اليوم في أنهايم أحببت أن نزور مقابر المدينة لنشاهد الرحلة العكسية للمهاجرين. وجدنا شاهدا واحدا يحمل اسم عائلة عربية (عائلة حداد) وسط مئات الشواهد. آخر فرد فيها مات منذ

السبعينيات. ومن يومها أقفل تاريخ المقبرة، وأتمت العائلة رحلتها في المهجر. مقابر كثيرة، ما زال تاريخ الوفاة غير مدون، ليس هناك إلا تاريخ الميلاد.
ذهبنا لمقبرة أخرى في أحد باركات المدينة. هناك جزء رملي على أطراف المقبرة خصص للموتى المسلمين تبعا للشريعة الإسلامية. تلك المقابر الأسمنتية المرتفعة عن الأرض، تراها فتعتقد أنها توابيت مهاجرة مجهزة للشحن إلى بلد آخر. لا احتفاء بالموت كما في المقابر المسيحية المجاورة، لا ورود أو ملائكة أو تذكارات أو عبارات توديع أو شموع.

المدينة في الليل

في عودتنا من رحلة «أنهايم»، عبر «ديزني لاند»، ليلا دخلنا المدينة من فوق مرتفع، كنت نائما في العربة، مرة واحدة استيقظت لأفاجأ بهذه الكمية من الأضواء الصناعية على تلك المساحة الشاسعة من السواد، والجبل يحوط هذا الضوء. لولا هذا الجبل لامتدت مساحات الضوء لأبعد من هذا الحد. هذا الأبد الضوئي الذي لا يمكن أن تحوطه بذراعيك. ضوء يولِّد في نفسك يأسًا وخوفًا من الاقتراب منه. خوف لا علاقة له بالنفس الرومانسية التي تبحث عن ضوء شمعة خابية لتقيم عليها ذكراها أو عذاباتها. لا مكان للعذاب وسط هذه الأضواء، لا مكان لذات تبحث عن خلاص. إنه العدم في أبهى صوره. للضوء صيرورة في لوس أنجلوس، صيرورة صناعية تخدعك بأن المكان يحتوي على بذرة خلق إلهية، وأن هذا الضوء مثل نباتات خرجت من هذه الأرض الصخرية لتمنح هذا الليل وهذه الجبال خلودا كان يمكن أن يضيعا بدونه.

١٨٣٠ شارع «سن سِت»

حضرنا حفلة موسيقية في جاليري ١٨٣٠ بشارع «سن سِت». كان السطح يموج بذبذبات شبابية باخوسية. زجاجات البيرة في كل مكان، والمدينة تبدو من أعلى خفيفة وناعمة ومضببة على وشك أن تختفي. وهناك عدة فِرَق موسيقية تقدم عروضا سينمائية قصيرة مصاحبة بالموسيقى الحية حول تيمة «الحزن والألم». المهم بعد أن غادرنا الحفلة في حوالي الساعة الحادية عشرة ونزلنا إلى شارع «سن ست» لركوب المترو، لاحظنا وجود طائرة هليكوبتر تحوم حول المكان الذي نقف فيه، وترسل أضواء ساطعة على الشارع. لحظات وتجمعت عشرات من عربات البوليس، خرجت من عدة تقاطعات جانبية. إحداها وقفت في منتصف الشارع لتغير مسار العربات. كانت هناك عربة بيضاء في المنتصف هي المقصودة بهذا الحصار. ما زالت الطائرة الهليكوبتر تحوم وترسل إضاءاتها الكاشفة على مكان الحدث. تقدم أحد أفراد طاقم الشرطة وأخرج قائد العربة البيضاء. خرج الرجل رافعا يديه، ثم أمره الشرطي بالانبطاح على الأرض، فاستسلم الرجل للأمر وانبطح على الأرض فاردًا ذراعيه. تم تفتيش العربة. كل هذا والطائرة ترسل إشاراتها وتتابع من علٍ كل ما يجري. دخلت عربة بالخطأ في مكان الحصار، فاستوقفتها الشرطة وأمرت من فيها بالنزول رافعين أيديهم أيضا. خرج رواد المحلات والمطاعم يراقبون المشهد. كان المشهد غريبا بالفعل كأنه في فيلم. كانت هناك فتاتان تنتظران عند تقاطع هذا الطريق. جاء فتى، يبدو أنهما كانتا في انتظاره، واحتضن إحداهما ورفعها من فوق الأرض، كأنه يرقص معها التانجو. كل هذا والبوليس يقوم بإجراءات التفتيش والاعتقال لراكبي العربة البيضاء. كنا على مسافة عشرين مترا من الحدث. شعرت بالرهبة من الأضواء المتناثرة وإشارات التحذير. اعتقدت أنه فيلم يُجرى تصويره في هذا المكان. المسافة ضيقة جدا بين الحقيقة والأفلام.

أشكال عديدة من الحب

في المساحة الضيقة التي كنا نجلس فيها على الأرض وسط هذا المد الباخوسي المتعاقب، كانت هناك أشكال عديدة من الحب. دخل شاب في العشرينيات وقبَّل شابا آخر في سنه تقريبا في فمه، عدة قُبلات مخطوفة ليس فيها تطويل، ولكنها سريعة كلدغات موجعة جعلت الشاب الآخر يستسلم سريعا، فاحتضنه بحنان ذكوري وأخذ يربت على ساعده بشوق. فتاة أخرى لها ملامح آسيوية جاءت مع صديقتها، وجلستا أمامنا. عندما بدأ العرض، أخذت الفتاة ذات الملامح الآسيوية تحتوي الفتاة الثانية بذراعها اليمنى وتحسس على وسطها ومؤخرتها. طبعا الفتاة ذات الملامح الآسيوية كان لها مظهر ذكوري واضح، وربما هو ما جذب الفتاة الأخرى ذات المظاهر الأنثوية المتفجرة بمصادقتها. لحظات وبدأ حديث بين الفتاة السالبة مع شاب يجلس بجوارها. يبدو أنها تعرفه من قبل. فبدأت نار الغيرة تشتعل في صديقتها ذات الملامح الآسيوية، وتشعر بالضيق والتململ. تبقى أشياء أساسية لا تتعدد، كتعدد أشكال الحب والجنس: الغيرة والملكية، والخوف والعزلة. فالتعدد لن يغير بدوره من صفات أساسية حاول الإنسان بشتى الطرق أن يتحرر منها.
نظام من العلاقات به نوع من العبودية الداخلية، ربما يفرضه الطرفان، كأن قبولهما بالتحول، حتى ولو كان اضطراريا، يتضمن القبول بقانون داخلي، بأن لا يترك أحدهما الآخر ولا ينظر لأخرى/ لآخر، حسب نوع العلاقة. فالحرية المطلقة هنا مرفوضة، ولا يمكن السماح بها، لأنها تنقض عهدًا غير مكتوب بين أتباع هذا الجيتو.

مشهد في تقاطع «فيرفاكس» مع «سانتا مونيكا»

في موقف مترو تقاطع شارعَي «فيرفاكس» و«سانتا مونيكا»، جلست على كرسي المحطة. بجواري كان يجلس شاب في الثلاثينيات.اقترب من كرسيَّ وسألني: أنت إسباني؟ مصري. رددت.أخذ يرسم بيده شكل الأهرامات في الهواء. سألني عن سبب وجودي في المدينة. سألته عن رأيه في هذه المدينة: أناس غير ودودة، كل واحد يبني خصوصيته ولا يلتفت لاحتياجات الآخرين. هل تعيش هنا منذ مدة طويلة؟ سألته. نعم، أنا من أصول أيرلندية، وأجدادي كانوا هنا للجد الرابع. أنا «مثلي». أضاف. ثم أخرج قلم روج وأخذ يمرره على شفتيه. عندها قلت له: أُعرفك بزوجتي، مصورة فوتوغرافية. وأشرت تجاه الناحية التي تقف فيها سلوى. خاب أمله. استأذنت وقمت من جانبه سريعا حيث تقف سلوى التي كانت تراقب المشهد من بعيد وتبتسم من هذه الفخاخ المنصوبة في هواء المدينة.
عند سَيري في شارع «سانتا مونيكا» في أحد الأيام صرح رفيقنا: «هنا يسكن المِثليون». أحسست برهبة من الكلمة. أي شيء في هذا الشارع الواسع المليء بالأضواء يمكن أن تتعين فيه هذه الجملة؟ أحسست أنها توحي بكونها منطقة حرة تباع بها سلعة خطرة، مهربة، كالشوارع التي تحيط بالموانئ.

مدينة كلبية

في لوس أنجلوس للكلاب قداستها كما الأبقار في الهند. لا يمكن أن تقترب من أحدها. لو رأت سيدة سيدةً أخرى تسير وفي يدها كلب، لا تدعهما يتعارفان، بل تبتعد تماما عن طريقها. صورة «مارلين مونرو» ما زالت تؤثر في الأجيال الجديدة، عندما كانت تصحب كلبا صغيرا في نُزهاتها، وله سلسلة طويلة، كجزء من توازن واتساق المشهد الذي يمنحه الكلب والسلسلة المشدودة لهذا الجسد. علامة على امتلاك جنسي للكلب، وللسائرين على حد سواء.
أحجام الكلاب وأنواعها لا تتماشى أبدا مع ضخامة المدينة، ولا تبدو عليها أي شراسة. الكلب الكبير يمنح صاحبه إحساس الصداقة والألفة والندية عندما يسير به في الشارع. أما الكلاب

الصغيرة فتبدو وكأنها إحدى الحليات الممتدة خارج الجسم. هناك وسائل عديدة لرفاهة الكلاب: لها عربات كعربات الأطفال، مزركشة بالدانتيلا، وأحزمة وسلاسل للرقبة، وفنادق للإقامة، وأسواق لبيعها، ودائرة واسعة من الأطباء والمستشفيات وتفاصيل للأمراض المنتشرة بينها والعمليات المكررة التي تُجرى لها. بالإضافة لإعلانات موضوعة بالشوارع على استاندات، أو معلقة على عواميد الإنارة الخشبية تعلن عن فقد كلب أو قطة، أو رغبة كلب في الزواج. من كثرة تثبيت ونزع تلك الإعلانات اختفى خشب الأعمدة تحت المئات من المسامير المثنية. مدينة كلبية كاملة داخل المدينة.

الخيال الأمريكي

لمسة العمر الخالد منثورة في كل مكان: من المولات، للجسد الموشوم بالرسومات البدائية وبالكتابات، والجسد الذي يجري ويعرق في عصاري المدينة ومعلق في كتفه جهاز لقياس الضغط وسرعة دقات القلب، لتأمل السيدات الكبار والصغار لأظافرهن ومدى الاهتمام اللاتي يوليهن لها، للشوارع الممتدة للأبد، للصحراء حيث الخلود. العربات مكشوفة وصوت الأغاني يقفز صامتا من داخلها، الملابس زاهية مشجرة شبابية مهما كان عمر من يرتديها، تفوح بعطر الصيف الطويل. إنهم في صيف طويل وجو متوسطي وسط أشجار متوسطية، ودرجة حب متوسطية، تجعل الرغبة في التألق أو التزيد في المرح أو التأنق، أو الجنوح؛ مطلبا مفروغا منه. في الدقائق القليلة في إشارات المرور، تُخرج السيدات قلم الروج أو الحواجب، أو قلامة الأظافر والمبرد، أو تبحلق في مرآة العربة وهي تمط جسمها لأعلى، لتضع البودرة أو لتزيل بعض الشعيرات الزائدة.

أسترجع في ذاكرتي تاريخ الأفلام الأمريكية التي علمتنا الرومانسية. الأبطال ودقة مشاعرهم وخيباتهم وصراعهم ضد الظلم، أو مع ضمائرهم المسفوحة في البارات الليلية مع الشراب وعذاب الذنب. السينما الأمريكية فرضت نموذجا لا يمكن ملاحظته في الشارع بسهولة. سوء التفاهم العميق الذي يؤدي إلى تفاهم في نهاية الفيلم، أيضا من الصعب متابعته هنا في الشارع. ربما الصالة المظلمة أو الشريط الخام هو الذي يحتفظ بحلم إنساني. أو أن السينما ترجع لمفهومها الأصلي وتعمل عليه وتؤكده مهما كان الشارع لا مباليا: الخيال. الخيال في أمريكا أقوى من الحقيقة. ربما الصناعة والمكاسب فرضت بيع الخيال وتثمينه لهذه الدرجة، ولكنه أيضا لحظة تعويض عن حياة تاهت فيها هذه الدقة والرهافة في المشاعر، واستبدلت بالنظام والمرح واللامبالاة.

النجوم النحاسية لشارع هوليوود

في شارع هوليوود، كل شيء يدور في فلك السينما، ستجد المئات من نماذج تماثيل الأوسكار، التي توزع جوائزها في أحد مسارح الشارع، وهي مرصوصة في فتارين محال التذكارات. على الأرصفة تسير بحرص فوق تلك النجوم النحاسية، كل واحدة منها تخلد اسم أحد النجوم. يقف السائحون بجوارها ليلتقطوا الصور وهم يؤدون أمامها، أو أمام صاحب النجمة، إحدى الحركات الاستعراضية. بعد وفاة «مايكل جاكسون»، كل من لم يحضر جنازته، أتى لهذا الشارع ليشارك في وداعه باقترابه من نجمته النحاسية. هناك رجل مخصص للعناية بهذه النجوم. يمر كل يوم، يجلس على الأرض، ويلمع كل نجمة على حدة، بعد أن قارب بريقها على الانطفاء من تأثير أحذية السائرين. كل شيء يجب أن يكون لامعا ومشرقا في هذا الشارع في الليل أو النهار.

هناك أيضا نماذج حية من نجوم ماتوا أو ما زالوا عائشين. ستقابل «ألفيس بريسلي» بجيتاره الشهير، و«جوني ديب» القرصان في دور كابتن هوك، والرجل الوطواط، والرجل العنكبوت،

وساحرات شكسبير. أيضا ستقابل الشيطان، ووجه الموت الذي كان يحوم في أفلام «بيرجمان». في متحف الشمع لمدام توسو، هناك نموذج لـ«مارلين مونرو» في جلستها الشهيرة على الأرض وبفستانها الأسود المحزق وذراعيها العاريتين. هناك نموذج آخر حي لـ«مارلين مونرو»، تلك الفتاة التي تحاول أن تقلدها. يقترب منها السائحون ويلتقطون معها الصور ويضعون أيديهم على ظهرها العاري. ربما يمنحهم هذا النموذج الحي بعضًا من حرارة جسد طافَ بخيالهم كثيرا. وفي النهاية يمنحونها بعض الدولارات، تدسها الفتاة بسرعة في حقيبة السهرة الصغيرة التي تحملها في يدها، والتي اتسخت من كثرة الاستعمال اليومي في أداء دورها.
هنا في لوس أنجلوس الجميع يحلم بأن يكون نجمًا، لذا هناك سماء اصطناعية تنتظر هذه النجوم المستقبلية. يجتهد الجميع في أن يحافظ على هذه السماء الاصطناعية، حتى لو تحولت هذه السماء إلى سماء كاريكاتيرية مليئة بالإضاءات المزيفة، كسماء صواريخ وشرارات الأفراح. تمتلئ البارات في الليل بتلك النسخ المزيفة. شبان وشابات متأنقات يحلمن بدور أو باكتشاف حتما سيغير بوصلة حياتهم الراكدة والمتوقفة. ربما تنخدع فيهم بسبب هذه الأناقة والجمال، وكذلك تلك الشبكة الحلمية التي وقعن فيها. فكل حركة يقومون بها محسوبة وبطيئة ومكشوفة لعين بعيدة تتطلع إليها ولصاحبها. البارات في الليل مصيدة للأحلام التي لا تنام.
هناك أيضا مئات الكاميرات العابرة التي تتجول في الشارع. من كثرة الزحام لا بد وأن أي صورة تذكارية التقطها أحدهم ستحمل على حوافها أو أحد جوانبها، وجوها عديدة ليس لها علاقة بأصحاب الصورة. بالتأكيد هناك عشرات الصور التُقطت لي بدون أن أشعر. عندما يرجع أصحابها لبلادهم ويجلسون أمامها ليتذكروا تلك اللحظات، ربما يلفت نظرهم هذا الوجه الغريب، أو يتركونه بدون نقاش؛ يشغل جزءا من حياة الصورة.

رحلة إلى صحراء موهافي

بصحبة ميريام وعربتها الفولكس السوداء ذهبنا إلى حواف لوس أنجلوس، لزيارة صحراء موهافي، تقع جنوب شرق ولاية كاليفورنيا، في حدودها مع ولاية يوتا، على بُعد ٧٠ كيلو مترا فقط من المكسيك. دامت الرحلة منذ السابعة صباحا حتى الحادية عشرة ليلا، قطع فيها عداد العربة ما يقرب من ٦٠٠ ميل. خلعت ميريام صندلها الجلدي الخفيف ولصقت قدمها بدواسة البنزين، إلى الأمام، بقوة وجَلَد شديدَيْن، تطوي أسفلت الـ«فري واي» تحت قدميها كأنها عدَّاءة تجري بمحرك رقمي. ننحرف عن الـ«فري واي» ثم نعود إليه، حتى نتماس مع عدة نقاط تقع على حواف لوس أنجلوس. ليس هناك حافة بمعنى نهاية الرحلة. هناك صحراء تسلمك لصحراء، وجبال ممتدة، ويافطات مدن وشوارع تسلمك لأخرى. لولا هذه العلامات لشعرنا بأننا سائرون إلى ما لانهاية.
عبرنا في الطريق على «وست كوفينا»، وبمحاذاتنا سلسلة جبال لن تكف عن مصاحبتنا طوال الرحلة بألوانها الثلاثة المتدرجة من الأحمر للرمادي. طوال الطريق تصنع أبراج الكهرباء خطًّا معدنيًّا من الألفة. وصلنا إلى «سان برناردينو» أو «مدينة الأراضي الحمراء». مررنا في الطريق بمزارع عملاقة للبرتقال، وفنادق القمار في كابازون (Cabazon)، كازينو مورنجو. يملكها نسل قبائل الهنود الحمر الذين كانوا يسكنون هذه الجبال الوعرة؛ وبدلا من القنص، جلسوا على موائد الروليت. هناك علاقة بين الصحراء والقمار. عندما تخسر ستخرج لتضرب نفسك بالنار وتواريك الصحراء، لن تجد شيئا يزين لك العالم الآخر أقوى من الصحراء. ولو كسبت ستشتري تلك الأراضي التي تقع على مرمى بصرك وتحولها لمشاريع واستثمارات.

مررنا بمنتجعات كان يذهب إليها الرؤساء والممثلون طلبا للراحة وللتفكير في الخطوات القادمة. فيلّات صغيرة مدخلها مزين بأشجار الصبار الطويلة ذات الاستطالة الذكورية وتحوطها كتل صخرية. وسط هذه الصحراء تلمح قمة الجبل الذي سيهبط منه الهندي الأحمر على حصانه. الحصان الذي ود «أنتونان أرتو» أن يذهب به إلى أرض المسيح في المكسيك عابرا كل هذه الصحارى المقدسة. يكفي أن تملك بيتا صغيرا في هذه الصحراء المترامية ليكون دليل ثرائك الفاحش. «بوب هوب» و«رونالد ريجان» كانا أحدَى رواد هذه المنتجعات. ملاعب ضخمة للجولف، مخططة ومتموجة كجسد امرأة مروية وسط صحراء شحيحة المياه. ألمح يافطة وسط الطريق موقعة باسم الله «تحتي هناك أمة واحدة تعيش». أيضا في أمريكا هناك من يوقع باسم الله. تتوغل العربة بعيدا عن الـ«فري واي». نشاهد أغرب مشهد يمكن أن تراه في الصحراء، تلك البحيرة الملحية المهجورة المسماة «شاطئ الصحراء»، أو «الشاطئ الملحي». مساحة لا نهائية من المياه الراكدة التي تترسب على حوافها طبقات بيضاء من الملح، أسماك نافقة على الرمال، وجسر حديدي مهجور. كانت البحيرة أحد المناظر الطبيعية الملهمة للفنانين التشكيليين والمصورين والمخرجين السينمائيين. كان يقام بها سباق للقوارب في الخمسينيات. لو أردت أن تصور مشهدا لضلالات ليس لها أي أساس من الصحة تنتاب بطلا ما، ليأس داخلي عميق؛ لن تجد أفضل من هذه الخلفية. لم أسأل ميريام عن كيفية وجود بحيرة وسط الصحراء. تسلمت هذه المفارقة كشيء مسلَّم به. كأن البحيرة ولدت من بطن الصحراء، وهي الآن في لحظة الموت بعد أن زادت نسبة تلوثها. استراحة قصيرة في غابات النخيل (Palm Tree) التي تحوي معرضا إثنيا للتمر من كل أنحاء العالم.نتناول أيس كريم التمر، ثم نكمل مسيرتنا. نصل أخيرا لتلك اليافطة الخشبية، مكتوب عليها «ناشيونال بارك» وتحتها عنوان جانبي «أشجار جوشوا»، حيث تتمدد «صحراء موهافي».

صحراء موهافي مساحتها حوالي ٥٧ ألف كيلو متر مربع، وتشغل جزءا من غابات «جوشوا» (Joshua Tree) - أو حسب نسختها العربية المعدلة «أشجار يوشع». وهو اسم تلك الشجرة التي تنتشر في تلك الصحراء، والتي سميت على اسم يوشع بن نون خادم موسى عليه السلام في رحلة التيه. ترجع التسمية إلى جماعة من طائفة المرمون كانوا يعبرون هذه الصحراء في القرن التاسع عشر بعرباتهم الخشبية التي تجرها أحصنة وسط صحراء خطرة مليئة بالمطلوبين للعدالة. ذكَّرهم شكل هذه الشجرة، التي تشبه إنسانا يرفع ذراعيه للسماء، أو هكذا شُبه لهم، وسط هذه الصحراء، بقصة يوشع بن نون، وهو واقف على أبواب أورشليم، يرفع يديه للسماء متضرعا، قبل المغيب، سائلا الله ألا تغيب الشمس، حتى يكمل حصاره، في النور، ويدخل المدينة بقومه، قبل غد السبت. واستجاب له الرب.

كتل صخرية منحوتة، كأنها أيضا ولدت من باطن هذه الأرض الحمراء، كظفر صلد. أجواء فيلم «تيس» لـ«رومان بولانسكي»، حيث المكان الصحراوي والكتل الصخرية التي يتم عليها تقديم الأضحية. هناك أضحية ودماء تلطخت بها هذه الكتل الصخرية، وهذه الرمال الحمراء، ولكنها أزيلت. وبعد أن يفنى العالم نوويًّا في ٢٠١٢، كما تروج بعض الأساطير الحديثة والقديمة، ستكون صحراء «موهافي» هي أرض الخلاص الحديث. يقال إن هناك مدينة كاملة شيدت تحتها أعدت للناجين من طائفة السوبر مان، الذين سيعمرون العالم بداية من هذه البقعة الصحراوية!

بالرغم من أننا موجودون في مكان طبيعي، يحيلك دائما للشعور بلمسة عالم آخر، لحافة تكشف أزمنة خالدة. إلا أن هذا المكان له حدود وبوابات للدخول والخروج. كأنك داخل لعرض لبعض

الوقت. هذا الإحساس اللامحدود الذي تشعر به هناك مسور ببوابات. الخالد داخل الفاني، المقيم داخل العابر، المستديم داخل المؤقت. لقد مزجت أمريكا هذه المعادلة بحذر وحرفية عالية.
كانت مفاجأة أن بعد هذا السير الطويل داخل الصحراء، وتوقعك عند خروجك، بعد هذه الرحلة الروحية، أنك ستطأ بقدميك أرض ميعاد جديدة؛ ستجد من سيقابلك، سواء كان رجلًا أو رافعة أتوماتيكية أو ماكينة؛ لتدفع رسوم تجربتك الروحية.

جنة اصطناعية

في أمريكا أشعر بأني قريب من كل شيء حولي. اعتياد ربما مارسته في حياتي الأولى. ربما تعددها جعل منها مكانا وعالما قريبا من كل زائر لها. وأيضا أشعر في هذا القرب شيئا مصطنعا. شيء اصطناعي يقربني من هذا الآخر. أن أعتاد وآلف هذا العالم الآخر، وبكل هذه السهولة، ربما يعني هذا أن هذا العالم لم يعد آخر. إنه عالم مُستعمَر باصطناعه. عالم من الأمنيات. جزء من الذات بعد أن تتخفى وتتلون. الجنة التي تحدث عنها «جان بورديار». ولكنها جنة اصطناعية تلمس فيها ذاتك، مع أن هذه الذات هي الأخرى ضائعة. تطرح الحياة في أمريكا عنك أي قانون سابق، تعريك من أجل أن تدخل هذه الجنة ناسيا.
أما بيتنا هناك فقد كان جنة حقيقية من الزجاج، لا أنام إلا والستائر مرفوعة، يحدث تماهٍ بين الداخل والخارج، ولا تعرف في أي بقعة أنت، بينما روحي تجوس وسط هذه القمم العالية، تعيد نسج النسيان القصري وتحوله إلى ذاكرة. وسط زوار الحديقة من السحالي السوداء وحيوان الراكون، وعصافير الطنان الصغيرة التي تتغذى فقط على شراب السكر، والسناجب العابرة على أسلاك الكهرباء، وأشجار الجهنمية والبونسيانا، وشجرة الليمون، كانت رائحتها الشفافة تربطني ببيتنا القديم في الإسكندرية.

لوس أنجلوس - إسكندرية
يولية ٢٠٠٩- سبتمبر ٢٠١١

دليل السفر
رحلة لليونان

كانت المرة الأولى التي أسافر فيها مع سلوى، خارج مصر، بعد زواجنا. تم الترتيب للرحلة بسرعة غريبة، وتم الحصول على الفيزا صدفة من القنصلية اليونانية بالإسكندرية، ولمدة ثلاثة شهور،كأن هناك يدا ثالثة تنجز لنا الأوراق وتفسح لنا الطريق وتزيح العقبات من أمامنا لنسافر. بالإضافة إلى أننا كنا في نهايات شهر أكتوبر، أي داخل شتاء أوربا الذي بدأ مبكرا هذا العام. كانت اليونان أحد أحلامنا قبل الزواج، فالسفر كان من ضمن الوعود التي سربناها لبعضنا البعض. كان بمثابة المهر المشترك، الذي يطفو بنا فوق إنهاكات الحياة والعلاقات في مصر والتي بدأت تشتد وطأتها وتتفاقم في التسعينيات بعد حرب الخليج الأولى.
زارت سلوى اليونان من قبل وهي طالبة، برفقة والدتها، في رحلة تطواف سريعة عبر موانئ البحر المتوسط. كنت أشعر بأنها بلد قريب منا، ومتواضعة، ولا تفرض عليك إحساسا بالدونية، أو الاستعلاء. ليس بلدا أوربيًّا، ولكنْ بلد له وضع استثنائي وجنسية جديدة غير مكررة. سافر أخي الكبير لليونان في بداية السبعينيات، وهو طالب في السنة الأولى من الجامعة، وعمل هناك في أحد مصانع صناعة الأكياس الورقية، وعاد بشعر طويل وبملابس لها ملمس مختلف وبأكياس مطبوع عليها كتابة تشبه الرموز. اللغة اليونانية مثل الفرعونية تنتمي للغة الرمزية قبل أن تفقد دلالاتها وتتحول إلى حروف جرداء قاحلة. أخي هو من علمني السفر، دائما كان مسافرا، الأخ الغائب الذي سرعان ما يعود ليكمل رحلة سفره مرة أخرى. أصبح هناك حيز محجوز لحقائبه في البيت. عوليس ولكن في اتجاه واحد، السفر بلا عودة.

* * *

كنت أرى في السفر خلاصا، وإحدى صور رد الجميل والعرفان لأخي، الذي كان في هذا الوقت مثالًا لي، يمكن أن أتتبعه حتى لو ذهب إلى الجحيم. فالجحيم من خلاله يعني تجربة جديدة. عرفانا أيضا لإحدى صور صلابته وعناده مع ظروف عائلية ومجتمعية كانت تحتاج لتغيير وثورة وحلول جذرية مثل السفر الطويل الذي بلا عودة. أيضا أحببت أن أتتبع رحلة «هنري ميللر» في اليونان في جزيرة كورفو، حيث كتب كتابه الجميل «عملاق ماروسي». كانت اليونان ما بين الحربين، شمسًا ساطعة ودفئًا إنسانيًّا وإضاءة من نوع خاص. كان الشعر يحوط بالكتابة عن اليونان، بالرغم من روحانية «ميللر»، إلا أن هناك شيئا جديدا أضيف لكتابته لهذه الرحلة، وهو الشعر، في التقاط ظواهر الطبيعة كالضوء، الذي يعبر عنه بنور الحياة الأولى التي يتمتع بها هذا البلد. كانت اليونان نقطة تصالح مع الماضي بالنسبة لـ«ميللر»، عبر لقائه هناك بالشاعر وصديقه اليوناني فيما بعد «كاتسمباليس»، وهو الذي كان يجسد ماضيا حضاريا آخر، كان يقف به «ميللر» أمام ماضي الغرب. في إحدى صفحات الكتاب طويت جانب الصفحة في إحدى قراءاتي المتعددة له، دليلا على جملة أعجبتني فيها «الانتقال من مكان إلى مكان في اليونان يعني أن تعي مأساة الجنس البشري المصيرية المثيرة وهي تنتقل انتقالات دائرية من جنة إلى جنة. كل توقف هو حجر أساس على الطريق الطويلة التي شقَّتها الآلهة. إنها محطات للراحة، للصلاة، للتأمل، للعمل، للتضحية، للتجلي. لا يوجد على أي نقطة على طول الطريق علامة نهاية. حتى الصخور لم يكن الله سخيا فيها في أي مكان كما هو في اليونان، هي صورة للحياة الأبدية. في اليونان الصخور فصيحة اللسان: قد تندثر الرجال، أما الصخور فأبدًا».

* * *

استمرت رحلتنا هناك حوالي أربعة وعشرين يوما، بدون أي خطة مسبقة، سوى شراء كتاب «دليل السفر» من سلسل «The Rough Guide»، والذي كان يباع في مكتبة منشأة المعارف

في محطة الرمل، في الجزء الأجنبي الذي يطل على البحر مباشرة بجوار حلواني «ديليس». أمرُّ من هناك عبر الفاترينة أتهجى حروف البلاد المرصوصة بجانب بعضها البعض وسط التراب، وتنتظر من يلمسها حتى تصحو الأميرة من النوم وتُرد لها الحياة، وتبدأ رحلة الاستيقاظ والسفر في كل البلاد التي رأتها وهي نائمة. أتذكر اليوم الذي ذهبنا فيه لشراء «دليل السفر»، بمجرد أن صار في أيدينا حتى انتابني الشعور بأني أمسك باليونان بين يديَّ. بدأنا نخطط لرحلتنا من هناك، من هذا الكتاب ذي الغلاف الأخضر الفاتح، من هذه الحروف الصغيرة، الإرشادات، الخرائط، الأسعار، والورق الخفيف الذي لا يتحمل عرق أيادينا التي تلتصق به عند كل قراءة وبحث عن إجابة لشيء ما. كنا جوعانين للسفر، وتمت الرحلة بهذا الجوع الذي لم تقلّ حدته. بلد لا يمكن أن تُفطم فيه، تترك ثديها عنوة بدون أن تشبع، وتتقافز قطرات اللبن في الفضاء لكي تكون درب اللبانة كما تحكي الأسطورة اليونانية. كل منا له أسطورة مع اليونان، ولكل منا احتياجه غيرالمشبع و«درب لبانته» الذي تركه هناك.

* * *

كنا نعتمد على نفقات قليلة بقدر الإمكان، حتى نستكمل الرحلة لنهايتها، ففي النهاية نحن داخل بلد أوربي مهما كان يبدو قريبًا وأليفًا. كنا نجهز ميزانية يومية، للمبيت الذي يأخذ الجزء الأكبر، وأيضا للأكل والمواصلات، والذي كنا نستغني عنه أحيانا بالسير بالخريطة، بالإضافة لأي طارئ قد يثقل الميزانية، وعندها نضطر أن نقص من ميزانية اليوم التالي للتعويض وهكذا. يوميا كنا نخرق هذا الاتفاق والبنود التي وضعناها عندما نقف أمام وجبة من الطعام أغلى كثيرا مما توقعنا. كان ساندوتش السوفلاكي هو الرفيق الطيب خلال رحلتنا. كلما نقضنا العهد نعود إليه ليوفر لنا بعض النفقات الزائدة، ويعيد التوازن للرحلة. المهم أن نعبر بهذه المسافات المائية الشاسعة التي تفصل الجُزر، بالجزر المنفصلة كأرض معزولة ومطوقة، والتي خلقت شكلا جديدا من الحكم لا يعتمد على مركز ما. الحرية ربما لها معادل جغرافي، والمركزية أيضا.

* * *

عبرنا المياه الشاسعة بالبواخر، ودخل الليل علينا ونحن في وسط البحر. طبعا كانت تذكرتنا «on deck»، «على السطح»، ولكن في الليل مع اشتداد البرد ينفتح لوبي الباخرة من الداخل للجميع بحثًا عن الدفء. سافرنا بالقطارات البسيطة، والأتوبيسات التي تصعد الجبال وتسير على الحواف في دوائر حلزونية لا تنتهي، كأن اليونان جبل حلزوني قمته مخبأة في السماء، أو التي تخترق الأدغال. ما بين الشمس الساطعة والشتاء الغزير؛ كانت أكياس الفستق تملأ فراغات الليل، وتأملات وسأم الحدائق العامة وسط الرحلة الطويلة. ما بين القمصان القطنية الخفيفة والجاكت الصوفي والبلوفر الثقيل. كنا نمسك بالأطراف المتناقضة في اليونان: الحار والبارد، المياه والجبال، الجزر والخلجان، المدن الطافية والمدن المغمورة. كان هناك شيء مبهر وإنساني وبسيط حتى في عشوائية وبساطة إخراج لوحة الشوارع مع أشجار الجهنمية واللون الأبيض للبيوت وشرفاتها الخشبية الزرقاء أو الحمراء أو البيضاء. مقابض الأبواب الحديدية التي تأخذ أشكالا فنية مصبوبة، الموزاييك الطبيعي الذي تشكله الصخور، السلالم التي تؤدي لمستوى آخر من المدينة، أو لنهاية أي جبل، ولا يوجد بعده إلا السماء. أشجار الزيتون المسرعة التي تظهر خلف زجاج القطارات، وأشجار العنب التي تتقوس في شكل حلقات دائرية، حتى لا تكسرها الرياح، على أسطح الجبال.

كنا نتحرك بشغف الاكتشاف، فاليونان ليس بالنسبة لي هو الغريب، المتقدم، النظيف، كما في باقي أوربا. اليونان ليس به شيء من هذا، وليس بارعا في هذا. اليونان اكتشاف لشيء مفقود بالفعل، لطبيعة موحية مثبتة على مشهد قديم ومتجدد بحيويته وطزاجته، لما هو إنساني في تفاصيل وبساطة الحياة، والفكرة الفلسفية في آن. هي المكان الآخر الذي تدافع عنه بالرغم من عدم وجود أي تمثيل رمزي أو ديني أو طبقي له في حياتك. ربما لخلوه من كل هذا يتم الدفاع عنه بهذه الاستماتة ويكتسب مناصرين له باستمرار.
نتحرك والحقائب خلف ظهورنا، وإحداها نجرها خلفنا. نتركها في مخزن الفندق لنخلي الغرفة التي سنعود إليها بعد عدة أيام. نتخلى، نحمل، نترك، نضيف، نتفرج، نسافر: هذه الأفعال التي لا تحدث بهذه السرعة داخل نطاق حياتنا اليومية. وكثيرا نقف على السور الحديدي للباخرة أمام البحر، لا نرى أرضا ليوم كامل، إلا مجموعة من الجزر التي ندخل على رصيفها، وتسمع قبلها إشارة الانتباه لمكروفون السفينة «براجلون»، فيتم رمي الحبال والسلاسل في القاع. ينفتح بطن السفينة، وينزل الركاب كما كانوا ينزلون من مئات السنين.
تعبر السفينة على جزر يسكنها آلاف وأحيانا مئات، «ميكانوس»، «باروس»، «كورفو»، «أيوس»، «ناكسوس»، هذا الانفراط في الكتل السكانية، وهذه الشساعة التي تُفسر بشكل آخر. ليست شساعة الرعب، بل الحرية. تتقدم السفينة لهذه الآلاف أو المئات كأنك تعبر بإحدى القرى التي تقع على الطريق السريع الذي هو البحر هنا. السفينة مثل البوسطجي، أو عامل السوبر ماركت الذي ستراه عدة مرات في اليوم. يرمي بأكياسه على الأرصفة الصغيرة الخرسانية. نزول وصعود، وإجراءات لا تأخذ وقتا طويلا. تعبر بالقواديم المثبت فيها المركب، وتواجهك مجموعة المحال المواجهة للمياه الصغيرة. السلاسل الحديدية الغليظة، الحبال، الهلب المستوحد على سطح السفينة، يهبط إلى الأعماق عند الرسو، ويخرج بجلبة عند المغادرة، وهناك من يرشد ربان السفينة ويوجهه في الدخول.
* * *
ساعدتنا اليونان بأن تكون الثالث بيننا، الذي لا يمكن إلا أن تتسامح في حضوره، وتفكر مرة بعد أخرى وتراجع نفسك في قرارات حياتك، تجاه الآخر. ساعدتنا في أن تمتص أي غضب كان يتكون في بدايات حياتنا معا، وفي الحسابات المربكة لها. سرعان ما سيزول الغضب وتأخذ المسارات المتعارضة طريقا جديدا، لأننا نتحرك وسط معجزة. هناك ألوان صفراء تنمو فوق الصخور منذ مئات السنين، وفي عزلة جبلية تماما ولا تعرض جمالها أمام أحد. أي شجار يحدث بيننا ونحن واقفان فوق الجبل، أو منسربان بين ثنايا أحد الوديان، ما عليك إلا أن تنظر لهذه المساحات بعين هذا الجبل الذي تقف عليه، أو بعين الوادي، لتستتفه نفسك وذاتك الضيقة التي تنتج مثل هذا النوع من الأسلحة المخربة. كل هذا الجمال ليس معروضًا في متحف قديم أو حديث، الحس المتحفي للطبيعة ليس موجودا، ولا في أي شيء آخر. التواضع، هو الشكل الذي تعرض به اليونان نفسها أمامك، وتمنحك جزءًا منه في رؤيتك لغيرك ولنفسك. كل شيء مقرون بطريقة استعماله. اليونان يمكن أن تكون أحد متاحف الإنسانية التي لا تحتاج لإبراز شيء عن آخر ولا تحتاج إلى موضة. الأشياء التي يحتويها ليست قيمتها في فرادتها بل كونها متحفا مفتوحا للعلاقات الاستثنائية بين الطبيعة والناس والصخور وأشجار الزيتون والعنب والجبال.
* * *

محطات قطار صغيرة لا ترى عليها سوى عائلة واحدة مسافرة، وبائعة التذاكر تجلس وراء الشبَّاك الحديدي وهي حامل، ترفع ابنًا صغيرًا آخر، وترى من خلفها ملابس أطفالها منشورة داخل حديقة من الناحية الأخرى، فبيتها جزء من محطة القطار. كأن شبَّاك التذاكر هو واجهة الديكور ومن خلفه هناك حياة أخرى في الكواليس. في محطة «ميسينا»، إقليم البلوبونيز، ساعدت إحدى السيدات على ركوب القطار بأن حملت عنها بعض حقائبها. فمنحتنا أنا وسلوى برتقالتين من حقيبة ملآنة بالبرتقال تسافر بها. تلك البلدة التي لا يزيد عدد سكانها عن ٦٠٠ مواطن وبها كل شيء متوفر، محطة القطار والكافتيريا والمطعم والفندق والأراضي الزراعية، بجانب قلعة «أجاممنون»؛ ذلك الملك الذي حارب الطرواديين من أجل استعادة «هيلينا» زوجة الملك «مينلاوس» ملك إسبرطة.
في «ميسينا»، حيث ترقد قلعة «أجاممنون»، وصلنا لفندق «هيلينا الجميلة» من محطة القطار عبر طريق طويل راكبين داخل عربة اللحوم التي كانت مصادفة ليلا في المحطة وفي طريقها للفندق لتوصل بعض الطلبات. طرق زراعية تشبه طرق الأرياف. هذا الفندق كان بيت عالم الآثار الألماني «هاينريش شلمنت» مكتشف قلعة وقبر «أجاممنون». سار وراء إلياذة «هوميروس» وتتبع رحلة أبطالها الأسطوريين داخل الحكاية ومنها انتقل للأماكن الحقيقية التي عاشوا فيها، وصدق حدسه. نزلنا في غرفته المسماة باسمه، ذات السرير النحاسي والناموسية. كان معنا في الفندق سائحتان يابانيتان. كان تزييق خشب الدرج الخشبي الذي يفضي للدور الثاني حيث تقع الغرفة، لافتًا في الصعود والهبوط، لذا كنا نتسحب على أطراف أصابعنا كي لا نعمل هذه الضجة ونوقظ السائحتين اليابانيتين اللتين كانتا تنامان مبكرا جدا. في هذا الفندق حضر أيضا «آلان جنسبرج» الشاعر الأمريكي، و«هنري مور» المثَّال الإنجليزي والروائية الأمريكية «فيرجينيا وولف»، والفليسوف الفرنسي «جان بول سارتر»، والموسيقار الفرنسي «ديبوسي»، وغيرهم. جميعهم يمتلكون أمزجة خاصة ومبدعة. أخبرني صاحب الفندق، شبيه «أنتوني كوين»، والذي عاش فترة في الإسكندرية، وكان يضع شريحة برتقال بجانب طبق البيض المقلي في الصباح؛ بأن «آلان جنسبرج» كان يبيت في حديقة الفندق يدخن الحشيش، وترك إمضاءه في دفتر الزوار. وضعت إمضائي بجوار إمضائه، وكان صاحب الفندق حريصًا على أن نكتب كلمتنا باللغة العربية، ليتحول الدفتر إلى كتالوج سياحة بكل اللغات.

* * *

في اليونان يمكن أن تعيش نوعًا من الصعلكة الفطرية، بدون ابتذال أو ادعاء. كونك تسير فوق هذه الأرض الصخرية الملونة القديمة، بين أشجار الجهنمية، بين درجات اللون الأزرق والأبيض للبيوت وللبحر وللنوافذ ولقبب الكنائس، وانعكاس الشمس عليها، بين الصخور البركانية السوداء التي تزين الأسوار وتدخل في طبخة الأرضيات، بين بائعي النبيذ الذين يتسللون مساء ليبيعوا زجاجات نبيذهم المحلى غير المرخص الناتج من معاصر البيوت على عربة خشبية يجرها حمار، وبأسعار زهيدة. ما زال الحمار إحدى وسائل النقل هناك، حيث كان في جزيرة «سانتوريني» يصعد مع صاحبه تلك السلالم الحجرية، تجاه أعلى المدينة حيث يقع بيت صاحبه الفلاح. كل هذا يضعك في مواجهة مع الزيف، والحياة المصطنعة. يسحبك لحياة التصعلك وبدون أمراض صعلكة، وتعود ملكيتك لنفسك. وسط الطبيعة والحياة الأولى والشمس الأولى، لا شك أنك ستكون المكتشف الأول لنفسٍ كانت متوارية. ستكون صاحب انفراد، وسبق لهذه الآثار المكتشفة في نفسك. كما تغوص في أعماق البحار، أو تخرج في سفينة فضاء خارج الجاذبية في الكون الفسيح،

عندها ستمارس التمرد بأحد أوجهه الإنسانية، ستكون مكتشفا لشعور جديد ونقي وحر يولد بداخلك. حرية ليس وراءها قهر. تسكُّع في التاريخ وفي الطبيعة. ولأول مرة تقبل بالتمرد بوصفه تجانسا واكتشافا وليس فقط زُهدا وعداوة للنفس ولنظم الحياة الاجتماعية. اليونان هي المكان الأول للتمرد لأنها المكان الأول للتسكع والسير والمشي والفرجة. وأيضا المكان الأول للسير المجازي وراء الكلام والمعاني لاستجلاء جوهرها المضيء، أو قلبها المعتم. هنا تتبُّع للأفكار حتى نهايتها، عند النقطة التي ينكسر فيها الخط المستقيم وينحني، حيث الفجوة التي تفصل فكرة عن أخرى، أو تصلها بفكرة أخرى. تنام على نفس الأرض التي مر منها الملك «أجاممنون» كما تقول إلياذة «هوميروس». الأرض التي اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة. سبقت الأسطورة، أو تحولت الحقيقة إلى أسطورة. تجاور الطبيعة والتاريخ مع الأسطورة، هذه السبيكة الثلاثية التي لا تصدأ في حياة اليونان.

* * *

في الطريق إلى الجبل في مدينة «بيرجوس»، التابعة لجزيرة «سانتوريني»، نصادف صعودا وهبوطا، باختلاف الطريق؛ كُتلًا صخرية تفرشها ألوان صفراء نباتية، وألوان خضراء، بجانب لون الصخور الرمادي والأسود، وهناك العديد من الأعشاب والزهور تخرج من بين حوافها لتضع الإمضاء المجهول على لوحة الفسيفساء الطبيعية هذه. دخلنا أحد أقبية النبيذ التي صادفناها في طريقنا. يُصنع النبيذ في أقبية تحت الأرض، بعيدا عن الضوء، ويحفظ عند درجة رطوبة معينة. عدد من البراميل الخشبية التي يعتق فيها النبيذ، مصنوعة من خشب الصنوبر أو البلوط. عادة يضعون قطعة من الخشب مع النبيذ داخل البرميل ليأخذ رائحتها. أخذنا واجبنا وتذوقنا من كل الأصناف. اشترينا واحدة معتقة منذ خمس سنوات، وصعدنا بها الجبل مع زجاجة أخرى زوادة من متجر القرية الصغير. تبادلنا الشرب من فم الزجاجة مباشرة، وحلَّقنا مع هذا التركيز الكحولي الـ١٣.٥ في المائة من فوق الجبل تجاه الوديان الآمنة أسفل. اخترعنا لعبة لم نرَ نهايتها. في إحدى الزجاجتين وضعنا رسالة مختصرة بداخلها، عن حياتنا وسبب رحلتنا ومكان إقامتنا في الإسكندرية. تركناها لمن سيسير على خطانا، وسيعثر على الزجاجة، وربما يأتي إلينا في مصر ليرى هذه الأشباح الذي اقتفى أثرها يومًا ما. حالة قصوى من النشوة فردنا لها أجنحتنا في شكل تمثيلي، فلو لم تكن لك أجنحة حقيقية يمكنك أن تطير بأجنحة ذراعيك، خصوصا فوق هذا الارتفاع وهذا الوادي الذي يمتد أمامك. في طريق العودة نصادف أحد الفلاحين، كان يقوم بلف أفرع شجر العنب، كلٍّ على حدة، في شكل دائري حتى يحفظه من الهواء. اقتربت منه، واحتضنته بلا سبب، ربما بسبب هذا الفقر السامي الذي بدا أمامي ممثلا لهذه الحضارة، ولنُسرِّب له هذا الدفء الإنساني الذي نشعر به تجاه كل العالم، والذي كان هو وفقره وطبيعته وأجداده، سببًا فيه. أرد له وديعته.

وهناك أيضا قابلنا منى في طريقنا لمدينة «أكروتيري»، إحدى مدن الجزيرة الأم، تلك المدينة القديمة المدفونة بالرماد البركاني إثر انفجار بركاني حدث حوالي ١٦٢٧ قبل الميلاد. تم اكتشافها عام ١٩٦٧ وما زالت محتفظة ببعض اللوحات الجصية القديمة. ربما كانت هذه المدينة هي المُلهمة لأفلاطون عندما تحدث عن قارة «أتلانتس المفقودة» في محاورتين له. قابلنا منى في أتوبيس العودة من أكروتيري، وربما كانت تراقبنا من بعيد، حتى تأكدت من أننا عربيان. قضت معنا بقية أيامها هناك. كانت متمسكة بنا كطوق نجاة، لا تريد أن تتركنا. كانت تكتم بداخلها ألما كبيرا وعتبا لبلدها بأكمله، ولأشخاص لم ترضَ أن تسميهم أو أن توضح شبكة علاقتها وروابطها

بهم. كان هناك شيء خام وطازج لا زال في هذا الألم، لم يتحول لكلام بعد. اختارتنا لنسكن بصمت بجوار هذا الألم. كنا نلتقي في ساحة البلدة مع الشباب الهيبي المنتشرين هناك يعزفون الموسيقى ويدخنون الحشيش والماريجوانا، ويشربون بيرة «أثوس» الوطنية بغزارة. أعتقد أننا قضينا وقتا جميلا مع بعضنا، وكانت منى حساسة لدرجة كبيرة ولم تشأ أن تعكر علينا صفو الرحلة، كانت تستمتع فقط بوجودنا معًا. ربما عند عودتها خف وزن الألم الذي كان يثقل حقائبها. اتفقنا أنها ستذهب للقاهرة بعد هذه الرحلة الاستشفائية حيث تمتلك شقة هناك. تبادلنا أرقام التلفونات. ولكن لم يحدث أي اتصال بعد ذلك. ولكن لم تغب منى عن بالي طوال هذه السنوات، بسِمْنَتها المشدودة، ووجهها الأبيض وابتسامتها الحزينة.

* * *

الأدب الحديث تمحور حول الغربة والاغتراب والسفر، بصفتها الأداءات الجذرية المتاحة، الطريق ذا الاتجاه الواحد، للبعد عن البيت والوطن والحب، وكل المشاعر المحبطة التي تكونت حول هذه المراكز الأساسية للحياة. سار الأدب مع رحلة عوليس، في نصفها الأول المرتبط بالسفر وترك الديار، ومكوثه على الجزيرة. ربما نحتاج الآن أن نرى النصف الآخر من هذه الرحلة: العودة. الجزء الذي لم يستكمل بعد في الخريطة، ففي عودة عوليس لـ«بينلوبي» زوجته ربط بين مكان السفر والمكان الأصلي، مد جسور التجربة والمعرفة ذهابا وإيابا، طريق باتجاهين، ليتم توسيع هذا البيت، الوطن، وتضميخه برائحة الغربة والاغتراب والسفر، والموت. خلود المسافر بدلا من سِفر خلوده. عودة لإحياء البيت، الوطن، ولكن في مكان جديد وبعد رحلة طويلة.

* * *

نوارس الميناءات الصغيرة، للجزر، التي ترحل مع السفينة لمسافة ثم تعود ككلب الحي الذي يشعر باغترابه مرة واحدة. تغترب عن وطن الشاطئ، تحلق معنا داخل حيز السفينة على مستوى منخفض جدا، تنتظر تلك الوجبة المرفوعة على أسنة أصابعنا. من أي جزيرة قريبة تبدأ النوبتجية، مجموعات تسلمنا لأخرى. النوارس صديق شخصي لكل المسافرين في البحر، والمنتظرين عند حافة أي ميناء صغير.

في الباخرة إلى جزيرة «ثيرا سانتوريني» صادفنا وجود مجموعات من السيدات، في حوالي منتصف العقد السابع، في طريق عودتهن للجزيرة بعد تمضية الإجازة في العاصمة أثينا. بمجرد أن قطعت السفينة مسافة في البحر، حتى بدأن في إظهار مواهبهن في الرقص والغناء أمام البحر المفتوح. وأحيانا كنَّ يدبدبن بأقدامهن على السطح ليُصدرن إيقاعا كصوت إيقاع أقدام الجنود على الأرض في طريقهم لساحة المعركة. سيدات اليونان الآتيات من ذاكرة الحرب العالمية، ما زالت الفكرة الجماعية والغناء الجماعي شيئين أساسيين في حياتهن، ربما هذه الفكرة الجماعية هي السلسلة التي تتجمع فيها الطبيعة والتاريخ والأسطورة.

كل البيوت في الجزر المتناثرة على البحر مباشرة تقع أعلى الجبل، حيث المكان الآمن الذي يتم فيه نسيان رغبة السفر. من الميناء لأعلى، هناك سلم منحوت في الجبل، كالسلم الذي رأيته في كنيسة جبل الطير في سمالوط بالمنيا. ويعتبر طلوعه، مع حمل حجر ثقيل، أحد النذور التي توهب للسيدة العذراء. هنا أيضا تؤدَّى إحدى صور النذور للماضي، تلك الرحلة الشاقة في الصعود على هذا الطريق الجانبي غير الممهد الذي تآكلت درجات سلالمه وأصبح أملس كالمنحدر. تلمس في كل صعود وهبوط عناء القدماء القادمين من البحر.

* * *

في أماكن متعددة بجوار الطرق الصاعدة في الجبال هناك ما يشبه النصب التذكارية. كنت أتصورها في البداية أضرحة لقديسين وأولياء. غرفة زجاجية كغرف التلفونات، بها صورة للسيدة العذراء، وزيت مشتعل باستمرار تحت صورتها، وبجوارها أيضا شمعة مشتعلة. كل منها تخليد لأحد الموتى الذي مات في حادث على هذا الطريق الوعر. يضاء الجبل ليلا بهذه النجوم، والتي تشكل مسارات ودروب الموت وتقاطعاتها، والتي يمكن قراءتها، كما تُقرأ صفحة السماء، لتدلنا على طول خطوط الأعمار المنهية على صفحة الصخور والوديان.

* * *

تدرج البيوت البيضاء على الجبال كما في مدينة «أويا» في جزيرة «سانتوريني» وتناثرها في تجمعات كتجمعات الخلايا تحت المجهر، تمنح جسم الجبل تنوعه. عادة أي جزيرة تُرى من البحر وأنت قادم إليها، تتلألأ تلك البيوت من بعيد، كأن الجبل كله يلوح لك بمنديل أبيض مشتعل. عند نزولنا من السفينة يتواجد العديد من السماسرة ولكن لأن الوقت كان في نهايات أكتوبر فالسياح كانوا قليلين للغاية. ربما كنا السائحين الوحيدين على هذه السفينة. استلَمنا أحدهم وأخذَنا إلى بنسيون «وقت الصيف» الذي تديره الفايرا الفتاة اليونانية الجميلة. لأول مرة أفاصل في السعر وحصلنا على غرفة بحمام وتلفزيون بسعر خرافي حوالي ٤٠٠٠ درخمة، ما يوازي ٤٨ جنيها مصريا، وهذا سعر لا تراه إلا في الأحلام، ربما لأننا قلنا لها إننا سنبيت في الفندق لمدة أربعة أيام فوافقت. أو لم تكن تنتظر حضور أي سائح في هذا الوقت اليوناني من السنة. كان الفندق يطل على أرض فضاء تنبت فيها زهور صفراء برية. كنا نتناول إفطارنا هناك أمام هذه الأرض الصفراء.

لم يكن معنا في بنسيون «وقت الصيف» سوى شخص آخر. لم أره بتاتا، ورأيت فقط حذاءه الرياضي الذي كان يضعه على إفريز شبَّاك الغرفة من الخارج. رمز لرحلة السير اليومية. يختفي الحذاء صباحا، ثم يعود مبكرا ليلا ليرتاح حتى صباح اليوم التالي.

* * *

نحاول أن نقطع البلاد طولا وعرضا، شرقا وغربا، نتهجى تاريخها ونخرج رجال أساطيرها وآلهتها للحياة، ونشركهم معنا في السير. كنا نجسد إحساس شخصية اللاهث، الذي لن يتوقف عن اللهاث طالما هناك تواريخ وأشياء لن ترى بعد. نحن محملون بتاريخ للعالم حتى قبل أن نراه، وعلينا أن نسدد هذا الدَّين القديم الذي ساهم فيه سكان العالم، بأن نقترب منهم ونتعرف عليهم. ونرى، بقدر الإمكان، ولو سريعا كمذاكرة ما قبل دخول الامتحان؛ هذا الاختلاف أو التعدد الذي صنعوه. هناك امتحان يعقد دائما كلما أحسسنا بيننا وبين أنفسنا بقلة خبرتنا أو عقم هذه الخبرة عن أن تولد حماسًا للاكتشاف، وعدم فاعليتها في معرفة الآخر. اليونان من ضمن القواميس الأساسية التي يجب أن تقرأها. هي الأساس لفهم بعض الكلمات، المعاني،البلاد، الأفكار، كما تفعل القواميس تماما مع اللغة. إنها تفسر وتمنح المعنى، وفي الوقت نفسه محايدة، لأنها لم تتورط في الصراع الاستعماري الحديث.

كنا نلهث في سعادة كجزيرة محوطة بالمياه من كل جانب. اللهاث ليس معناه التعجل أو المرور السطحي على الأشياء فقط. اللاهث أيضا يضخ حرارة من قلبه، يقرأ بها سطح هذه الأشياء التي تصادفه. يغطي ببخار تشوقه سطح هذه الأشياء ويأخذ بصمتها ويحملها معه لبلده، ليعيد قراءتها على مهل.

أثناء تجولنا في أثينا ليلا، وصلنا لمنطقة بها استاد أثينا المعروف، حيث كانت تُجرى سباقات الماراثون.نظرت من وراء السور الحديدي الذي يكشف المضمار القديم. شعرت برهبة مثل الرهبة التي شعرت بها وأنا أقف أمام الهرم الحجري بجوار قلعة «أجاممنون» بـ«ميسينا»، حيث موقع أحد قبوره التسعة. ركوب آلة الزمن والعبور لزمن آخر. بالرغم من أن المكانين مفرغان من أي رموز تاريخية، ولكن هناك زمن حقيقي غير رمزي يملأ هذين المكانين بقوة. تخشى أن تلبسك أرواح هذا الزمن الهائمة في المكان. توقفت كثيرا أمام هذا الهرم، وترددت في الدخول. الظلام كان دامسا في الداخل، هذه الحلكة تحولت إلى مكان له أبعاد لا أقدر على إرسال ذبذباتي لها وتحديد موقعي منها. دخلنا ووقفت في المنتصف. لم يكن أحد غيرنا بالمكان. ثم بدأت الألفة، الوقت الذي استغرقه هذا الظلام ليتحول إلى رموز ومساحات وأبعاد بدأت أقرؤها مثل حروف البرايل.

* * *

لم أفكر بكتابة هذه الرحلة التي قمنا بها عام ١٩٩٨، عندما كانت اليونان لا تزال تتعامل بالدراخمة. ألف دراخمة يساوي اثني عشر جنيهًا مصريًّا: كانت وحدة القياس اليومية في تعاملاتنا. كنت أخشى من أن أفسد الرحلة بالكتابة. فلأترك لنفسي وجسدي وعقلي وخيالي بأن يتفاعل بكل الحواس الممكنة مع هذا المشهد متعدد الأطراف والطبقات والزوايا. ولكن ظل هذا «النص» الذي يخص اليونان، والذي لم يُكتب في حينها؛ عبارة عن أشباح وصور وأحاسيس مجتزأة، وأفكار مبتورة، واندهاشات. أصبح كحبات ملح منثورة على أرض من رخام، تماهٍ وذوبان، وذرّية في المشاعر بدون اكتشاف شموليتها الكامنة فيها. أذهب وأعود لأتفرج على ألبومات الصور التي صورتها سلوى، فيُعاد الشريط في ذاكرتي، ثم أكتفي بهذا السرد الشفاهي الصامت لهذه الرحلة الأوديسية. ربما ثقتي في هذا الشريط جعلتني مكتفيا، بأن هناك نصًّا ما أحتفظ به في مكان ما في الذاكرة. هذا النص مثل الشريط المضغوط، بمجرد أن يجد المساحة والذاكرة المُستقبِلة له سرعان ما سيتحرر ويعلن عن نفسه. ربما كانت الرحلة أيضا مثل الصور المطبوعة على فيلم سالب، وتنتظر ما يظهرها، لتتضح تلك النسخة الموجبة. ربما الرحلة كلها كانت، برغم كل مفاجآتها ونشوتها، تدور داخل حيز هذه النسخة السالبة، الروح السالبة، العنف الداخلي، من ناحيتي، والذي كان في طريقه لأن يذوب. كانت التجربة برغم جدتها تحتوي على ما يعطل ظهور النسخة الموجبة منها. وربما هذا الزمن الذي أخذته الرحلة وصورها السالبة، داخلي طوال ١٧ عاما؛ كان من أجل أن تتعتق وتُظهر نسختها الحقيقية الموجبة. تلك النسخة التي كنت أثق في وجودها برغم كل شيء. يمكن أن تكون النسخة الموجبة هذا الزمن الطويل بين لحظة السفر والحاضر، تلك العين المتواضعة التي نرى بها الأشياء، والتي تُثمن كل شيء، كل شيء، مهما كان بسيطا، ومهما كان صغيرا، طالما كنت مسافرا. داخل السفر كل شيء مهم وقابل للتأويل وقابل أيضا لأن يمتد ليتحول إلى ذكرى. السفر مادة مستقبلية على الدوام. كان البلد يتعتق بداخلي، وكل زمن يمر لا يفسدها بل يزيدها تركيزا في ذاكرتي، كأحد البراميل العمياء في تلك الأقبية المعتمة والمشبعة بالرطوبة في برجوس.

* * *

في اليونان الأرض هي البحر، هي الرابط بين مكان وآخر، فكرة وأخرى، والجزيرة هي الأرض الثابتة وسط هذه المياه، إحدى علامات الترقيم الثابتة في هذا النص اللغوي المتحرك. اليونان كالطفل الذي ولد في المياه، وحبل مشيمة أفكاره كان ممتدًّا على الجزر.

* * *

في مدينة «نافبليو»، التي تقع ضمن منطقة البلوبونيز، فكرنا بأن نستأجر إحدى الغرف مع إحدى العائلات، والتي تؤجر عادة للسياح. كانت رغبتنا بأن ندخل قلب المدينة من أقصر طريق. ذهبنا مع السمسار للبيت، وكان لسيدة مسنة. أبواب بأربع ضلف ونصفها من الخشب والنصف الأعلى من الزجاج، وأثاث كبير ورائحة طبيخ تعبق البيت. وفي الغرفة التي من المفترض أن نسكنها، وضعت السيدة على الأرض، على سبيل الزينة، حبات كبيرة من قرع العسل. خطر على بالي سريعا، بسبب كبر حبات قرع العسل، بأنها يمكنها أن تلتهم الروح الآدمية النائمة بجوارها وتحولها إلى روح نباتية، كما في فيلم قديم رأيته اسمه «تحول». في الفيلم كان النبات يتسلل للإنسان وهو نائم ليحوله إلى كائن نباتي في مصنع كبير مخصص لإنتاج هذا الفصيلة النباتية الممسوخة من البشر. شعرت باختناق من تقليدية البيت الذي يشبه النسخة الكابية من بيوت الطبقة المتوسطة في الستينيات. كذلك خشيت من تعاطفي مع وحدة صاحبته المسنة. انسللنا مرة أخرى للشارع ومنه إلى أحد البنسيونات الأغلى ثمنا.

* * *

في إحدى حدائق مدينة «أرجوس»، في منطقة البلوبونيز، بينما نقشر الفستق ونتأمل حياة الناس، لمحنا أحد الشباب المترهلين، في الثلاثينيات من عمره، يجلس على طرف مقعد خشبي، وعلى الطرف الآخر القريب منه، من مقعد مجاور؛ تجلس فتاة صغيرة تبدو متخلفة أو لها ابتسامة مبالغ فيها. ظلا يتبادلان النظرات، والابتسامات وهو غير قادر على أن ينتقل هذه الأمتار القليلة التي تفصل المقعدين الخشبيين. الفتيات المراهقات بشكل عام يملأن بروائحهن ودخان سجائرهن شوارع كل المدن اليونانية، وخاصة العاصمة أثينا: كافتيرياتها، مطاعمها، محلاتها، شوارعها، أسواقها، ليل إجازاتها. يسرن بسرعة لافتة وفي جماعات بملابس خفيفة، وغاية في الأناقة، في حقيبة كل واحدة منهن علبة سجائر، سرعان ما تخرج وتبدأ في وصلة تدخين طويلة.لاحظت أن السيدات على الأخص أكثر تدخينا عن أي مكان آخر رأيته في أوربا. أعتقد أنها إحدى الهوايات الحريفة لنساء المتوسط. الشباب بشكل عام يفرض عمره وطابعه على الشارع، حيوية مختلفة عن كل أوربا، والأطفال الصغار يملئون نهارات الآحاد في الحدائق العامة. الرجال إما متأنقون يعملون وراء أحد المكاتب في أحد البنوك أو شركات السياحة والتجارة والعملة وغيرها. وإما تقليديون تماما، يعيشون حالة المعاش المبكر. منذ هذا الوقت تشعر بثقل البطالة والأزمة الاقتصادية في اليونان. كروشهم التي يمدونها أمامهم وذقونهم غير الحليقة، وشعورهم المغموسة في زيت البريانتين، تلمع ولا تتحرك كأنها تخشبت بواسطة رماد بركاني. هؤلاء المتبطلون بمزاجهم، الذين يملئون الحدائق العامة، والمتحرشون بالناس في حي أمونيا القريب من مجلس الوزراء في سندجما. أحد هؤلاء الشباب المتعطل قابلناه في أحد المتاحف في كورفو. له ذقن غير حليق، ويلبس قميصا ناصع البياض، ويشعرني بأنه للتو قد استيقظ من النوم. عندما سمعَنا نتحدث خمَّن بأنها اللغة العربية التي يأمل في شعوبها الخلاص. اقترب منا واستأذن في الحديث، فأذنت له، وعندما عرف بأننا بالفعل عربيان ومسلمان، برقت عيناه، وقال فيما معناه إن الإسلام هو الدين القادم، أو فرس الرهان القادم، الذي سيخلص العالم من الرأسمالية، بدلا من الشيوعية التي تراجعت أسهمها في بورصة الحقيقة. كان «سبيرو» منهمكا في أن يشرح لنا النعمة المقدسة والمكان المقدس اللذَين نعيش في كنفهما، ربما كان يثق فينا أكثر مما نثق نحن في قداستنا. لم ينس أن يحدثني عن شاعره المفضل «يانيس ريتسوس»، صاحب التفاصيل الإنسانية الصغيرة المبهرة،

والذي لا يعبأ كثيرا بنظريات التاريخ. تبادلنا المعلومات أيضا عن الشاعر السكندري كفافيس. وشرحت له سبب مجيئي لكورفو، لأقتفي أثر الكاتب «هنري ميللر». قبل انصرافنا ترك لي ورقة بكل تفاصيل شبكة اتصالات حياته، والعناوين وأرقام التلفونات المحتملة التي يمكن أن أجده فيها، لو جئنا مرة أخرى لليونان.

* * *

في الطريق إلى كورفو مررنا بقناة كورينث. هذا المضيق الذي تمر عليه السفينة كأنك داخل استديو كبير وكل ما حولك عبارة عن ماكيت كبير. الجبال قريبة وعالية وارتفاعها يجعل السفينة تبدو كـ«جليفر» في بلاد العمالقة. لعبة تتأرجح وسط هذا البحر الهائج. دائما هناك توقع لسقوط إحدى الصخور، لانهيار ما، زلزال، بركان، لذا كل الجبال التي تخترقها الطرق السريعة، بين البلاد، مكسوة بشِباك عملاقة مصنوعة من الحديد، كي تمنع تدحرج الصخور على الطريق عند سقوطها. عدة مرات حدثت انهيارات في الجبال المحيطة بمضيق كورينث.

في اليونان حيث تجلس الآلهة والأساطير في غرفة، وفي الغرفة المجاورة يحتلها الفن الذي يشمل كل اليونان من أول لون الصخور للأشجار للأبيض والأزرق الغالبَين هناك، لحميمية المطاعم والبارات كأنها عمل فني يضم اللون والكتلة والفلسفة والرائحة، ويقف من خلفها الإنسان الذي صنعها، والطاهي الذي طبخ، والعائلة التي اجتزأت جزءا من بيتها لتحوله إلى ترانزيت. ذوق تلقائي، هو الذي كون هذه الأماكن. ارتجال وتراكم الحياة اليومية. تلك البيوت التي تضع منضدة أمام الباب، تبيع عليها المربى، ومربى المستكة، وعسل النحل، وجبن الماعز. عبوات زجاجية إنسانية جميلة، ومغطاة بقطعة قماش هي لوحدها قطعة فنية. ارتجال الحياة ممتزج مع الفن اليدوي مع الإنسان، في كل شيء: هذه المطاعم الحميمية، والكافيهات في الطريق إلى معبد الأكروبوليس، ومطاعم حي بلاكا، والسيدات اللاتي يشوين أبوفروة في ليل أثينا الممطر، السيدات اللاتي يبعن المربى، زجاجات النبيذ التي تصنع في البيوت، أشجار البرتقال وثمارها الصفراء التي تغطي كل شوارع أثينا، وأحيانا تستخدم داخل فتريناتها، كلها نقاط هامة على المسار هناك.

* * *

الأيام الثلاثة الأخيرة من الرحلة قضيناها في أثينا. كنا قبلها وصلنا لمدينة باترا ومنها لجزيرة كورفو، ووضعنا على الخريطة تلك النقاط التي سنصل عبرها إلى مدينة تسالونيكي، ولكن يبدو أن سلوى بعد أن وضعت الخطوط المتقطعة على الخريطة التي نحملها في دليل السفر، غيَّرنا خططنا وعدنا لأثينا، بسبب الأسعار المرتفعة وما تبقى معنا لقضاء الأيام القادمة لنا في أثينا. حتى الآن، بعد ١٧ سنة، أشعر بأننا زرنا تسالونيكي. كانت أثينا ممطرة طوال الأيام الثلاثة. ندخل ونخرج للفندق فنرى مدبره الشاب وهو جالس على الأرض يقوم بترميم الأرضيات الخشبية والحوائط. عندما يرانا يبادرنا: إنها تمطر. أجيبه: «نعم إنها تمطر»، وكل ملابسي مبتلة من المطر. هذه هي تحية المطر في اليونان. حتى عند سفرنا في الفجر كانت الطائرة الصغيرة التابعة لشركة أوليمبيك غارقة في المياه على أرض المطار،كطائر منكمش لا حول له ولا قوة وكان من الممكن أن تؤجل الرحلة. كان على الطائرة، كما في رحلة الذهاب، مجموعة من فتيات تاجرات الشنطة، بصحبة التاجر الكبير الذي يشغلهن. كل منهن بينما تتحدث عن ذكرياتها في تهريب البضائع من جمارك المطار؛ كانت تخلع طبقات الملابس المخفية تحت البالطو الصوفي الثقيل، التي كانت تضعها فوق جسمها. تحولت الطائرة لغرفة تغيير ملابس.

كانت أثينا طوال الرحلة ترانزيت ندخلها ليلا ونغادرها لبلد آخر صباحا. ضمن هذه التوقفات السريعة كنا نضع حقائبنا في مخزن الفندق الصغير. كان «لويك»، ذلك الطالب الفرنسي، المسئول عن هذه الغرفة. لكثرة دخولنا وخروجنا من هذه الغرفة، بدأت علاقتنا تتوطد نوعًا ما مع «لويك». كان يدرس في فرنسا وجاء للعمل في الصيف في اليونان. أعجبه الجو فأراد أن يكمل رحلته لمكان آخر، وهكذا. دعوته لزيارة مصر، وحكينا له، أنا وسلوى، كثيرا عنها. الحكايات غير الموجودة في «دليل السفر» الذي يصحبه أي أجنبي معه. فابتسم بلطف متسائل. بعدها بعدة شهور وأنا مسافر للإسكندرية في محطة مصر بالقاهرة قابلته وهو قادم من خط الصعيد. استوقفته وكان مندهشا من هذه الصدفة. كنت أحب مثل هذه الصدف، تمنحني ثقة وتختصر مراحل ودرجات ومراتب في العلاقة بين اثنين، أو بين أي جماعة. لأن الاثنين عاصرا صدفة تجعل هناك طريقا آخر للفهم وللتبادل. قادتنا الصدفة مع «لويك» لنصطحبه للإسكندرية وندعوه لبيتنا ويجلس مع والدتي التي تتحدث الفرنسية، بينما هو منبهر بها، وبالملوخية وببيتنا أنا وسلوى واللوحات التي تزينه. وضعتنا الصدفة في تساوٍ كوني.

* * *

في «دليل السفر» الذي نحتفظ به حتى الآن لرحلة أو للرحلات الأخرى للبلاد التي زرناها. داخل هذا الدليل كانت هناك تلك الخريطة المرافقة والموضح بها الأماكن والمدن والجزر التي زرناها، خط سير الرحلة مرسوم بالنقاط المتقطعة، والأسهم، وكأنها خريطة لأحد المعارك البحرية، وتلك الدوائر هي البلاد التي احتللناها مؤقتا طوال فترة زيارتنا. أيضا داخل «دليل السفر» احتفظت سلوى ببعض التذكارات. منها تذاكر زيارة متحف أكروتيري، ومتحف أثينا. بالإضافة لتذاكر السفر بالقطار لميسينا، وأخرى لتذاكر السفر بالباخرة لجزيرتَي سانتوريني وكورفو. وشيك مطعم في باترا يقدم البيتزا الإيطالية. وهو شيء نادر قليلا في اليونان، وهناك تشعر بأنك في مدينة إيطالية، والمسافة مع إيطاليا قريبة جدًّا فركة كعب. وأيضا هناك خريطة داخلية لمدينة أثينا موضح بها مكان «محطة قطار لاريسيس» الذي كنا سننتقل منه لتسالونيكي لو فشلت رحلة السفر إليها من كورفو. وفي باب الفنادق والإقامة في «دليل السفر» هناك علامات «صح» كثيرة بجوار الفنادق التي فكرنا فيها واخترنا من بينها في أثينا وميسينا وكورفو وغيرها. تجد أسماء «أكروبوليس هاوس»، «بيلا هيلينا»، «كوروس هاوس». وطبعا بجانبها أسعار مبيت الليلة الواحدة أو الثلاث ليالٍ. هناك فندق مكتوب بجواره أننا قضينا الليلة فيه بما يوازي ١٥٠٠٠ درخمة، أعتقد أنه كان في مدينة باترا، لأنه لم يكن هناك غيره، وهذا يوازي بسعر عام ٩٨ مائةً وثمانين جنيها.

قبل السفر كان «دليل السفر» قد وضع ميزانية تقريبية لتكلفة الفرد في اليوم الواحد: إقامة ومواصلات وطعام بما يوازي ٣٢ دولارا. ولكن عندما ذهبنا بهذه الحسبة المفترضة، وأخرجنا الدليل للفنادق المذكورة فيه وأسعارها المثبتة والمعلنة عنها، تنكر بعضهم، وقالوا إنهم لم يسألهم أحد، ومنهم من قال إن الأسعار قد تغيرت وإن الأسعار المذكورة في الدليل قديمة. بالفعل كانت هناك زيادة حوالي ثلاثين في المائة عن دليل السفر.

هناك أيضا في دليل السفر ميعاد السفر بالقطار لميسينا، التوقيت: ١٣. ٣٩، بتاريخ ٦/١١/١٩٩٨. ومكتوب بعدها بخط سلوى «إن ميسينا تبعد اتنين كيلو عن كورينث - أرجوس». وتحت عنوان مدينة أرجوس في الدليل هناك خط تحت «سوق الأربعاء الذي يعقد في المدينة». ودائرة حول المتحف الأركيولوجي. بالإضافة لكارت بنسيون «وقت الصيف» الذي نزلنا فيه في ثيرا -

سانتوريني. مرسوم على الكارت رمز الشمس بالأصفر واللون الأزرق في الأسفل. وفي صفحة أخرى مدسوس بها إعلان لشركة سياحية. عادة سلوى أن تحتفظ بهذه التذكارات. وفي ألبوم الصور الخاص بالرحلة على الجبل في برجوس اقتطفت مجموعة من الزهور البرية من بين بلاطات الموزاييك الطبيعي، وصبَّرتها بجانب الصور داخل الألبوم.

نستعيد الرحلة في دليل السفر. هناك ورقة مطوية مكتوبة بالآلة الكاتبة قبل اختراع الكمبيوتر، عن مواعيد السفر للبواخر لسانتوريني. وتحت اسم مدينة كورفو هناك دائرة حول متحف الفن الحديث والذهاب إليه بـ«القطار القديم». وعلى باطن الغلاف الخلفي للدليل، هناك تلك المعادلة الحسابية التي كنا نلجأ إليها باستمرار: ١٠٠٠ درخمة = ١٢ جنيهًا مصريًّا، وتحتها مباشرة: ١٠٠ درخمة تساوي ١٢٠ قرشًا مصريًّا. وبه أيضا مكان شراء التذاكر في وسط أثينا في فيلينون بحي بلاكا الذي يشبه حي الحسين في القاهرة بتداخل مطاعمه وحسه السياحي والذي قضينا فيه أغلب أوقات التسكع. وهناك أيضا رقم الأتوبيس الذي يقلع من أثينا باتجاه بيريه رقم ٤٩. ومكتوب أيضا «المسافة من بيريه لسانتوريني: ٩ ساعات»، و«الحجرة في سانتوريني في نوفمبر تساوي ٤٠٠٠ درخمة». الأصفار الكثيرة كانت تلخبطنا. كنا مليونيرات بهذه الآلاف من الدراخمات التي خرجت ودخلت جيوبنا عند نقاط تغييرالعملة، والتي كانت إحدى نقاط مسار الرحلة هناك.

صورة من خريطة الرحلة كما هي في « دليل السفر» الذي صحبنا هناك.

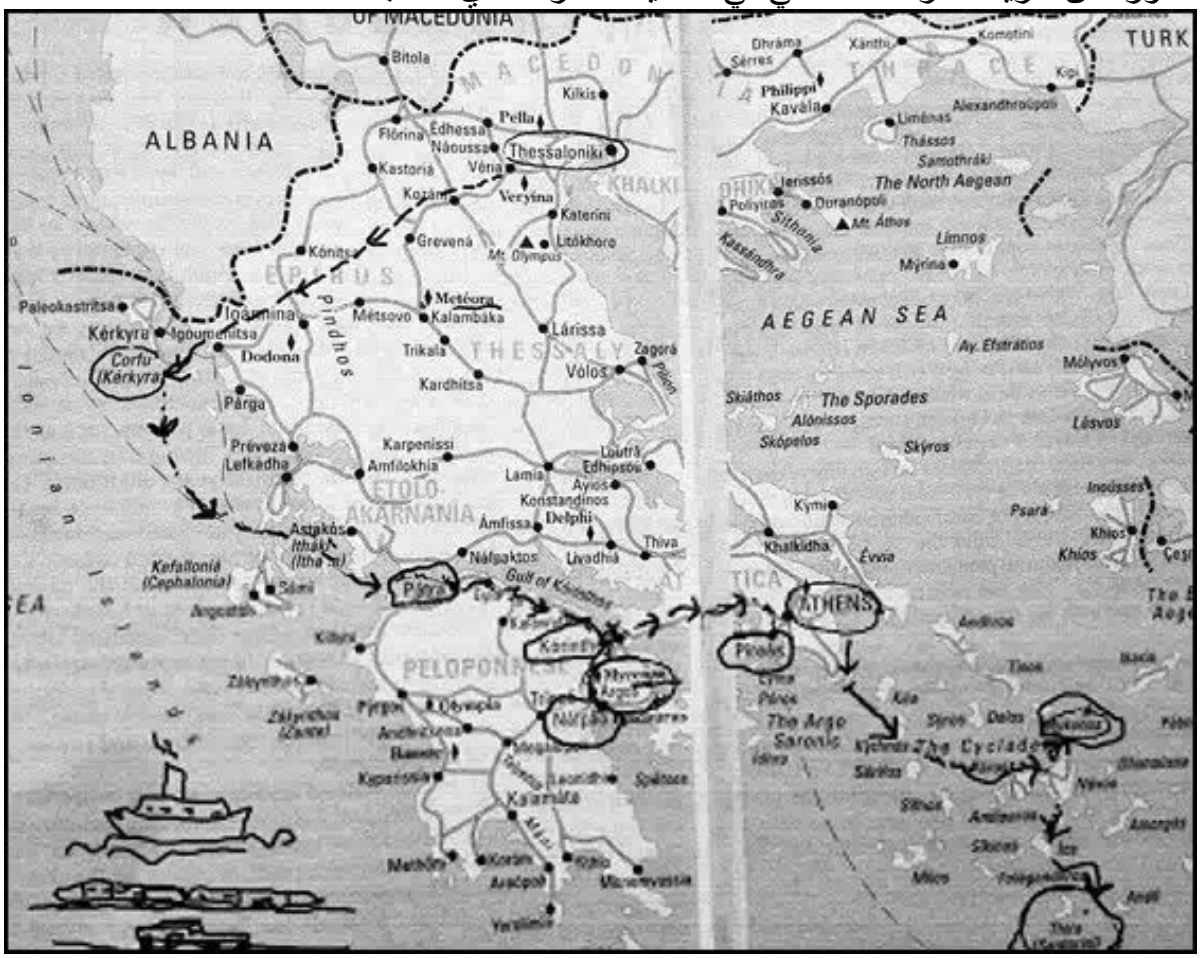

اليونان – الإسكندرية

أكتوبر ١٩٩٨- سبتمبر ٢٠١٥